فريق العمل
المهمة
الثالثة

حيث كانت الحياة - بكل غدرها - أكثرهم براءة

الجزار

رحمة نبيل

مدينة الأدباء للنشر و التوزيع

1 شارع حسن أبو زيد – الزاوية الحمراء - القاهرة

01019978066 - 01117130961

Cityofwriters24@gmail.com

حارة الجزار | المهمة الثالثة

رواية – رحمة نبيل

رقم الإيداع 22080 - 2024

الترقيم الدولي 6 – 31 – 8984 – 977 – 978

جميع الحقوق محفوظة @

يمنع منعًا باتًا الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة، أو النشر الإلكتروني، أو التصوير الضوئي للمحتوى، أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر والمؤلف. ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية طبقًا لحقوق الملكية الفكرية المنصوص عليها في القانون.

التدقيق اللغوي: عبد الرحمن زايد – تصميم الغلاف: محمد علي – الإخراج الداخلي: City Books

الإهداء

إهداء لهؤلاء الحمقى الذين وثقوا بمَن حولهم، ورأوا بهم موسى متغافلين عن فرعون الذي يلوح في نظراتهم.

إهداء لكل مغفل أمن مكر الحياة وصدق معاهدة السلام الوهمية التي وقعها معها.

***

المقدمة

الغدر، الخداع، الخيانة، الظلم، الظلام، الحقد، وملوخية عفاف..

كلمات مرعبة قد تحمل وقعًا مؤلمًا للبعض، وذكريات سوداء للبعض الآخر.

تلك الكلمات المذكورة أعلاه لا يمكنها أن تجتمع في مكانٍ واحد في العادة، إلا في الجحيم فقط، لكن شاء الله وحدث هذا في تلك المهمة؛ مهمة تدعوك عزيزي المحقق - صاحب خبرة يومين ونصف في مجال التحقيق- أن تخلع رداء الجبن وتشمر أكمامك وتتقدم من الحلقة التي نعقدها، وتتلو عهودنا الخاصة، ثم تأخذ نفسًا عميقًا، عميقًا، أكثر.. أكثر، وأكثر.

خذ أنفاسك بعمق كما لو أنك لن تتنفس بعد هذه اللحظة، والآن استمع لما سيُقال، فهذه كلمات مهمة لتعلمها:

إنّه أنا قائدك، أفضل محققي المعمورة، أحدثك على أعتاب المهمة الجديدة، حيث أقودك رفقة سرب البط البلدي خاصتي، للكشف عن غموض آخر، وتحقيق عدالة أخرى، لكن هذه المرة تخطت الأمور كل التوقعات، وقد وصلنا لمرحلة اللا عودة.

وإن كنت تتساءل عن خطة العمل فهي بسيطة؛ نلقي بأنفسنا بين دهاليز المهمة، ونتضرع للمولى أن ينجينا من أنفسنا قبل المجرمين.

فمرحبًا بك في فريق العو، حيث لا مكان للأذكياء ولا مكان للتفكير.

والآن اخفض نظراتك بعض الشيء وحدق في عنوان مهمتك الجديدة.

مرحبًا بك في "حارة الجزار".

***

تنويه قبل القراءة

جميع الأحداث في هذه الرواية، وجميع الأسماء والأماكن، هي من وحي خيال المؤلف، ولا علاقة لها بالواقع، حتى وإنْ تشابهت مع بعض الأسماء، فكلها في النهاية من وحي الخيال، وهذا العالم الذي أنت على وشك العيش به، هو عالم موازي خُلق في رأسي يومًا، وها أنتم على وشك الدخول إليه؛ إلى عالم جديد حيث لا مكان للأذكياء، ولا مجال للتفكير.

الفصل الأول

(مهمة جديدة)

"غريب ذلك الإنسان الساذج الذي يعتقد أنّ وردية حياته الحالية ستشفع له في سوادها المنتظر"

لوّح لأصدقائه مودعًا بعد سهرة شبه معتادة قضاها في الحديث واللهو، سهرة اعتاد أن يبذر بها دقائق عمره دون حسبان ودون اتعاظ لما يحدث حوله.

زفر سمير يُخرج قطعة قماشية يستعملها في العادة كمحرمة خاصة به، يجفف بها قطرات عرقه التي انتشرت على جبينه جراء جلوسه فترة طويلة داخل ذلك المكان المغلق العامر بالأدخنة.

توقف على قارعة الطريق يحدق يمنة ويسارًا بحثًا عن أي وسيلة مواصلات قد تنقله صوب منزله، لاعنًا بخفوت إصرار رفاقه على السهر في هذا المكان تحديدًا والذي كان بيئة خصبة لكل ما هو سيء.

ابتسم بسخرية يتحرك مقررًا السير خارج هذا الشارع صوب الرئيسي؛ علّه يصطدم بأي وسيلة مواصلات تلقي به أمام منزله، وأثناء ذلك ارتفع رنين هاتفه ليخرج سمير الهاتف متأففًا مجيبًا على متصل يعلم هويته سابقًا؛ ومَن غيره سيتصل به في هذا الوقت من الليل عدا أصدقائه الذين تركهم للتو بالفعل؟

- أيوه يا أمّا.

صمت ثواني يسمع صوتها الذي وصل له حادًا لاذعًا من الجهة الأخرى:

- أنت فين كل ده يا سمير؟ كام مرة أنبّه عليك ترجع بدري وأنت مش بتسمع الكلام، يعني مش عاجبك اللي بيحصل حواليك؟ أنت يا ابني مُصِّر تحرق قلبي عليك؟

تأفف للمرة المليون وهو ينظر للشوارع الساكنة حوله، فرغم أنّه يسكن بمكان يسميه "لندن المصرية والتي لا تنام لحظة" شارع فيصل العامر بالمارة طوال اليوم، إلّا أنّ تلك الشقة والتي تعد مخبأ له مع رفاقه، كانت في منطقة بعيدة اعتاد الذهاب لها معهم؛ كي لا يتسببوا في إزعاج الجيران وينتهي بهم الأمر مسحوبين مع رجال الشرطة:

- وهو كان إيه اللي بيحصل يعني يا أما؟ بعدين أنتِ إيه الي مصحيكِ لغاية دلوقتي؟ روحي نامي وأنا خلاص ثواني وداخل على البيت.

كذب فقط لينتهي من وصلة العتاب تلك، يبعد الهاتف عنه يحاول تخطي صوت صياح والدته التي استمر صراخها عليه دقيقتين تقريبًا قبل أن تُنهي مكالمتها بجملتها المعهودة:

- ربنا يهديك يا بني، يلا ارجع خليني اقفل الباب وأنام.

ختم هو المكالمة ببعض الكلمات المقتضبة يضع الهاتف داخل جيبه، ثم أكمل سيره ينظر في ساعة يده متذمرًا من تشدد والدته عليه، لا يكفيه والده الذي يُنغِّص عليه حياته منذ سنتين تقريبًا

لتكمل هي عليه، ألا يمكنه أنْ يحيا ببساطة دون أي تنغيص في الحياة؟

فجأة وحين وصل سمير لأحد الطرق وقبل خروجه من تلك الأزقة صوب الطريق الرئيسي أبصر شيئًا غريبًا، رجل يقف في منتصف الطريق بشكل مريب جعله يتلفت حوله بحثًا عن أحد لربما كان ينتظره، لكن كان الطريق خاليًا إلا منهما، رفع حاجبه بدهشة يكمل سير دون اهتمام بأي شيء حوله، يتحرك جهة بداية الطريق ليبحث عن أي سيارة، لكن ذلك الرجل كان مريبًا بشكل مرعب، إذ كانت عيناه تتحرك مع سمير وكأنّه كان في انتظاره، شعر سمير بالرعب بدأ يتسلل له، وكيف لا وهو شهد بعينيه ما حدث لنصف رفاقه قبله، لكن كل ذلك توقف منذ شهور صحيح؟ لقد أخبروهم أنّهم أمسكوا المجرم الذي قتل نصف رفاقه، أم أنّهم كذبوا؟

عند هذه الفكرة انتفض جسد سمير يحث خطاه أكثر بعيدًا عن ذلك الرجل وتلك الأزِقّة التي كانت أكثر من مناسبة لارتكاب جريمة قتل، بل كانت كما لو أنّها تمنحك فرصتك الذهبية لقتل أحدهم دون الشعور بك.

في هذه اللحظة أسرع سمير الخطى حتى أصبح يهرول بشكل جنوني بعيدًا عن هذا الرجل، والذي بمجرد أن رآه يتحرك جواره حتى اتسعت بسمته من أسفل لثامه؛ لثام صنعه من أحد الأوشحة الرجالية الشعبية، تلك العمامات التي تتميز بها فئة لا بأس بها من أهل مصر، استغلها ذلك الرجل ليخفي خلفها ملامحه الحاقدة، بدأت أقدام ذلك الرجل تتحرك بسرعة موازية لسرعة سمير، حتى

تحول الأمر لمطاردة بين الاثنين، وسمير ذلك المسكين شعر فجأة بقرب توقف قلبه مرتعبًا أن يلقى نفس المصير الذي تلقاه ثلاثة من رفاقه قبله؛ مُقطّعًا مرميًا في مجرى المياه، هذه الفكرة جعلت ضخ الأدرينالين يزداد بين أوردته وهو يصرخ بجنون بين الطرقات علّ أحدهم يشفق عليه من هذا الرعب.

- أنت عايز منّي إيه؟ أنت مين؟ الحقوني، حد يلحقني، حد يلحقني، حد يلحقني، أنت عايز مِنّي إيه؟

كان يكرر حديثه بهستيرية لو سمعها الحجر لانشق حزنًا عليها، وقد بدأت دموعه تهبط وهو يبصر إصرار ذلك الرجل على الركض حوله وقد التمعت سكين في يده، ركض وركض حتى توقف فجأة يستوعب أنّه وصل لأحد الأزقة المُغلقة، وكأن القاتل قاده حيث يريد، توقفت قدماه بالتزامن مع توقف ضربات قلبه، استدار بوجه شاحب وجسد مرتجف صوب ذلك الرجل الذي ابتسم بسمة لم تظهر لسمير يقترب منه ببطء، بينما سمير لو استطاع حفر طريق داخل الجدار والهرب لفعل، بدأ ينهار أرضًا وهو يهتف بصوت مرتجف هلع:

- أنت عايز مني إيه؟ أنا عملت ليك إيه؟ أنا عملت ليك إيه؟

ابتسم له الرجل وقد أصبح على بُعد خطوة واحدة فقط من سمير يفك لثامه الذي يُخفي خلفه ملامحه، وكأنه أراد أن يرى نظرات الفزع التي علت وجه سمير في تلك اللحظة وهو يهمس بعدم تصديق:

- أنت؟ أنت.. أنت مش.. أنت.. ليه؟ أنا عمـ

والرجل لم يكن بذلك الكرم ليمنحه وقتًا إضافيًا يعبر فيه عن صدمته بهويته، إذ أمسك عمامته البيضاء والتي استخدمها كلثام يلفها حول وجهه بسرعة كبيرة يكتم بها أي محاولة للصراخ ومِن ثَمّ وجدت السكين طريقها لجسد سمير، كما سبق وفعلت مع أجساد باقي رفاقه الذين سبقوه، ليكون آخر ما يُبصره سمير قبل اختفاء الحياة من عينيه وجه آخر شخصٍ توقع أن يكون هو الجاني.

وهكذا انطفأت الحياة بعيون سمير، والتمع الانتقام بأعين الرجل أكثر وأكثر، يهمس بصوت منخفض وهو يميل على جثة سمير:

- متقلقش يا سمير، الباقيين هيلحقوك أنت وصحابك، كلهم هيلحقوك، بس الصبر يا أبو سمرة.

***

بين طرقات المدينة المزدحمة والتي يتوافد إليها الجميع من كل حدبٍ وصوب، فإن كان عدد سكان مصر في هذه الفترة نحو مائة وعشرة مليون إنسان؛ فالقاهرة وحدها تمتلك مائة مليون والعشرة مليون الباقيين تم توزيعهم بالتساوي على بقية المحافظات.

ضرب مقود السيارة يتأفف بحنق وقد كانت هذه مرته الأولى التي يتأخر بها عن العمل، ليس وكأنه لا يحق له التأخر خاصة بعد كل تلك الإنجازات غير المسبوقة التي حققها مع فريقه، لكن لأنه لم يعتد أن يتلوث ملفه ناصع البياض بمخالفة كالتأخير في العمل، يكفي أن ملفه لا يحوي حسنة واحدة سوى التزامه هو وفريقه.

وأخيرًا أصدرت سيارة "أسامة" صوتًا صاخبًا مزعجًا في الأجواء

حوله دليلًا على توقفها، ابتسم ينتزع المفتاح من السيارة، ثم خرج يغلقها بهدوء شديد، ومن ثم تحرك بكل كبرياء صوب الداخل ونظراته الشمسية رقم مائة وسبعين تعلو وجهه، ولم يكد يبلغ باب المنظمة التي يعمل بها حتى سمع صوتًا مألوفًا يصدر بالقرب من المكان.

توقفت أقدامه وهو يستدير حوله بحثًا عن صاحب الصوت، حتى لمحه، يقف هناك أمام باب المنظمة بكل ثقة وتكبر غبي يضع يديه داخل جيب بنطاله مرتديًا نظارة بلاستيكية ذات إطار أبيض متحدثًا ببسمة واسعة مفتخرة:

- والله النجاح كله كان توفيق من الله عز وجل، ومن ثم قوة ملاحظتي ومهارتي في كشف المجرم من نظرة واحدة، محسوبك بعونك يا رب يرمي المجرم بنظرة واحدة يعرف إنّه مجرم.

أبعدت المذيعة مكبر الصوت من أمام فم "جلال" تردد ببسمة متحمسة:

- وعلى كده مخفتش في أي مهمة ليك؟ يعني اللي أعرفه إن الجرائم مش بتكون سهلة!

رفع جلال حاجبه من أسفل نظارته، ينتزعها بقوة وهناك بسمة جانبية خطت طريقها على وجهه، وقد علا الاستنكار ملامحه:

- أخاف؟ يا آنسة أنتِ بتكلمي جلال الأبنودي، يعني الخوف يخاف مِنّي.

كان أسامة يتابع كل هذا عن بُعد متشنج الملامح متسع الأعين،

يشعر بقرب إصابته بمرض قلبي، وضع يده على قلبه وهو يحاول تهدئة ضربات قلبه لئلا تحطم صدره.

وجلال الذي كان يضرب بسرية عملياتهم عرض الحائط دون الاهتمام بأي اعتبارات لأهمية التحفظ على هوياتهم أو ما شابه، كل هذا شيء، وانضمام عفاف وهند لجلال والمذيعة شيء آخر، إذ فجأة ظهرت المرأتان داخل إطار الكاميرا الصغيرة التي استوعبت أجساد الأربعة بصعوبة، وعفاف تلوح بيدها أمام الكاميرا تتحدث ببسمة واسعة في المكبر:

- أنا عفاف، أبقى مرات القائد أسامة ودراعه اليمين، والعقل المدبر وراء نجاح أي عملية.

دفعت هند جسد عفاف جانبًا، تحشر جسدها بينها وبين المذيعة وهي تردد ببسمة هادئة متعقّلة بعض الشيء عن عفاف وجلال:

- أنا هند أبقى دراع أسامة اليمين برضو.

ردد أسامة وهو يتحرك صوبهم بغضب وضيق وهو ينفث أنفاسًا ساخنة بحنق مرددًا:

- هقطع دراعي ده علشان تبقوا ترتاحوا، يا رب توب عليّ من الهبل ده.

وحينما اقترب سمع صوت جلال الذي انتصر وأخيرًا بانفراد على المكبر بعد معركة حامية مع عفاف وهند:

- زي ما قلت لحضرتك؛ المهمات دي مش سهلة ومش أي حد يقدر يكشف المجرم، ومش أي فريق يقدر يعمل اللي بعمله بمنتهى

الحرفية والسرية، ولحد آخر لحظة بيبقى المجرم أساسًا مش متوقع إن إحنا محققين من كتر ما إحنا مقنعين في التنكر.

ارتفع طرف شفتي أسامة بسخرية لاذعة وهو يقف على بُعد خطوات صغيرة منهم يحاول تذكر مرة واحدة فقط لم يتم كشفهم من المجرمين قبل مرور يومين من المهمة، والنتيجة كانت ولا مرة واحدة حتى نجحوا في التنكر.

نظر لهم بحنق وصوت جلال يردد وهو يمسك بالمكبر بإصرار يمنع عفاف من الانتصار عليه في هذا وهو يردد دون حتى كلمة واحدة من المذيعة:

- وأحب أبلغ كل المتابعين إن الإشاعات اللي طلعت كانت حقيقة فعلًا، وإنّي خطبت للأسف وحظ أوفر لأي واحدة كانت حاطة أمل في الارتباط بيّ و...

قاطع وصلة مواساة جلال لمتابعاته الوهميات دفعة من يد عفاف التي التوى ثغرها بسخرية، تجذب منه المكبر:

- يا أخويا هو حد كان يعرفك أساسًا؟ خليكِ معايا أنا يا أبلة، كل الأخبار معايا أنا، اكمني يعني أبقى مرات أسامة وكل حاجة بتوصل ليّ، ده حتى كان لسه بيقول لي امبارح إن فيه مهمة جديدة و..

وقبل اكتمال جملتها اندفع جسد أسامة ينتزع منها المكبر يصيح بفزع وهو يدفع الجميع للخلف:

- إيه؟ إيه أنتم بتعملوا إيه؟ أنتم متخلفين؟

أشار جلال لرجل التصوير صوب أسامة:

- سجل عندك يا ابني فرج الكل حقيقة القائد علشان يعرفوا إنّ مش أي حد طويل ولابس نضارة شمس ينفع يبقى قائد.

رماه أسامة بنظرة جعلت جلال يبتلع ريقه بريبة ويصمت، بينما هو دفع المصور للخلف واضعًا يده أمام عدسته يأمره بالتوقف، ثم أمره بنزع شريط التصوير وتسليمه بدعوى أنّ هويتهم تلك سرية ومهماتهم كذلك.

وبعد نقاشات طويلة مع المصور والمذيعة، وشجارات أطول مع فريقه، استطاع أخيرًا سحبهم بالقوى وتحت تهديد السلاح داخل المنظمة، يتقدمهم بغضب وملامح واجمة، حتى انفرد بهم في مكتبهم وبمجرد أنْ أُغلق عليهم الباب حتى استدار لهم أسامة بملامح مرعبة جعلت الثلاثة يتراجعون للخلف بسرعة وخوف شديد، بينما هو تقدم كالقذيفة صوبهم يصرخ بجنون مشيرًا للخارج:

- برنامج؟ طالعين في برنامج تحكوا عن المهمات اللي بنتنكر فيها علشان السرية؟ ومستغربين إن مفيش ولا مرة كملت معانا على خير؟ ما هو بسبب تخلفكم، يا متخلفين.

رفعت عفاف يدها تحاول تهدئته وهو كان مشتعلًا بغضب شديد ليرفع يده في وجهها يسكتها بحنق شديد:

- استني أنتِ يا مدام حسابنا سوا طويل، رايحة تحكي على المهمة اللي لسه منعرفش عنها حاجة أساسًا؟ ما تروحي تديهم نسخة من الأوراق كمان!

صمتت ولم تستطع الحديث وهو يدور يمينًا ويسارًا ينفث أنفاسًا

ساخنة تذيب الجلود من على بعد أمتار، بينما الثلاثة يجلسون أمامه باحترام كتلاميذ تم تأديبهم، وفجأة انتفضت أجسادهم بخوف حين توقف جسد أسامة عن الدوران فجأة ينظر لهم بشر هامسًا:

- أنا بس عايز أعرف المذيعة دي إيه اللي جابها أساسًا؟ وعرفت عننا منين؟ ده نص اللي في المنظمة أساسًا مسمعش عننا غير بالصدفة!

نظر جلال بعيدًا يتجنب التقاء عينيه بعيون أسامة، كل هذا وهو لم يدرك بعد أنّ جلال هو مَن تحدث مع هذه القناة لتأتي وتصور معه حوارًا صحفيًا بعدما استنكر أحد أصدقائه عدم تداول صورته كبطل قومي بين عامة الشعب، ليُسارع جلال ويبحث عن قناة لتُجري حوارًا صحفيًا معه، لكن كل ذلك فسد بسبب تدخل فريقه.

- كل حاجة بتبوظ أول ما يحشروا نفسهم فيها.

تمتمات خرجت منه حانقة، قبل أن ينتبه إلى أنّ شياطين أسامة بدأت تهدأ وهو استكان أمامهم يحاول التنفس بشكل طبيعي، ثم سحب أحد الملفات يلقيه أمامهم على الطاولة قائلًا بحنق شديد:

- ملف المهمة الجديدة.

حلقت ثلاثة أزواج من الأعين حول ذلك الملف الأخضر الذي توسط طاولة المكتب بينهم، وقد بدأت أفكار وتخمينات كثيرة تتدافع لعقولهم حول هوية المهمة وخيوطه، وكالعادة كانت هند أول مَن يقودها الفضول للتحدث:

- إيه تفاصيلها بالظبط يا عو؟

- جريمة قتل، أو سلسلة جرائم.

استقامت الأجساد في جلستها وتحفزت جميع حواسهم وقد شرع أسامة في إعطائهم نبذة مختصرة عمّا ينتظرهم:

- حارة الجزار، منطقة في فيصل، من فترة وفيها جرائم قتل كتير بتحصل بشكل غريب، كل فترة أهل المنطقة يلاقوا جثة طايفة على الترعة.

عبّرت عفاف عن أول ما دار في ذهنها:

- انتحار؟

- لا قتل، المباحث الجنائية والطب الشرعي وضّحوا إنّ جميع الجثث دي ماتت الأول بالخنق وبعدين الطعن، وأخيرًا اترمت في الترعة، والموضوع ده اتكرر مع تلات جثث وكلهم لشباب في نفس السن تقريبًا.

ضيقت هند ما بين حاجبيها تحاول فهم التحليل المبدئي للمهمة:

- فيه أي رابط بينهم؟

فرك أسامة وجهه وهو يحدق في الملف الذي عكف ليلًا على قراءة تفاصيله بشكل دقيق، قبل أنْ ينشغل في الحديث مع عفاف في مكالمة طويلة لم تنتهي سوى فجر اليوم التالي وهذا ما أخره على العمل، وعلى ذكر عفاف رفع عينيه لها يحدق بها لثوان قبل أنْ يزفر قائلًا:

- حسب اللي مذكور فالشباب كلهم من نفس المنطقة وكلهم نفس

التخصص وكانوا صحاب، كلهم خريجين هندسة، وكانوا شركاء في شغل، دي أوجه الشبه بس بينهم.

زفر جلال براحة جلية يهمس:

- الحمد لله أنا دبلوم.

أجابته عفاف بسخرية مبطنة وهي تلوي ثغرها:

- على أساس لو الواد هندسة حد هيفكر يزفر سكينة علشانه؟

رمقهم أسامة بغيظ قبل أن يعود بنظره صوب الجميع يردد:

- دلوقتي إحنا عايزين ندخل الحارة دي بشكل مش ملحوظ، واخدين بالكم؟ بشكل مش ملحوظ ونندمج بين أهلها ونحاول نجمع كل اللي نقدر عليه من المعلومات اللي تساعدنا، وعلشان كده أنا قسمت الأدوار.

ترقب كلٌ بتحفز شديد دوره الذي سيتلقاه من أسامة، وقد بدأت الأعين تضيق بصبر نافذ قبل أن يشير لهم أسامة كلٌ على حدى:

- هند هتسكن في شقة هناك أجرتها في العمارة اللي فيها أول عيلة للضحايا على أساس أنها مدرسة وجاية تشتغل في مدرسة في المنطقة، أنا وعفاف هنسكن في العمارة اللي قصادها واللي فيها عيلة الضحية التانية على أساس أننا زوجين من قرية وجايين نستقر في القاهرة بسبب شغلي.

تنهد بصوت مرتفع، ثم قال وهو يهز رأسه لهم:

- هند عايزك تنتشري في البيوت وتعرفي اللي بيحصل بحجة

الدروس الخصوصية ومش هقولك بقى يا هند المفروض تعملي إيه.

منحت هند بسمة واثقة:

- اعتبره حصل يا عو.

منحها أسامة بسمة هادئة، ثم استدار صوب عفاف يقول بجدية:

- فوفا دورك هيكون أنك تنزلي السوق تنتشري بين الستات، عايزك تعرفي أي حكاوى بتحصل، أنتِ عارفة أي حوار بيبقى بدايته ونهايته مع الستات، ودي لعبتك تقرريهم يا فوفا.

هزت عفاف رأسها بموافقة:

- تمام يا عو.

أضاف أسامة وهو يشير لنفسه يوضح لهم دوره:

- وأنا هحاول إنّي ألملم أي حوارات من على القهاوي.

ختم حديثه ليهز الجميع رأسهم بإدراك وقد بدا أن أسامة قضى ليلته يضع كلًا في مكانه المناسب ويوزع الأدوار بشكل دقيق وبذكاء كبير، لكن يبدو أنّه في خِضَم ذلك تناسى شيئًا هامًا؛ جلال.

ابتسم جلال يترقب يسعل بصوت مرتفع لينبه أسامة على وجوده:

- وأنا يا عو، أكيد شايلني للتقيلة، مش كده؟

- أمال يا جلال، أنت مقامك أعلى من كده، ده أنت القائد القادم من بعدي إن شاء الله.

صمت ينظر لجلال الذي تعجب كلماته وتركه للنهاية، لكنه رجح

ذلك لاحتفاظ أسامة له بالدور الأصعب والمهمة الأكبر، فقال بتفاؤل:

- أكيد طبعًا علشان أنا الحصان الأسود بتاع المهمة دي صح يا عو؟

ابتسم له أسامة، ثم مال يستند على ركبتيه يحدق في عيون جلال:

- هو أسود فعلًا يا جلال، بس مش حصان.

- أمال إيه؟

اتسعت بسمة أسامة وهو يقول:

- توكتوك.

صمت طويل ساد المكان حتى كاد الجميع يسمع صوت عرير صرصور الحقل ينطلق، لولا صرخة جلال التي زاحمته وهو ينتفض عن مقعده يرفع إصبعه معترضًا:

- توكتوك؟ بقى أنا جلال بيه الأبنودي باشا أسوق على آخر الزمن توكتوك؟ أنت اتجننت يا عو ولا إيه؟

رفع أسامة حاجبة بشكل مخيف فتراجع جلال للخلف يردد بنبرة مترددة بعدما رأى تلك النظرات:

- شوف ليا حاجة تانية يا عو، أنا لا يمكن أوافق على المهزلة دي، يا أخي حط نفسك مكاني، بلاش دي علشان فرق المقامات بينا، بالله عليك إزاي عايز الناس تصدق إن حد بكاريزمتي وشكلي المهندم ده سواق توكتوك؟ الموضوع مش هيبقى مقنع.

- معلش يا جلال بيه أكل العيش بقى، بعدين ناس مين دي اللي هتستغربك وأنت سواق توكتوك؟ بالعكس دول هيتصدموا لو عرفوا حقيقتك وإنك مش سواق توكتوك.

اتسعت أعين جلال باستنكار يرفض بكل دواخله أن يقبل بمثل هذه الإهانة في حقه، ليس جلال الأبنودي مَن يخضع لبعض الأوامر المهينة لشخصه من أحدهم ولو كان هذا الأحد هو"العو".

- سوري يا عو، شوف غيري يعمل المهمة دي، أنا منسحب.

***

بعد يوم وأمام إحدى الحارات المصرية.

زفر بضيق وهو يضرب بقدمه ذلك الجسد الحديدي الصغير المسمى"بالتوكتوك"حانقًا غاضبًا ساخطًا على الحياة وأسامة، فها هو"جلال الأبنودي"على سن ورمح، يُجبر من قِبل رجل لا يتفوق عليه في شيء سوى أنّه للأسف الشديد قائده، على أنْ يتنازل ويصعد على متن تلك الآلة السوداء الصغيرة، بل ويتحرك بها ويعمل سائقًا لمَن هم أقل منه منزلة.

- أنا مش فاهم اشمعنا أنا اللي أبقى سواق توكتوك؟

رمقه أسامة الذي كان يستند على سيارته بسخرية:

- أخلي مين يعني يسوق التوك توك؟ عفاف ولا هند؟

رمته هند بنظرة رافضة لذلك التقليل الواضح في نبرتها، لتسارع وتفتح فمها لرمي كلماتها في وجهه وتمنحه محاضرة مجانية قد

تستمر خمس ساعات عن قدرة النساء، بل وتفوقهن على الرجال في كل شيء، لكن أسامة والذي كان يحفظها عن ظهر قلب رفع يده يبرر سبب جملته تلك:

- مش علشان الستات مش هتعرف تسوق، لا علشان الستات أرقى من أنّهم يسوقوا تكاتك.

ويبدو أنّ إجابته هذه حازت رضا هند التي ابتسمت، وهي تدير رأسها صوب جلال المتذمر، بينما أسامة أخذ يتلو عليهم وصاياه العشر قبل التحرك:

- مش هنبه عليكم تاني عايزين نهتم أننا ندور ورا أهالي الضحايا عن أي شخص مشكوك فيه من غير ما نلفت الانتباه، وعلى قد ما نقدر هنتجمع بكل هدوء بليل علشان نراجع اللي وصلنا ليه، في البداية عايزين نحدد أهدافنا اللي هنراقبها و...

توقف عن الحديث حين وجد أن جلال غير منتبه بما يقول وقد أخذ يدور حول التوك توك يرمقه بازدراء واضح وتعالي وكأنه شحب من سيارته "الليموزين" وألقي به داخل هذا التوكتوك.

أسامة خلفه يشرح ما سيحدث وهو هنا يحاول إقناع عقله أنّ كل هذا لأجل ترقيته المرتقبة، وحين تأتيه سيدهسهم أسفل أقدامه وخاصة هذا المسمى بأسامة الذي يتبجح عليه ويتفنن في إذلاله، ومن ثم ينتقل لهند وعفاف اللواتي لا يتركن فرصة إلا وفرضن أنفسهن بقوة عليه خاصة أنّه أصغرهم عمرًا، لكنها مسألة وقت ويقتص لنفسه، فصبرًا يا جلال، إن موعدهم قريب.

- خلصت؟

انتفض جسد جلال بخوف وهو ينظر خلفه بعدم فهم وقد توترت ملامحه معتقدًا أن أفكاره وأحلامه التي كان يفكر بها خرجت منه سهوًا للعلن، لكن وكأن أسامة كان يحتاج لسماع أفكاره صراحة ليدرك فيما يفكر.

بالطبع ومما لا شك به أن جلال كان يدهس رقبته داخل أحلامه منذ ثواني، لكن هل يهتم؟ الإجابة هي، لا.

تنهد أسامة يتحدث بجدية كبيرة:

- صلاح الجزار، وسلطان صاحب السوبر ماركت، دول اللي باقيين من الأشخاص اللي فقدوا أولادهم بنفس الطريقة، الباقيين سابوا الحارة من وقت قتل أولادهم، دول هيكونوا هدفنا الأول في المراقبة علشان نحاول نجمع أي دليل أو شيء مثير للشك حواليهم.

كانت تلك التفاصيل معروفة بالفعل للجميع وقد تناقشوا بها في اليوم السابق، لكن يبدو أنّ هند ما يزال لديها الكثير كي تدونه في عقلها لحين الحاجة له:

- فيه علاقة بين الأهالي؟ رابط أو أي شيء مشترك ممكن نبدأ منه عنده؟

- علاقة الضحايا ببعضهم كانت أكبر شيء بيجمعهم بحكم أنّهم صحاب من الطفولة، ده غير الجيرة طبعًا، والباقي دي وظيفتنا علشان نكتشف إيه اللي ممكن يخلي شخص يقتل شباب بالطريقة دي واشمعنا هما؟

صمت ينظر لوجوه الجميع ينتظر ردًا، لكن منذ متى وتلقى ما ينتظر؟ تجاوز الأمر يتنهد بصوت مرتفع:

- أنا مش هدد ولا أزعق ولا أقول كلمتين زي كل مهمة وافضل أنبه ناخد بالنا من تصرفاتنا، أنا بس كل اللي هقوله هو: الله يستركم بلاش نلاقي نفسنا متربطين في آخر المهمة ومقفوشين زي كل مرة، عايزين مهمة تخلص من غير ما نعدي بمرحلة التكتيف بتاعة كل مرة، اتفقنا؟

لم يُجبه أحدهم بكلمة، بل استمروا في النظر لوجهه بترقب فأكمل وكأنه نال إجابة سؤاله الأول ليعاجلهم بالثاني:

- أي سؤال؟

رفع الثلاثة أيديهم بسرعة، ليمنحهم هو بسمة واسعة:

- على بركة الله يا رجالة ويا ستات، عايزين نبدأ المهمة بهدوء ونختمها بهدوء، مش عايزين نلفت الإنتباه ولا نخلي حد يحس بينا، زي الأشباح كده، نبقى مش واضحين ولا حد ياخد باله مننا أساسًا، اتفقنا؟

وأخيرًا تلقى ردًا منهم حين حرك الثلاثة رؤوسهم في إيجاب مرددين:

- اتفقنا.

***

كان "التوك توك" الأسود يخترق الأجساد المتلاحمة في هذه

الشوارع الضيقة وصوت الموسيقى الغربية الصاخبة التي تهز الجدران حوله جعل جميع الرؤوس تلتفت صوب ذلك السائق المجنون.

كلمات أجنبية تصطدم بالآذان حوله ليتلقاها الجميع بتشنج وتعجب، فيبدو أنّ صاحب هذه العربة الصغيرة نسي أنّه يقود توك توك داخل إحدى الحارات المصرية، وليس ليموزين بين طرقات الجونة.

الآن وفي بداية النهار حيث ذروة الازدحام في مثل هذه الأزقة الشعبية، كان لا يهتم بشيء وهو يندفع بجسد التوك توك الصغير بين الأجساد، يحاول التحكم بقيادته، وفي الخلف كانت هي تجلس تضم حقيبتها لصدرها برعب وجسدها ينتفض بقوة، تتنفس بصوت مرتفع واضح، ترفض إظهار خوفها على مرأى ومسمع رجل، فما بالك لو كان هذا الرجل هو جلال؟

- الله يسامحك يا عو على أفكارك الهباب، وياخدك يا جلال على أفعالك اللى زى وشك، والله يا جلال أنا لو نزلت فى خدش، لأندمك على اليوم اللي ركبت فيه توكتوك.

أجاب جلال وهو يحاول جهده التحكم في هذا الشيء الذي لا يفقه عنه الكثير، سوى لمامًا فقط، بعض الأمور الصغيرة التي كان يبصرها من أبناء حارته:

- ممكن تهدي؟ مش بعرف أركز في السواقة وفي حد فوق دماغي، بعدين دي مش أول مرة أسوق توكتوك يعني فاطمني، أنتِ راكبة مع حريف تكاتك.

وبالفعل لم يكن جلال بحاجة ليقدم إثباتات على تلك الكلمات السابقة، فقد جاء الإثبات سريعًا ودون إرهاق منه، إذ وبمجرد أن انتهى من كلماته، كان "التوك توك" قد اندفع بمقدمته معانقًا إحدى عربات الخضار لتتعالى الصرخات وتغطي الخضروات مجال رؤية جلال وما زال صوت المغني في مذياع التوك توك يتردد رغم كل شيء:

"Only you can make all this world seem right

Only you can make the darkness bright."

***

على بعد خطوات صغيرة كان يمسك يد زوجته أمام إحدى الشقق التي اتفق عليها مسبقًا في تلك البناية وهو يظهر رضى مصطنع مردّدًا:

- شكلها لطيف ومش هتحتاج توضيب كتير، ولا أنتِ إيه رأيك يا حبيبتى؟

ختم حديثه ينظر صوب عفاف التي كانت تنظر حولها بترقب وهي تدقق النظر في تلك الشقة، تنظر هنا وهناك بجدية كبيرة وكأنّ أسامة لا يتحدث معها، ابتسم أسامة يتحدث بصوت واضح أكثر:

- إيه رأيك يا حبيبتي؟

وعفاف تلك المسكينة التي كان أقصى دلال تناله منه هو "فوفا"، لم يستوعب عقلها بعد أنّ تلك الكلمة التحببية كانت موجهة لها.

- عفاف.. عفاف!

نظرت له بترقب:

- نعم يا عـ... أسامة؟

- بكلمك مش بتردي، بقولك إيه رأيك في المكان؟ عجبك؟

- أنت كنت بتكلمني أنا؟

- أمال هكلم مين يعني؟

صمتت، ثم قالت وهي تدعي الهدوء رغم العواصف التي نشبت داخلها حين أدركت وفجأة أنّ ذلك اللقب كان لها، حتى وإنْ خرج في إطار المهمة، يكفي أنّ أسامة وصفها بـ (حبيبتي).

- جميلة، عجبتني.

كانت كلمات متوترة مهتزة أثارت تعجب أسامة، لكنه تجاوز الأمر في الوقت الحالي، ثم استدار يبتسم للرجل يقول بجدية:

- خلاص توكلنا على الله، جهز أنت الأوراق و...

وثواني حتى قاطع صوت اصطدام قوي حديث الجميع، لينتفض جسد عفاف للخلف، ويعلو صوت الرجل المتأفف:

- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، متخافيش يا مدام ده تلاقيه واحد من الشمامين بتوع التكاتك اللي هنا عمل مشكلة مش أكتر، لحظة أشوف إيه اللي حصل.

تحرك صوب الشرفة التي تتوسط البهو تاركًا الاثنين يرمقانه

بترقب، لينطق أسامة وهو يتحرك خلفه:

- مش عارف ليه حاسس إنّي أعرف الشمام ده؟

وصدق حدسه إذ بمجرد أنْ أطّل برأسه من الشرفة أبصر المشهد الذي سيتسبب في إصابته بذبحة صدرية يومًا ما؛ هند تمسك بجلال تبرحه ضربًا وجلال يقاوم ويصرخ بها أن تتوقف والجميع حولهم يحاول إبعادهم عن بعضهم البعض.

زفر أسامة بغضب وهو يتحرك خارج الشرفة، ومن ثم لخارج المنزل بأكمله تتبعه عفاف بفضول حتى وصل الاثنان للخارج صوب الشجار، اندفع أسامة بجسده بين الجميع يسمع كلمات جلال الغاضبة:

- والله ما راضي أرد عليكِ علشان أنتِ ست مش أكتر.

وذلك الغبي الذي يدرك جيدًا أي نوع من الأشخاص هي هند، استطاع بكل بساطة اللعب على نقطة غضبها، لتزداد ضربًا وتقريعًا له:

- يعني إيه علشان ست مش فاهمة؟ هو أنا علشان ست مش هعرف أديك بالجزمة؟ لا ده أنا ممكن أ...

- فيه إيه يا جماعة مش كده صلوا على النبي ده شيطان ودخل بينكم.

كانت تلك الكلمات صادرة من أسامة الذي اقتحم الشجار يجذب جلال من بين قبضتي هند وهو يرمقها بشر متحدثًا من أسفل أسنانه:

- سيبي الراجل يا آنسة، والمسامح كريم.

رمقته برفض واضح ليطل الشر من أعين أسامة وهو يحذرها ب عينيه أن ترفض، فتركته مرغمة، بينما جلال ركض يختفي خلف جسد أسامة يصرخ بغضب من وراء ظهره:

- طب والله لولا بس أخلاقي أنا كنت مسحت بكرامتك الأرض.

اشتعل غضب هند بعدما أطفأته بصعوبة منذ ثوانى، لتتحفز مرة أخرى، وقبل الانقضاض عليه وجدت جسد عفاف يحول بينها وبين قتل جلال وهي تردد برعب من نظرات أسامة لهم والذي تدرك أنه الآن يتلقى عزاءهم داخل عقله بعدما عذبهم وقتلهم بأبشع الطرق:

- اهدي يا حبيبتي، اهدي مش كده، ده زي أخوكِ الصغير برضو، بعدين ده شكله أهبل متاخديش على كلامه.

صرخ جلال وهو ما يزال يختفي خلف ظهر أسامة:

- والله ما أهبل غير اللي يشتغل معاكم يا...

وقبل أن يتمم كلماته استدار أسامة بسرعة يكمم فمه وهو يصرخ بصوت مرتفع يغطي على كلماته:

- معلش أكل العيش مر، فكل عيش وأنت ساكت بدل ما أطفحهولك.

ارتاب جلال من كلمات أسامة ولم يتحدث بكلمة واحدة، بل فقط زم شفتيه بغضب، وقبل أن يعلق أحدهم على ما يحدث، سمعوا صوت امرأة تركض بين طرقات الحارة وهي تصرخ وتولول بصوت

مرتفع جذب جميع الأنظار نحوها، حتى بدأ الكل يلتف حولها وهي تدور بعينيها وكأنها تبحث لها عن منقذ بينهم، تلطم خديها وتصرخ بقهر وتحرك يديها بشكل عشوائي أمامها، الأمر الذي جعل أعين الفريق تتجه نحوها باهتمام شديد وجعل حواسهم تتحفز، وقد بدأت المهمة بكارثة كما جرت العادة، كارثة ستكون طرف الخيط لهم.

صدحت كلمات المرأة في المكان وهي تردد دون توقف:

- قتلوه، قتلوه زيهم، قتلوا ابني زيهم!

***

الفصل الثاني

(بداية الخبر امرأة)

قيل أنّ المصائب تُعلن عن نفسها بصرخة امرأة، فتظل المصائب مخفية حتى تلمحها امرأة وتصرخ مُعلنة عن وجودها، وصرخات تلك المرأة في الطرقات كانت إعلانًا صريحًا عن كارثة جديدة ستمثل لهم بداية الخيط.

استدارت جميع الأعين صوب صاحبة الصوت ليبصروا امرأة تهاوى جسدها أرضًا وهي تصرخ وتنتحب والجميع حولها يحاولون معرفة ما يحدث لها.

- سمير ابني ... ابني.

بدأ الكثير من أهالي المنطقة يندفعون خارج المنازل ويتجمعون حول المرأة التي كانت تحاول مجاهدة انهيارها للتحرك صوب جثة ابنها التي أنبأها البعض أنّهم عثروا عليه مُلقى في الترعة التي تقع على بعد شارعين منهم.

وقبل أن يستوعب أسامة أو مَن معه ما يحدث أبصروا المرأة تنهض وهي تصرخ وتركض في الطرقات وخلفها الكثير، وبعض الكلمات المترامية تدور حول رؤوسهم من الجيران.

البعض يضرب الأكُفّ ويتحسّر لما أصاب شبابهم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، مش كنا خلصنا من الحوارات دي وقالوا قبضوا على اللي بيعمل كده فيهم؟ هو كل شوية نصحى على صوت

صريخ؟

انتبهت لهم هند تحاول أن تسجل كل كلمة تصدر في رأسها، وقد تحركت عيناها صوب أسامة الذي تحرك بسرعة خلف الجميع ليتفحص ما يحدث بنفسه ولحق به فريقه.

دقائق حتى وصلوا لتجمع كبير يحد أحد مجاري المياه، الجميع يحيط بحافة المجرى، دفع أسامة الجميع جانبًا يحاول المرور ليرى ما يحدث، لكن كانت الأجساد متراصة بشكل مربع، لا جسد يتحرك ولا أحد يتحدث، الجميع كانت أبصارهم شاخصة بشكل مرعب، وكيف لا وهم يرون الجثة الرابعة لأحد أبنائهم تطوف على سطح المياه منتفخة؟

استطاع جلال أن ينفذ بجسده من بين الأجساد ودخل ليبصر جسدًا يطوف على سطح المياه والجميع حولهم يحاولون النزول لسحبه وقد بدأ بعضهم يبلغ الشرطة، وعفاف تنظر حولها تحاول أن تلمح أي نظرات دخيلة على نظرات الأشخاص، أي نظرة قد تشي بشيء يُمكّنهم من الوصول لأي خيط.

دقائق مرت قبل أن تمتلئ المنطقة بعناصر الشرطة ويبعدوا الجميع لانتشال الجثة وعرضها على الطب الشرعي والتبيُّن إن كان انتحارًا أم استكمالًا لسلسلة القتل.

كاد أسامة يتحرك بعيدًا بسبب دفعات الشرطة للجميع، لكن وقبل أن يفعل أبصر شيئًا جعله يتوقف لثوان، ضيق عينيه وهو يحاول استكشاف ما رأى ليُخرج هاتفه سريعًا يلتقط صورة مقربة لذلك الغرض الذي أبصره، ثم ألقى نظرة سريعة على تلك الجثة الشاحبة

والتي كان رأسها ملفوفًا بشالٍ أبيض مثله مثل جميع مَن سبقوه، ليتأكد أسامة أنّ المجرم هنا واحد.

تحرك بسرعة بعيدًا عن المكان مع الجميع، وكذلك فعل فريقه، إذ يبدو أنّ عفاف بدأت عملها بأسرع مما يتوقع، يراها تسير مع امرأة من نساء الحارة وهي تقول بفضول:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، إيه اللي يخلي شاب زي ده يرمي نفسه كده يا أختي في الترعة؟ مش صعبان عليه أمه اللي مموتة نفسها دي؟

وكعادة بعض النساء، لم تستطع تلك المرأة لجم لسانها وهي تحرك شفتيها بشفقة:

- يرمي نفسه إيه بس يا أختي ده اسم الله عليه كان من زينة شباب الحارة وكان فرحه بعد شهرين وبيجهز نفسه، بس نقول إيه راح زي اللي راحوا.

ضيقت عفاف عينيها تدعي جهلًا وهي تردد بفضول مصطنع:

- زي اللي راحوا؟ هو فيه حد غيره غرق هنا كده؟ طب ما تردموا الترعة طالما مؤذية كده.

مالت عليها المرأة تهمس بصوت منخفض:

- غرقوا إيه يا أختي، دول اتقتلوا.

وارت عفاف بسمتها بصعوبة وقد وجدت في هذه المرأة بيئة خصبة للمعلومات ودون بذل مجهود حتى، يبدو أنّها ستصبح جارتها

المفضلة في هذه الحارة، وقبل أنْ تبادر بنطق كلمة إضافية سمعت صوت رجل حانق وهو يصرخ:

- ما تتحركي يا فوز خلينا نبعد عن اللبش ده.

توترت السيدة والتي علمت عفاف أنّ اسمها "فوز" وهي تتحرك بخطوات سريعة لا تلائم جسدها البدين بعض الشيء تنطق بكلمات متقطعة:

- طيب جاية يا حاج أهو.. عن إذنك يا أختي لاحسن الراجل يتعصب عليّ وتبقى بدل المصيبة اتنين، هبقى أشوفك بعدين.

ابتسمت لها عفاف تقول:

- أكيد طبعا يا ست فوز، أنا عفاف جارتكم الجديدة، هبقى أشوفك بقى.

هزت فوز رأسها وهي تهرول بخطوات متعجلة صوب زوجها والذي كان يبدو نافذ الصبر في هذه اللحظة، تاركة خلفها عفاف ترمقها ببسمة وقد حددت وجهتها الأولى للأخبار فى هذه المنطقة.

تحركت صوب أسامة الذي كان ينأى بنفسه جانبًا، يضم ذراعيه لصدره منتظرًا أنْ تصل له، وحينما اقتربت ابتسم هو يقول:

- شايفك بدأتِ قبل الكل.

رفعت عفاف رأسها بتكبر واضح مُبتسمة:

- طول عمري في المقدمة يا عو.

ابتسم لها يكتم ضحكته وهو يمسك كفها يجذبها صوبه، ثم تحرك

معها صوب البناية لينتهي من إجراءات إيجار الشقة، وقد رمى بنظراته صوب هند وجلال يهز رأسه بحركة مستترة وإشارة واضحة على إعلان بدء المهمة رسميًا.

وقد كانت نظرته وكأنها رصاصة البداية لتتسع بسمة هند وتضيق عينيها بتفكير وغموض كبير وقد شردت في نقطة بعيدة، بينما جلال جوارها كان ينظر لها ولأسامة الذي رحل، يبصر نظرات هند المريبة والتي تنم عن تفكير عميق، استدار صوبها يقول:

- هو أسامة كان بيبصلنا كده ليه؟

نظرت له هند بملامح حانقة ليتحدث هو بسرعة:

- أصل هو بصلنا بصة مريحتنيش كده، وبعدين أنتِ رديتي ليه البصة و.. هو أنا المفروض أعمل إيه دلوقتي علشان حاسس إن فيه حوارات بتحصل من ورا ضهري.

كانت جملته الأخيرة غاضبة وهو يضم يديه لصدره كارهًا أن يتم إرسال إشارات مُشفرة دون أن يعلموه حتى رموز فك تلك الشفرات، ليس وكأنّه هو مَن يتجاهل هذه الشفرات.

تنفست هند بصوت مرتفع تقول وهي تشير للطريق الذي سلكه أسامة:

- حوارات إيه اللي من ورا ضهرك يا غبي أنت، ما كله قدامك أهو، أنت اللي أعمى، أقولك؟ انصرف من وشي يا جلال الله يكرمك علشان أنا لسه مش طايقة نفسي من ساعة ما قلبتنا في طبق سلطة.

ختمت حديثها تتحرك بعيدًا عنه بغضب شديد تاركة إياه يرمقها بحيرة كبيرة يحاول فهم ما تريده، لكن فجأة كل ذلك تلاشى حين سمع صوت رنين هاتفه لتتسع بسمته وهو يخرجه يضعه على أذنه متجاهلًا كل ما حدث مجيبًا:

- أيوه يا تسنيم... أيوه وصلت المهمة الجديدة آه.

***

- شفت اللي حصل النهاردة الصبح في الحارة يا أبو أشرف؟

رفع الرجل وجهه وهو ما يزال يحمل بين أصابعه خرطوم الأرجيلة الخاصة به، يستنشقها بعمق شديد يحدق لوجه زوجته من بين دخانها المتصاعد، زفر أنفاسه وهو يجيب بلا اهتمام وبملامح غير مهتمة ظاهريًا:

- شوفت يا أختي هعملهم إيه يعني؟ ما أنا ياما قولت للست شوق تبعت المحروس سمير لأبوه في الخليج بدل ما يطوله اللي طال صحابه، لكن هي مهانش عليها ننوس عينها يبعد عنها لبلد تانية، أهو بعد عنها على الآخر.

جلست المرأة جواره تنظر له بأعين حزينة وقلبها بدأ ينبض بوجع كلما تذكرت ما حدث لهم وما طال الجميع من حولهم، وكأن الأمر كان لعنة تصيب أفضل شبابهم:

- وهي هتعمل إيه يعني يا أبو أشرف، قلب الأم يا خويا ميقدرش على بعاد عيالها، تلاقيها يا حبة عيني مفطورة دلوقتي وحالتها حالة، ما أنا سبقتها وحاسة بيها.

تكدرت ملامح الرجل حين أشارت زوجته في حديثها لما أصاب أكبر أبنائه، بكره الذي فقده منذ شهرين تقريبًا بنفس الطريقة، آهٍ فقط لو تقع يده على ذلك النذل الذي تفنن في كسر قلوب أهالي الحارة على أربعة من خيرة شبابهم.

ألقى الأرجيلة بغضب يهتف وقد التمع الشر في عينيه مردّدًا:

- ما قللنا بلاش السيرة اللي تقفل الواحد من حياته دي، كل ما أسمعها أتعفرت أكتر، مش كل شوية تفكريني إنّ ابني اتقتل واترمى زي الحيوانات في الترعة وأنا قاعد هنا مش عارف أجيب حقه.

هبطت دموع المرأة بقوة وهي تضع يدها على صدرها وكأن جرح ولدها تجدد مرة أخرى بابن شوق، تلك المرأة التي كانت تحيا بسلام مع ولدها الوحيد بعد سفر زوجها للعمل في الخليج، وها هو ذهب ضحية رابعة لمجرم حقير لا يدرون له مِن غاية في قتل أبنائهم، أحمد وسالم وابنها أشرف وآخرهم سمير، والله وحده يعلم مَن القادم على قائمته؟

***

كان الجميع يجلس في غرفة رفيقهم وعينيهم جاحظة والأجساد ترتجف برعب شديد، الأعين تتحرك بشكل غير مستقر ولا أحد منهم يستطيع التحدث بكلمة واحدة عما حدث؛ فُقدوا آخر اليوم، أربعة منهم رحلوا بنفس الطريقة، ولم يتبقى منهم سواهم، لا يدرون سبب كل ما يحدث لهم ولا يدرون مَن القادم منهم.

مسح أحدهم عرقًا وهميًا بيد مرتجفة رعبًا، فالأمر لم يعد مزحة؛

هذا رابع شخص فيهم يُقتل بهذه الطريقة، هل يقصد المجرم "شلتهم" أم أنّ الأمر مجرد صدفة لا أكثر، وإن كانت صدفة فلماذا لم يُقتل سوى مَن يقربهم؟

- أنا... أنا مش... أنا هسافر، هسافر في أول طيارة على إيطاليا لابن عمي.

تحركت أنظار الاثنين صوب ثالثهم بعدم فهم لينطق الشاب مرة ثانية بصوت مرتجف:

- مش هقعد هنا أستنى دوري، مش هفضل قاعد حاطط إيدي على خدي لغاية ما ألاقي نفسي جثة مرمية في الترعة زيهم.

انتفض آخر وهو يهتف بحنق وغضب يتحرك صوب الشاب يجذبه من ثيابه:

- تهرب وتسيبنا في المصيبة دي؟ أنت معندكش دم؟

نفض محمد يد كريم عن ثيابه صارخًا بجنون وهو يلوح بيده في الهواء، يتذكر جثث رفاقه التي أخذت واحدة تلو الأخرى تظهر على سطح المياه:

- نفسي نفسي يا أستاذ كريم، مش ده مبدأك ولا إيه؟ كل واحد ينجد نفسه باللي يشوفه صح، سواء أنت أو مدحت، متبقاش غيرنا إحنا التلاتة بعد ما خلصوا على أربعة مننا، والله وحده اللي يعلم مين اللي عليه الدور فينا.

تحدث مدحت وهو يبتلع ريقه وقد خرج صوته بنبرة مرتجفة واضحة:

- مش يمكن.. مش يمكن ميحصلش لينا حاجة؟ إحنا معملناش حاجة غلط علشان حد يأذينا مش كده؟

تبادل كريم ومحمد نظرات غامضة قبل أن تتحرك عينيهم صوب مدحت رفيقهم، أكثرهم جبنًا وضعفًا، كانوا سبعة رجال تتحاكى منطقة الجزار بأكملها بصداقتهم وإنجازاتهم في الحياة إذ افتتح السبعة منذ شهور فقط شركة عقارات يستثمرون بها أموالهم وقد بدأت تلك الشركة تخطو بشكل جيد بين كبار الشركات، وبدأ الثراء يرسم ملامحه على حياة السبعة قبل أن يختطف الموت أربعة منهم ويترك ثلاثة فقط.

اقترب كريم من مدحت ينظر له هامسًا بصوت مسموع لمحمد:

- أكيد اللي بيعمل كده ليه غرض معين، وإلا اشمعنا إحنا السبعة؟ اشمعنا بيقتل فينا إحنا؟

تحدث مدحت مخمنًا بشرود وأعين لا تبصر منهم سوى ضباب فقط:

- يمكن علشان الشركة؟

انتبهت الأعين لمدحت الذي قال موضحًا:

- اللي بيحصل ده مبدأش غير لما بنينا الشركة وكبرت، يمكن واحد من الكبار اللي في المجال هو اللي... هو اللي بيعمل ده وعايز يزيحنا من طريقه.

ويبدو أن تلك الفكرة لاقت صداها في عقول الاثنين الآخرين وقد

استحسنوا التمسك بِوَهمٍ قد يرشدهم صوب النجاة، عليهم النجاة بأنفسهم بأي طريقة كانت، أي طريقة تخرجهم من هذا الكهف المظلم الذي تم إلقاؤهم به دون إرادة منهم، ومن ثم بدأوا بسحبهم واحد تلو الآخر للخارج صوب المذبح، وهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي حتى يحين وقتهم لجرهم.

***

هو متفق عليه، في المساء ودون أن ينتبه أحد تجمع الجميع في المنزل الذي أنهى أسامة إجراءات إيجاره منذ أسبوع تقريبًا، ولم يكن ينقصه فقط سوى مشاهدته ليمضي العقود وقد فعل اليوم.

كان الجميع يجلس في بهو المنزل الصغير ينظرون لبعضهم البعض بترقب منتظرين وصول أسامة الذي كان كعادته آخر الواصلين.

نظرت هند صوب عفاف التي خرجت من مطبخ المنزل تقدم لهم المشروبات وهي تلعب دور سيدة المنزل بشكل متقن:

- والله نورتونا يا جماعة.

تشنجت ملامح هند تحدق بالعصائر والحلوى التي وضعتها عفاف أمامها تتساءل متى استطاعت فعل كل ذلك، لكن جلال لم يكن يسأل مثل تلك الأسئلة التي لا تعنيه، فكل ما كان يعنيه هو تناول أكبر قدر من الحلوى قبل أن ينتبه لها أحدهم ويشاركه بها يتحدث بفم ممتلئ وتذمر:

- حلويات؟ أمال فين العشا؟

نظرت له عفاف نظرات جامدة وهي تحرك عينيها بين يده التي

تلقي بالحلوى في فمه دون الاهتمام أن هناك بضع كسرات من الحلوى تفر منه وتنجو بحياتها وتسقط على أرضية المنزل والطاولة التي قضت عفاف نصف يومها تنظف بهما.

كانت نظراتها لجلال في تلك اللحظة مرعبة لدرجة أن هند ظنت لثواني أن عفاف هي المجرم المنشود وهي مَن قتلت الرجال وعلى وشك جعل جلال ضحيتها التالية.

دقائق وقبل أن تدرك هند ما يحدث كان جسد عفاف ينتفض منقضًا على جلال تجذبه من ثيابه بغضب:

- عارف لو لقيت فتفوتة كيكة واقعة على الأرض؟ هخليك تلحسها يا جلال.

انتفض جلال بفزع لا يدرك ما يحدث، هو كان يأكل بجوع كبير قبل أن يجد نفسه أسير قبضة عفاف، ولولا الطعام الذي يملأ فمه لكان رد عليها كعادتها، لكن هذا لم يمنع يده التي بدأت تتحرك يحاول الفرار منها، وهند تنظر لهما بحنق:

- عفاف، سيبي الجدع مش كده.

نظر لها جلال بسرعة يشير لها وهو يبتلع الطعام يطالبها بالمساعدة، لكن منذ متى خانت هند قسمها في الوقوف جوار المرأة لتدافع عن جلال هكذا وبكل بساطة؟

- أنتِ بجد مستنية من راجل يبقى بني آدم ونضيف؟ حبيبتي دول كلهم نوع متطور من البقر، كائنات فوضوية.

خرج أسامة بعدما انتهى من صلاته يقول بحنق وهو يتابع ما

يحدث وقد وصل لمسامعه ما قالته هند آخر شيء، يتحرك صوب عفاف ينتزع ثياب جلال من بين قبضتها يصفعه على رأسه بغضب، ومن ثم ألقاه على الأريكة موبخًا:

- أنت مش بتتكيف غير لما هند تشرد الرجالة كلهم على حسك يوميًا؟ جايب لنا الكلام على طول من هند.

زفر بغضب ينظر صوب عفاف بحنق مشيرًا صوب الأريكة بصرامة:

- اقعدي ومش عايز دوشة، إحنا مش في المنظمة.

رمته عفاف بنظرات غير راضية، ولم تكد تعترض إلا وأبصرت نظراته التي جعلتها تنفذ ما يقول دون حرف واحد إضافي، بينما هند جلست مكانها تبتسم بهدوء وهي تراقبهم.

وأسامة توقف في المنتصف يتنفس بصوت مرتفع يحاول الصبر، مسح وجهه، ثم تحرك وتوسط مقعد يتقدم جميع المقاعد وهو يستند على ركبتيه يحرك عينيه بينهم بشكل جعل الجميع يشعر بعدم راحة، وطال الصمت حتى تحدثت عفاف تقول بحنق:

- إيه يا عو جامعنا علشان تفضل تبحلق فينا كده؟

- لا دي بس لحظات رثاء للنفس بعملها كل مهمة علشان أصبر نفسي لغاية ما نوصل لمرحلة التكتيفة لما العصابة تكشفنا ونتهزق زي كل مهمة.

تبادل الثلاثة النظرات بعدم فهم لحديث أسامة، والذي لم يوضح أكثر وهو يشير بيده لهم أن يتجاوزوا الأمر، ثم تنهد يقول:

- خلينا نشوف وصلنا لفين؟

تشنج وجه هند وهي تنظر حولها تقول:

- وصلنا لفين إيه؟ ده إحنا لسه متحركناش خطوة يا عو، لسه أول يوم لينا ومنعرفش حاجة.

هزت عفاف رأسها توافقها؛ فعدا كلمات فوز التي يعلمونها بالفعل؛ لم تعلم أي شيء، لكنها لم تود أن تخرج خالية الوفاض من هذا الحوار، عليها أن تشارك بجملة على الأقل:

- كل اللي عرفته أن الشاب اللي مات ده كان فرحه بعد شهرين وكانت حياته ماشية تمام ومفيش فيها شيء ممكن يخلي حد يعمل فيه كده.

نظر لها أسامة يقول ببسمة غامضة:

- طيب دي بداية الخيط اللي هتمشي وراه يا عفاف.

ضيقت عفاف عينيها وهي تبتسم بسمة مفكرة، قبل أن تتحول البسمة لأخرى بلهاء:

- مفهمتش برضو، أعمل إيه؟

- خطيبته يا عفاف، اوصلي ليها واعتبريها بداية خيط، والست اللي كنتِ بتكلميها دي مش عايزك تحِلّيها غير لما تقرريها بكل تاريخ الشاب ده واللي سبقوه، واضح؟

هزت عفاف رأسها لا تجد أسهل من هذه المهمة؛ ففوز من ذلك النوع من النساء اللواتي قد ينفجرن إن لم يفضن بما يعرفن، وهي

ستكون الشخص الذي يساعدها في تفريغ طاقة الثرثرة لديها.

حوّل أسامة نظراته صوب هند التي قالت حين أدركت نظراته:

- أنا لسه معرفش حاجة يا دوبك استقريت في الشقة وبدأت أنشر إنّي بدي دروس خصوصية ومحدش عبرني لسه، فالموضوع محتاج صبر شوية بس.

صمتت ثم قالت بهدوء جذب كل انتباه أسامة الذي يعلم أنّها قوية الملاحظة:

- الشقة اللي جنبي قبل ما آجي سمعت فيها حاجة غريبة.

هنا ولم يكن أسامة المنتبه الوحيد في الحوار، بل وُجهت جميع الأبصار صوب هند التي شردت فيما سمعت بمجرد خروجها ونيتها في المجيء هنا، ذلك الصراخ لأحد الرجال موبّخًا لآخر:

- سمعت صوت راجل بيصرخ وبيقول: تهرب وتسيبنا في المصيبة دي؟

ومن بعدها كانت الأصوات مكتومة شوية ومش واضحة، ولما نزلت تحت سألت في الحارة ست عن الشقة اللي جنبي على أساس إني بشوف عندهم عيال صغيرين أو لا عرفت أنّها شقة مهندس اسمه "مدحت" عايش مع أمه وأخوه الصغير.

اتسعت بسمة أسامة وهو يرى أن كل شيء بدأ يفتح ذراعيه لهم، ها هي الخيوط تعلن عن وجودها، وبسمته تلك جذبت فضول الجميع لتقول عفاف:

- وصلت لإيه يا أسامة، أكيد البسمة دي مش من فراغ.

هتف أسامة بنبرة غامضة دون الإنتباه مع مَن يجلس هو وأنّ الحديث الغامض لا يجد له صدى لديهم:

- مدحت؟

لم يفهم الجميع ما يقصد أسامة أو ما سبب بسمته المريبة هذه حين سمع اسم مدحت، إلا أنّ جلال أبى أن يمر هذا اللقاء دون أن تُسجل له مشاركة به:

- اسم قديم أوي، هو لسه فيه حد بيسمي مدحت؟

أجابته عفاف بسخرية لاذعة:

- حوش مين بيتكلم؟ ده أنت اسمك جلال يا جدع.

- والحلوة بقى اسمها إيه؟ تمارا؟

زفرت هند بحنق شديد وهي تحول بينهما مع الانحياز صوب عفاف كالعادة:

- ما تخف شوية يا جلال، ما أنت برضو اللي مش كاظم يعني.

فجأة بدأت المشادة الكلامية بين الجميع تحت أنظار أسامة الذي كان يفتح عينيه بصدمة وعدم استيعاب لما يحدث، شعر بقرب انفجاره وهو يراقب ما يحدث أمامه.

ورغبة عارمة بالجلوس جانبًا والبكاء على ما أفنى به حياته، وأصوات الشجار تتعالى حوله، حتى انتفض يحول بينهم ويدفع جلال للخلف بغضب يجذب عفاف جانبًا وهو يصرخ بجنون:

- هو ده اللي لفت نظركم كلكم؟ إن اسم مدحت قديم؟

نظر له الثلاثة بعدم فهم ليشعر بوجع في صدره، تحسس مكان قلبه لشارع عفاف تسنده:

- اسم الله عليك يا عو مالك، غور يا جلال هات كوباية مياه بسكر الراجل هيروح مننا!

تحدث أسامة بصوت ضعيف:

- مياه بسكر إيه، هاتولي حباية الضغط في الشنطة بتاعتي جوا، يا رب هموت بسببكم، مش عارفين مدحت؟ أمال أنا عطيتكم ملف القضية تعملوا بيه إيه يا شوية متخلفين؟

نظر له الجميع بعدم فهم ليصيح هو بجنون:

- مدحت يا شوية معاتيه، مدحت ده يبقى واحد من السبع شباب اللي بيتقتل فيهم، ده عنصر مهم في القضية يا شوية...

صمت ولم يجد ما يصف به الثلاثة أمامه، وقد علت الصدمة ملامحهم، صدمة جعلت أعين أسامة تتسع وهو يعود للخلف مبتسمًا بعدم تصديق:

- مش عارفينه بجد؟ مش عارفين مدحت؟

نظر صوب هند التي كانت شاحبة لا تدرك كيف غفلت عن الأمر، هي نعم لم تقرأ الملف بأكمله، وهذا خطأ تخجل منه، عكس عفاف وجلال اللذين لم يهتما كثيرًا للأمر.

- حتى أنتِ يا هند متعرفيش مدحت؟ حتى أنتِ؟

تمتم جلال بصوت خافت حانق:

- إيه مدحت مدحت ده؟ هو مدحت صالح يعني؟

انقض عليه أسامة يضربه على رأسه بغضب:

- وبتهزر كمان يا بجح؟ يا بجحين، اللي في مكانكم يدفن نفسه، ده أساسيات المهمة متمتش، ده أنتم متعرفوش أسماء الناس اللي هنركز عليهم حتى.

زفر بصوت مرتفع يمسح وجهه، ثم شعره مغمض العيون، لتنحني عفاف تمسك كوب العصير تربت على كتفه:

- معلش يا خويا استحملهم شوية أغبيا، روق أنت دمك بس هتموت نفسك علشان حد زي جلال؟

نظر لها أسامة يهمس بسخرية:

- مش مصبرني عليكم غير إنّي إن شاء الله ربنا مش هيضيع تعبي وصبري عليكم هباءً، إن شاء الله أدخل الجنة من باب الصبر.

أطلق نفسًا قويًا بعد كلماته، ثم أشار لهم بالجلوس ينتزع كوب العصير من يد عفاف كي لا يخجلها، وارتشفه على رشفة واحدة، ثم تنهد بصوت مرتفع يقول:

- من الأول خالص كده ومن البداية علشان نبقى على نور...

صمت يستجمع قواه التي خارت عليهم:

- أحمد، أشرف، سالم، سمير، محمد، كريم، ومدحت، دول سبع

مهندسين صحاب وجيران من سنين السنين درسوا سوا ودخلوا نفس الجامعة واتخرجوا من سنين وكل واحد شاف حياته بعيد عن التاني لغاية ما قرروا إنهم يفتحوا مشروع يلمهم، واستقروا على شركة عقارات وفعلا فتحوا الشركة دي وبدأت تشق طريقها في عالم العقارات ونجاحها بدأ يظهر شوية شوية، لغاية من كام شهر صحيوا كلهم على جثة أول واحد فيهم واللي هو أحمد صاحبهم ومن بعدها بدأوا يلاقوا كل كام شهر جثة لواحد فيهم لغاية ما صفصفوا دلوقتي على تلاتة بس؛ محمد وكريم ومدحت.

ختم حديثه ثم نظر لهم وقد بدا التفكير على وجوه الجميع، قبل أن يشارك جلال ما يدور في عقله:

- حد من أصحاب الشركات الكبيرة اللي في السوق ممكن يكون هو اللي عمل كده لما لقاهم بينجحوا مثلًا؟

تحركت له النظرات وقد بدا أنّه لم يكن الوحيد الذي تحرك عقله لهذه الجهة، فقد ظهرت الموافقة على عيني عفاف بكل وضوح، بينما هند كانت تفكر فى الأمر من منظور آخر:

- ولو هو حد من الشركات الكبيرة، ليه يقتلهم واحد واحد كده وبنفس الطريقة كأنه قاتل متسلسل؟ ما يخلص عليهم كلهم في حادثة، خاصة إنهم زي ما اتذكر في الملف كانوا بيتجمعوا كتير سوا في أماكن مختلفة.

شاركها أسامة هذا الاستنتاج يضيف عليه أفكاره الخاصة:

- وليه أصلًا يقتلهم؟ ما يدبر ليهم مصيبة في الشغل تلغي

وجودهم.

صمت قبل أن تتدخل عفاف تقول بجدية:

- بس القتل في الحوارات اللي زي دي مش مستبعد يا عو، أنت مش بتشوف الناس دي بتاكل في بعض إزاي؟ وأظن نص القضايا اللي عندنا بالشكل ده.

هز رأسه موافقًا وهو يضيف بجدية:

- أنا مش بستبعد الموضوع بس مش عايز أننا نمشي ورا اتجاه ونهمل باقي الاتجاهات، إحنا هنشتغل على كل الاحتمالات.

- وإيه الاحتمالات التانية اللي عندنا أساسًا؟

كان هذا صوت هند التي بحثت عمّن يمكن أن يكون له مصلحة في موت السبعة غير منافسي سوق الأعمال ولم تجد، خاصة أنّ الأمر وحسب أقوال الجميع لم يبدأ إلا بعد أنْ تم إنشاء الشركة.

- أمال إحنا هنا ليه يا هند؟ علشان نلاقي الاحتمالات التانية اللي مش ظاهرة لباقي الناس وده هنبدأ فيه من بكرة.

نظر لهم ثم ابتسم يوزع الأدوار بجدية كبيرة:

- هند أنتِ دورك هيكون شقة اللي اسمه مدحت ده، اتصاحبي على أمه، درسي لأخوه الصغير، اعملي اللي تعمليه، بس تدخلي بيتهم.

نظر صوب عفاف يُكمل:

- عفاف أنتِ متسبيش اللي اسمها فوز دي غير لما تقرريها بكل حاجة عن الشباب وحياتهم؛ عايزين نعرف لو فيه أي عداوات

محتملة.

وأخيرًا نظر صوب جلال يهتم بجدية:

- وأنت يا جلال، تلفلي بالتوكتوك بتاعك في الحارة تلقط أي كلمة ممكن تنفعنا، وأنا هنزل على القهوة أحاول أشوف حاجة تثبت شكي.

تعلقت الأعين به خاصة حينما أردفت عفاف بفضول:

- وايه هو شكك يا عو؟

ابتسم أسامة يخرج هاتفه يعلن عن دليله الأول في هذه المهمة المعقدة، يلقي به أمام الجميع وهو يقول بجدية كبيرة:

- إن اللي عمل الجريمة دي من أهل الحارة أو على الأقل مش من أصحاب الشركات، هو شخص من هنا.

تحركت أعين الجميع صوب الهاتف يحدقون فيه بجدية كبيرة، وقد ضاقت أعينهم على تلك الصورة التي التقطها أسامة خلسة وقام بتكبيرها وتوضيح جودتها، طالت النظرات وطال الصمت بينهم حتى هتف جلال يقود حملة الجهل المعتادة:

- لا أنا مش فاهم.

تبعته عفاف ترفع يدها متشدقة:

- ولا أنا.

نظر أسامة صوب هند بملامح يائسة ينتظر منها تأكيد جهلهم لتهتف بصوت منخفض:

- ولا أنا الحقيقة يا عو.

تنفس أسامة بصوت مرتفع وهو يضيق عينيه يعود بظهره على المقعد خلفه يقول:

- صلوا كده على النبي وركزوا معايا يا حبايبي علشان اللي داخلين عليه تقيل أوي.

***

ومنذ صباح اليوم التالي انتشر الجميع في المنطقة ينفذون كلمات أسامة لهم، وأولهم هند التي خرجت من منزلها في الصباح الباكر تحمل بين يديها بعض الحلوى التي سرقتها البارحة من منزل عفاف لتتقن بها دورها.

توقفت أمام منزل مدحت وهي تتجهز نفسيًا، فليس أسوأ على قلبها من التعامل منذ الصباح مع رجل، شيء يفسد مزاجها باقي اليوم، لكن عليها النظر لنصف الكوب الممتلئ؛ أنّ هذا الرجل ليس جلال.

ابتسمت بسمة مجبرة تطرق باب الشقة تنتظر الرد من أحدهم، حتى سمعت صوت رجولي يجيبها، تأففت، لكنها سرعان ما محت نظرات الحنق تلك تستقبل مدحت ببسمة مصطنعة وخجل جعلها تشعر بالاشمئزاز من نفسها:

- صباح الخير.

جاهد مدحت لفتح عينيه شبه المغلقة، فهو لم يستطع النوم سوى

مع بداية اليوم، لكن وبمجرد أن فتحها أبصر أمامه امرأة تحتل مدخل منزله بملامح في غاية البراءة مع خصلات شعر قصيرة سوداء وبسمة جعلته يتراجع خطوة للخلف بصدمة مما يرى؛ هل خرجت امرأة أحلامه لأرض الواقع دون شعور؟ أم أنه فقط يتخيلها لشدة بؤسه هذه الأيام؟

ظل ينظر لها طويلًا دون أن يأتي بأي ردة فعل، لتزفر هند وتقول بصوت حانق:

- فين والدتك؟

انتفض جسد مدحت يستوعب ما تقول، ثم فتح فمه للرد لا يفهم ما يحدث:

- نعم؟

وهند التي لامت نفسها على ما قالت تمالكت نفسها قائلة:

- قصدي يعني أنا جارتكم الجديدة هنا وكنت جاية علشان.. علشان يعني أتعرف على والدتك لأني معرفش أي حد هنا وكده يعني و ... هي فين؟

قالت ما قالت حينما شعرت بالحنق من كل تلك الأحاديث التي لا معنى لها على أية حال وهو تعجب كلماتها، لكنه تراجع يقول:

- طيب اتفضلي هي جوة، هناديها ليكِ.

رفعت هند حاجبها بسخرية مبتسمة بسمة جانبية:

- لا معلش ناديها الأول؛ مينفعش أدخل البيت كده.

وهو هز رأسه يستوعب كلماته الغبية، فكيف يتحدث بهذه الأريحية لفتاة غريبة، بالطبع ستظنه متحرشًا أو ما شابه، دخل وغاب داخل المنزل ثواني قبل أن تظهر لها امرأة تتحرك صوبها بملامح متعجبة جعلت هند تبتسم بسمة واسعة وهي تحدد وتحلل هدفها لبدء العمل:

- أيوه يا حبيبتي اتفضلي.

ابتسمت تمد لها طبق الحلوى تقول ببسمة ظهرت للسيدة عادية مرحبة وبريئة، لكن بسمة هند في هذه اللحظة كانت أبعد ما يمكن عن وصفها بالبراءة.

***

وعلى غرار خطة هند، كانت عفاف تحمل طبق حلوى تتحرك به صوب منزل فوز بعدما سألت عنها الجميع في المكان، نظرت لطبق الحلوى الخاص بها تهمس أنّه يلعب دورًا هامًا في هذه المهمة، ربما عليهم تكريمه بعد انتهائها على خير.

طرقت الباب لتسمع صوت صرخات في الداخل بصوت فوز وهي تطلق سبات نابية واصفة بها أبناءها وأخذت تسب تربيتها لهم قبل أن تفتح الباب لتبصر وجه عفاف بملامح مقتضبة قائلة وكأنها ليست تلك الثرثارة التي أبصرتها البارحة:

- خير؟

ابتلعت عفاف ريقها تشعر أنّها أساءت اختيار الوقت، لكن رغم ذلك لم تتراجع تقول ببسمة متوترة تمد طبق الحلوى الخاص بها:

- أنا ... أنا عفاف اللي قابلتك امبارح و ...

هزت السيدة رأسها تقاطعها:

- أيوه أيوه افتكرتك، إيه ده؟

ختمت حديثها تشير صوب طبق الحلوى لتشعر عفاف بالأمل وهي تمده لها قائلة بجدية:

- ده ... دي كيك كنت عملتها امبارح وقولت لازم تدوقيها يكون بينا عيش وملح وكده.

وفجأة تلاشى اقتضاب السيدة وحل محله نظرات متحمسة ولهفة لتجربة ذلك الكيك شهي المظهر، مدت يدها لتنزعها من بين كفيها تقول بسعادة:

- يا حبيبتي والله كلك ذوق يا ... قلتِ اسمك إيه؟

ابتسمت لها عفاف تُجيب بلطف:

- عفا ...

قاطع كلماتها صوت ارتطام قوي لباب خلفها جعلها تستدير بفزع ترمق ذاك الرجل الذي خرج من المنزل المقابل وهو يتمتم بكلمات غاضبة وصرخات غير مفهومة، يلوح بيديه في الهواء ساخطًا على أحدهم.

وضعت عفاف يديها على صدرها تحاول التنفس بشكل طبيعي تسمع صوت الرجل يردد بغضب:

- والله الواحد كره الحياة معاكم، الواحد يطفش ممكن علشان

تستريحوا يعني؟

تجاهلته عفاف بعدم اهتمام تلتفت صوب فوز لتكمل كلماتها غير منتبهة لذلك الرجل الذي لم ينزع عينيه عنها بفضول شديد قبل أن يرحل، ولم تفق إلا على صوت فوز تقول وهي تجذبها للداخل:

- متخافيش يا حبيبتي، ده تلاقيه كريم ماسك في خناق أخوه كالعادة.

صمتت وهي تتأمل طبق الحلوى تهمس كلمات غير مترابطة التقطتها عفاف بسرعة كبيرة:

- عيل بتاع مشاكل مش راحم حد من شره، مش فاهمة اشمعنا هو اللي فضل من بينهم ده المفروض كان أول واحد يتكل ويريحنا من قرفه.

شعرت عفاف بأنها سمعت هذا الاسم فأخذت تردده على نفسها وكلمات فوز قد أثارت فضولًا قاتلًا بها، لتنظر لها تقول باهتمام:

- ليه بتقولى كده؟ هو عمل إيه؟

ابتسمت فوز بسخرية وخبث تردد كلمات عادية لها، لكن في غاية الخطورة لعفاف، وقد مالت عليها تهمس بصوت منخفض:

- قفشوه في شقة مفروشة قبل كده مع أُخت صاحبه ...

***

الفصل الثالث

(ماضٍ يخفي حقائق)

صوت المسجل المرتفع يرن في أرجاء المكان، وحركات التوكتوك المريبة جعلت جميع قاطني الحارة يتخذون من المحلات ساترًا لهم إذا ما أبصروا اقتراب جلال منهم، وهذا الأخير كان فقط يتبع تعليمات أسامة الذي أخبره أن يدور في الحارة كلها علّه يلتقط زبونًا يكون لهم طرف خيط أو ما شابه، وها هو يدور منذ الصباح يتبع كامل التعليمات بحذافيرها دون أن يحيد عن تفصيلة صغيرة، فهو بالفعل حاد عن التفاصيل الكبيرة.

كان يحمل هاتفه يتحدث به مبتسمًا هائمًا:

- وأنتِ أكتر يا توتا، خلاص هانت بإذن الله المهمة دي تخلص وأثبت نفسي وإني أحق من أسامة بالفريق وأترقى ونتجوز والدنيا تضحك لينا.

ارتفع صوت قادم من الخارج لامرأة تصيح منادية له:

- توكتوك!

لكن جلال لم يهتم أو يتوقف، بل لم ينتبه أنّه يقود توكتوك ليتوقف لها، وأخذ يتحدث مع مخطوبته بشرود وهيام وسعادة، ولحظات يرتفع بها للسماء السابعة، وكيف لا وقد كانت مخطوبته هي أكتر إنسان يمنحه الاحترام المستحق، الشخص الوحيد الذي يقدره ويدرك نعمة أن تمتلك جلال في حياتك.

ختم حديثه معها يغلق المكالمة، ثم تحرك يكمل جولته في المكان كما لو كان يقود سيارته الحديثة يدور بها داخل وحدة سكنية فاخرة، يصفر باستمتاع وهو يدور في المكان يتجاهل أي نداء له، الجميع يشير له ليتوقف وهو فقط يكمل طريقه غير مهتم بكل ما يدور حوله.

فجأة وصل لطريق مغلق ليزفر بحنق وهو يتوقف، ثم نظر خلفه ليستدير، لكن وقبل أن يتحرك وجد العديد من الحقائب البلاستيكية ثُلقى داخل التوكتوك ومن ثم جسد لرجل يدس نفسه في المقعد الخلفي:

- اتحرك يا ابني لجوا الحارة عند محل البقالة اللي جنب القهوة.

نظر له جلال في المرآة متشنجًا:

- لا يا حاج أنا مش شغال سواق، انزل شوف حد تاني.

- هو إيه اللي مش شغال سواق؟ أمال جايب توكتوك ليه يا أخويا؟ علشان تربيه؟

استدار له جلال نصف استدارة بحنق يراقب ذلك الرجل حاد اللسان، والذي كان يبدو في منتصف عمره، يرمقه بحدة وتحدي أن يرفض، وجلال فقط لوى فمه بغيظ شديد، ثم استدار ينظر أمامه يتمتم بضيق وغضب، بعدها تحرك بالتوكتوك الخاص به، بينما الرجل في الخلف تنهد بتعب يخرج محرمة قماشية يجفف بها عرقه وجلال يتابعه من المرآة بضيق.

- بس أنا أول مرة أشوفك يعني هنا، أنت من الحارة هنا ولا إيه؟

ارتسمت بسمة جانبية ساخرة مترفعة على جانب فم جلال؛ والذي تناسى أين يجلس في هذه اللحظة وماذا يفعل:

- حارة إيه دي يا حاج اللي أنا منها صلي على النبي، بقى على آخر الزمن جلال الأبنودي يبقى من حارة معفنة زي دي؟

دار الرجل ب عينيه على جلال من أعلى لأسفل، ثم عاد ينظر في المرآة يراقب وجه ذلك الشاب الأبله يجيب بكل بساطة:

- حارة معفنة إيه يا ابني، ده أنت سواق توكتوك، أمال لو كنت وزير خارجية كنت عملت فينا إيه؟

توتر جلال ولم يستطع إيجاد رد وقد غفل لهواني عما يفعل في هذا الوقت، ابتلع ريقه يحاول إيجاد كلمات يجيب بها عليه:

- مش قصدي يا حاج بس يعني أنا قبل كده كنت بسوق في حواري أنضف من كده، على الأقل كانت أمان يا حاج، إنما أنتم يعني متواخذنيش كل يوم والتاني عندكم قتيل.

تنهد الرجل بصوت مرتفع وقد علت وجهه ملامح حزينة وانطفأت الحياة عنه، وصمت ولم يُجبه بكلمة حتى شعر جلال أنّه أخطأ، لذا خشي أن يتحدث بكلمة إضافية فيتسبب في مصائب كما هو معتاد منه.

توقف أمام المحل الذي أخبره عن الرجل والذي هبط من التوكتوك يخرج له بعض الأموال، ثم حمل الحقائب يتحرك بها بعيدًا عن المكان، بينما عين جلال تراقبه بعدم فهم وهو يحدق به تارة وبالأموال تارة أخرى:

- ماله الراجل ده؟

تجاهله دون اهتمام يتحرك صوب المقهى الذي يتوسط المكان وهو يُطلق صفيرًا مستمتعًا عاليًا.

وهناك على مقاعد المقهى كان أسامة يرهف السمع لكل كلمة تخرج من أفواه الجميع حوله حتى وإن كانت مجرد كلمة عابرة، ارتشف بعض الشاي رغم أنّه لا يميل له من الأصل، إلا أنّه أخفى نفوره بمهارة يضع الكوب على الطاولة بعد رشفة واحدة:

- بس أنا شايف يعني إن الموضوع ده غريب أوي، لغاية دلوقتي مش عارفين يلاقوا اللي بيعمل كده؟ طب ذنبهم إيه الشباب دول والأهالي يحصل فيهم كده؟

سحب أحد الرجال الذي كانوا يجلسون حول أسامة بعض دخان السيجار في يده، ثم نفثه يقول ببسمة:

- محدش هيحصل فيه كده من غير سبب يا أستاذ.

انتبهت جميع حواس أسامة لهذا الرجل وقد اعترت نظراته فضول كبير يخفيه خلف هدوء مصطنع:

- مش فاهم قصدك، أيًا كان السبب بس معتقدش يستحق أنّهم يموتوا بالشكل ده، بعدين دول لسه شباب.

رمقه الرجل ببسمة جانبية ساخرة ونظرة تشي بالكثير الذي لم يستطع أسامة فك طلاسمه، ذلك الرجل أمامه يخفي الكثير، أمسك كوبه يدّعي انشغالًا به وهو يردد:

- هما يعني ممكن يكونوا عملوا إيه علشان يستحقوا كل ده؟

قاطع أحد الرجال الآخرين حوله تحقيقه المستتر وهو يتدخل بسرعة زاجرًا رفيقه بنظرة حانقة:

- متاخدش في بالك يا أستاذ هو مينا دايمًا كده بيحب يدخل الحوارات في بعضها.

ولم يكد أسامة يستفسر منه عن مقصده حتى قاطعه وقاطع الجميع صوت موسيقى صاخبة يتبعه صوت عجلات سيارة تحتك في الأرضية خلفها بقوة؛ استدار الجميع صوب الصوت ليتضح أنّها لم تكن سيارة ما تسببت في هذه الضوضاء، بل كان "توكتوك"

توقف جلال أمام المقهى والذي كان لا يبعد سوى خطوات معدودة عن محل الرجل الذي أوصله، يتوقف بقوة، ثم أخرج رأسه من التوكتوك يهبط بكل هدوء مبتسمًا بسمة جانبية يدعي بها خطورة لا يمتلك منها ذرة واحدة، وفي رأسه تتردد نفس الموسيقى البطيئة الحماسية التي يعتمدها أبطال الأفلام طوال الوقت ليبثوا الرهبة في قلوب جميع الممثلين الثانويين، وفي فيلم جلال كان هو البطل الوحيد والجميع يخدمون دور بطولته.

سار يهز يديه بشكل مضحك ظنّه -روشًا- يرفع أصابعه يخللها في خصلاته وهو يسير بحركات بطيئة يرتدي نظراته البلاستيكية البيضاء، قبل أن ينزعها ببطء، يلقي بنظراته على المحيطين من أعلى برجه العاجي.

كل ذلك وجميع رواد المقهى يشاهدون ما يفعل بأفواه متسعة

بصدمة وملامح متشنجة مما يحدث، وقد علت البلاهة تعابيرهم بينما أسامة كان يخفي وجهه بين يديه يتلو ورده اليومي من الاستغفار والذي أصبح يداوم عليه يوميًا، مرة قبل النوم وأخرى بعد الاستيقاظ، وثالثة حين يبصر وجه جلال.

كان جلال يقوم بدور البطولة في عقله، حتى أبصر أسامة يجلس على المقهى لتتسع بسمته وهو يتحرك صوبه يرفع يديه في الهواء قائلًا بصوت مرتفع وبسمة واسعة:

- العو باشا بشوات مصر.

انتفض جسد أسامة والذي كان يتوسط بعض الرجال بعدما اندمج بهم في بعض الأحاديث المتشعبة عن الحياة اليومية وقد كان قاب قوسين أو أدنى من التطرق لما يحدث في المكان حتى سمع صوتًا مرتفعًا يرن في الأرجاء، ولم يكن بحاجة للاستدارة ليعلم مَن المتحدث.

هرول صوب جلال يُسكته بسرعة وهو يضمه مُدّعيًا أنّه رفيق قديم، لكن وحينما ضمه كاد أسامة يحطم عظامه ويحولها فتاتًا يهمس بصوت منخفض مرعب:

- بتعمل إيه يا متخلف؟

تأوه جلال بصوت منخفض يجيبه بعدم فهم لردة فعله تلك:

- إيه يا عو بحترمك وبكبرك يا أخي.

هتف أسامة من أسفل أسنانه بغضب شديد يلعن حظه الذي أوقعه مع أمثال جلال:

- وهي حبكت يعني أنك تكبرني وتحترمني دلوقتي يا اللي منك لله؟ مش قولنا أنّنا منعرفش بعض يا متخلف.

وقبل أن يتحدث جلال بكلمة قاطعه أحد رجال المقهى يسحب بعض دخان أرجيلته باستمتاع:

- مين ده يا أستاذ أسامة، تعرفه؟

ابتعد أسامة عن جلال مبتسمًا بسمة واسعة وهو يضم كتف جلال له يكاد يحطم عظامه غيظًا:

- إيه اللي أعرفه، ده جلال واحد عبيط على الله ومعرفة قديمة.

رماه جلال بنظرة غاضبة ولم يكد يتحدث بكلمة حتى استدار له أسامة يقول ببسمة واسعة:

- والله ليك وحشة يا جلال، لازم تطلع تشرب معايا حاجة فوق وتحكيلي أخبارك وأخبار عيلتك.

تشنجت ملامح جلال وقبل أن يبادر بقول كلمة واحدة سحبه أسامة بعنف، ولولا تواجدهما أمام أعين الجميع لكان مسح به أرضية الشارع بأكملها.

تحرك به بغضب صوب المنزل الخاص وهو يتمتم بكلمات غاضبة وحنق:

- ربنا يصبرني عليك.

فجأة ظهرت له عفاف وهي تهتف بحماس ولهفة كبيرة لا تنتبه لمكان تواجدهم لشدة حماسها:

- يا عو مش هتصدق عرفت إيه من شوية.

عدّل أسامة جملته السابقة وهو يسحب عفاف بيده الأخرى معه صوب الأعلى:

- ربنا يصبرني عليكم.

صعد الدرج يسحب الاثنين خلفه بغضب ليسمع صوت خطوات راكضة على الدرج خلفهم وصوت هند تهتف بجدية:

- عو كويس إنّي لقيتك هنا.

وقبل أن تُكمل قاطعها أسامة يردد بجدية:

- جُري نفسك ورانا يا هند علشان مش هعرف أجرك معاهم.

ختم حديثه يتحرك صوب الأعلى وهند تقف في منتصف الدرج ترمق ظهره بعدم فهم، لكنها رغم ذلك أسرعت خلفه كي تعلم ما حدث وتسأله عن الخطوة القادمة فيما تفعله.

***

تلك الأماكن التي تكون مخزن لذكرياتك السعيدة، ستدور الحياة وتدور حتى تصبح صندوقًا أسود لكوابيسك.

وهذا ما كان عليه هذا المكان، المكان الذي كان مقرًا لتجمعهم سابقًا، مخزنًا لضحكاتهم، الآن لم يعد سوى مجرد جدران باهتة مقبضة للقلب، تضم صدى ضحكات أحمد، ونكات سمير التي لم تكن تضحك سواه، ونصائح أشرف، وصيحات سالم المتذمرة طوال الوقت.

رحلوا ولم يبقَ منهم سوى مجرد فتات ذكريات لا وظيفة لها سوى حمل سياطها وجلدهم واحدًا تلو الآخر.

تنهد مدحت تنهيدة خرجت محملة بكل مشاعره السلبية التي تصيبه كلما خطى هذا المكان، البارحة كانوا هنا، واليوم أين أصبحوا؟ نصفهم وارتهم القبور والنصف الآخر ينتظر دوره.

فجأة انتفض جسده على صوت صرخات قادمة من المكتب الذي يقبع في نهاية الممر والذي كان يعود لكريم، اقتحم المكتب ليجد محمد يحدق في وجه كريم بغضب شديد والأخير يتحدث بعدم اهتمام:

- إيه اللي مش مفهوم في كلامي؟

- اللي مش مفهوم هو قرارك المتخلف، يعني إيه عايز تفض الشركة وتبيع نصيبك وتمشي، مش بمزاجك، مش بمزاجك أبدًا، الشركة دي قامت بالإجماع ولو اتفضّت هيكون بالإجماع.

كان مدحت يحدق في كليهما لا يفهم ما يحدث، بينما كريم انتفض يصرخ في المقابل في وجه محمد يدفع الأخير للخلف بقوة:

- إجماع إيه يا محمد؟ فوق يا حبيبي مبقاش فيه إجماع، كلهم خلاص بح، متبقاش غيرنا إحنا التلاتة وخلاص كلها مسألة وقت ونحصلهم، فاحنا نفضها سيرة وكل واحد ياخد نصيبه ويشوف عايز يعمل بيه وخلصنا.

تشنجت ملامح مدحت يردد بسخرية:

- مش أنت برضو اللي كنت معترض على قرار الهروب والسفر؟

- وغيرت رأيي.

اقترب منه محمد يردد بشك:

- وإيه يا ترى اللي غيّر رأيك؟

نظر له كريم ولم يتحدث بكلمة حتى اقترب منه محمد يقول بغضب وحنق كبير:

- أقولك أنا إيه اللي غير رأيك، علشان فرحك على ديانا قرب صح؟

رفع كريم عينيه لمحمد بغضب وكأنه ضغط على جروحه، لكن محمد ابتسم بسمة مقيتة واسعة يهمس له:

- عايز تهرب قبل ما تلبس في البنت مش كده؟ البنت اللي سيرتها بقت على كل لسان بسببك.

اشتعلت عيون كريم بقوة وقد شعر بنيران تشتعل في صدره وهو يصرخ في وجه محمد:

- وأنت مالك محموق ليها أوي كده، ولا حنيت لحبيبة القلب، إيه مش قادر تستوعب أنّها سبق وفكست ليك يا محمد وجات رمت نفسها في أحضاني؟

هنا واكتفى محمد من ادعاء عدم الاهتمام وهو يهجم على كريم بجنون يصرخ بكلمات وحقائق جعلت أعين مدحت المصدوم تتسع أكثر وأكثر وهو يشعر أنّه لا يعرفهما، وصلت لأذنه حقائق كان أعمى

عنها لسنوات طويلة.

ديانا الفتاة التي يعلم الجميع سبب ارتباطها بكريم رغم كل ما يمنع تقربهما، هي نفسها الفتاة التي كان يحبها محمد والتي كان يقص عليهما طوال الوقت هيامه بها؟

***

- لا لا فوفا حبيبتي، اهدي كده وفهميني كويس أوي وبراحة إيه اللي قالته ليكِ فوز.

كانت تلك كلمات أسامة الذي انتفض حين سمع حكايات عفاف المتداخلة والتي استطاعت الخروج بها من جلسة واحدة وبطبق حلوى صغير مع فوز.

اتسعت بسمة عفاف بقوة ليس لنظرات الحماس التي علت وجه أسامة في هذه اللحظة، بل لكلمته التي خرجت منه عفوية دون شعور، كلمة جعلتها تتحمس أكثر منه حتى مرددة ببسمة وهي تكرر ما سمعته على مسامعه مرة أخرى:

- اللي اسمه كريم ده واللي يعتبر كان زعيم الشلة، هو أكتر واحد بتاع مشاكل ومشيه مش مظبوط فيهم، في مرة قفشوه مع بنت هنا من بنات الحارة والبنت دي كانت أخت واحد معرفة لكريم وقريب منه، وبعد اللي حصل قامت الحرب هنا وانتهت إن كريم يخطب البنت دي علشان يلم الموضوع.

صمتت ثم قالت تتذكر همس فوز لها بمعلومات تدّعي أنّ أحدًا لا يعلم بها سواها، فهي قد استشفتها واكتشفتها بنفسها:

- والغريب بقى أنّها بتقول إنّ البنت دي هي نفسها البنت اللي كان صاحبه محمد بيحبها وكان بيلف عليها علشان يتجوزها، بس كريم سبقه ليها.

اشتعلت أعين أسامة بقوة وقد شعر بالأدرينالين يندفع بكميات مهولة داخل أوردته، دافع مثالي لارتكاب جريمة.

- وهي فوز دي عرفت منين كل الحاجات دي؟ بعدين لو كلامها صح إزاي محمد هيفضل مصاحب اللي اسمه كريم ده أساسًا لغاية دلوقتي؟

كانت تلك الكلمات خارجة من فم هند التي بدأت الخيوط تتجمع في عقلها سريعًا في محاولة للبحث عن عقدة تجمعهم ببعضهم، منطقية هند البحتة لم تكن لتسمح لها بتفويت مثل هذه الدلائل دون معرفة كافة جوانبها.

وعفاف التي لم تستطع أخذ الكثير من فوز في جلسة واحدة خاصة بعد انتهاء طبق الحلوى وانتهاء رغبة فوز في التحدث معه، قالت بهدوء مجيبة هند:

- اللي عرفته أنّها مرة شافت محمد ده ماشي ورا البنت في الحارة وبيحاول يكلمها وهي كانت مش معبراه، أما عن السبب اللي يخليه يصاحب كريم لغاية دلوقتي فهو غير معروف، بس ممكن مثلًا مكانش حابب يظهر حبه للكل زي ما قالت فوز لأنّه مكانش معرف حد، أو علشان الشركة والمصلحة.

- أو علشان مجاش الوقت المناسب علشان يرد عليه.

تحركت جميع الأعين صوب أسامة الذي التمعت عينيه بقوة يحاول تحليل كل ما سمعه للخروج بنقاط يسير عليها في القادم، نهض يدور في المكان كعادته يردد بصوت واضح:

- كلام فوز ده لو صح يبقى إحنا عندنا اتنين في قائمة المشكوك فيهم؛ محمد وأخو البنت، بس لو محمد ليه يقتل صحابهم وهما أساسًا ملهمش دخل؟ ولو أخو البنت ليه يقتل الكل ما عدا اللي عمل كده في أخته؟

رفع عينيه لهم يحاول إيجاد دليل واضح:

- إيه علاقة كل ده بقضية قتل الأربعة؟ فيه حلقة مفقودة في النص.

- مدحت.

هتفت هند في جدية تامة لينتبه لها الجميع، وهي فقط هزت رأسها تقول بهدوء وبسمة صغيرة:

- حل اللغز ده أكيد مع مدحت، أصل مش طبيعي يكون الشاب ده في الحكاية من غير دور، أكيد يعرف حاجة أو على الأقل يدلنا لطرف خيط.

ابتسم أسامة يقترب من هند يقول مُضيّقًا عينيه:

- ويا ترى مين أحسن منك يجيب لينا قرار اللي اسمه مدحت ده يا هند؟

- جلال، أو عفاف أو أي حد بعيد عنّي، أنا مش بحب أتعامل

معاهم.

زفر أسامة بحنق يعترض على حديثها:

- أنتِ يا هند، محدش غيرك هينفع مع اللي اسمه مدحت ده، والله تبقى عيب في حقك أنّك متقدريش تتعاملي مع راجل، إيه هتخافي منه ولا إيه؟

رفعت هند عينيها بشر له ليبتسم مدركًا أنه أصاب وترًا حساسًا لديها، وقد استغل الغضب والتحدي في عينيها، وهو فقط أبعد عينيه صوب عفاف يهتف ببسمة واسعة:

- فوفّتي.

وعفاف في هذه اللحظة تحديدًا كانت خارج نطاق التغطية، حبيبتي وفوفتي في جلسة واحدة كثير عليها، فإن كان يطمح للتخلص منها بانتهاء هذه المهمة فهو في طريقه لفعل ذلك.

ابتسم أسامة، يتحرك صوبها يجاورها في الأريكة ممسكًا كفها بحنان، يستشعر دفء كفها الذي كان أكثر أماكن العالم دفئًا له، ومنذ عقد قرآنهما وهو لا ينفك يتمسك به كي يتمتع بحنانها الذي يتسرب منها دون شعورها بذلك حتى:

- مش هوصيكِ على فوز يا فوفا.

ابتلعت عفاف ريقها تحاول أن تتماسك على الأقل في وجود هند وجلال، تهز رأسها تجيب بصوت خرج خافتًا:

- أكيد يا عو.

ابتسم لها بسمة واسعة يود لو يضمها بين أحضانه الآن، لكنه تجاوز ذلك ينفض تلك الأفكار التي ما تنفك تصيبه منذ عقد القرآن عليها، يستدير صوب جلال يقول:

- أستاذ جلال، مفيش أي أخبار جبتها لينا؟ أي زبون ركب معاك فتح السيرة دي؟ أي حاجة عملتها غير أنّك كنت هتفضحنا كلنا؟

رفع جلال عينيه لأسامة ثم هز كتفه ببساطة:

- مفيش أساسًا أي حد ركب معايا من الصبح غير حاج صاحب السوبر ماركت اللي جنب القهوة، تقولش الناس بطلت تركب تكاتك؟ ده أنا كان ناقص أنزل أسحبهم علشان يركبوا معايا.

نظر له أسامة ثواني قبل أن يُعلّق على كلمة واحدة:

- صاحب السوبر ماركت؟

- أيوه اللي جنب القهوة ده.

فرك أسامة رأسه وهو يغمض عينيه بتعب شديد يهمس من بين أسنانه:

- قولنا نقرأ أم القضية، قولنا نراجع الملف الخاص بالقضية، يا رب حكمتك يا رب، الحاج صاحب السوبر ماركت اللي جنب القهوة اللي هو أبو أحمد اللي اتقتل؟ كان راكب معاك أبو واحد من الضحايا ومطلعتش منه بكلمة واحدة يا ...

صمت يكبت سبته، ثم تنفس بصوت مرتفع يتماسك متذكرًا أمر وجود فتيات معهم:

- اللهم صبرك وعفوك يا رب.

وجلال الذي فتح فمه مستوعبًا وأخيرًا يضرب كفًا بالآخر:

- وأنا أقول الراجل زعل ليه أول ما جبت سيرة إنّ الحارة معفنة ومش أمان وذكرت القتل اللي بيحصل هنا؟

- تلاقيه أخذ على خاطره علشان قولت على الحارة معفنة مش أكتر.

نظر له جلال يفكر في حديثه قبل أن ينتفض أسامة من مكانه صارخًا بصوت مرتفع يرفع يديه في الهواء يتضرع لربه أن تنقشع الغمة عنه:

- يا رب الرحمة، الرحمة من عندك بعبدك المسكين يا رب.

تنفس بصوت مرتفع وقد علم الجميع أنّه الآن على وشك التحول والصراخ في وجوههم بالتعليمات ثم يتبعها بتهديد لن ينفذه ككل مرة، وقد كان، إذ رفع أسامة إصبعه يهدد بصوت مرتفع وغضب شديد:

- اسمعوا علشان والله العظيم هي تكة اللي واقف عليها قبل ما أعتزل أم الشغلانة وأسرح بمجلات في محطة مترو البحوث.

تنفس بصوت عنيف يحرك إصبعه مشيرًا على كل واحد منهم على حدة:

- عفاف هتمسك فوز دي تقررها بكل اللي تعرفه، وهند تنط لمدحت في كل حتة وتعرفي منه كل اللي تقدري تعرفيه، أما أنت يا جلال

والله العظيم لو ما اتعدلت وجيتلي بكرة بأي خبر عليه القيمة من الزباين اللي بيركبوا معاك لأكون ممسكك قسم السلطات في كافيتريا المركز.

بدأ يحرك إصبعه بينهم ليبدأ سيل التهديدات المتوقع بعد كل تعليماته:

- وحسكم عينكم، شوفوا إياكم حد منكم يتغابى ويعمل أي حاجة تكشفنا، يعني إحنا أساسًا ماشينها بستر ربنا وبالزق، فخلوها تكمل على خير لأحسن أفرّغ خزنتي في دماغكم نفر نفر.

ختم حديثه يتنفس بصوت مرتفع ثم زفر أنفاسه بهدوء شديد يرسم بسمة واسعة على وجهه يتأكد أنّ حديثه وصل لهم واضحًا:

- تمام يا رجالة ويا ستات؟

ولم تصل له إجابة من الثلاثة الذين كانوا يحدقون فيه بريبة وصمت، وللحق هذا الصمت أفضل من مائة إجابة له، تنهّد مرتاحًا:

- كده تمام، على بركة الله.

***

طلبوا منه أن يتقن عمله، وها هو يفعل، رغم أنه لم يكن يود أن يستهلك كامل خبراته في مثل هذه المهمات التي لا ترتقي لمستواه، أو المهمات التي يخوضها كعميل فقط، لكن لا بأس أن يساعد بعض الأغبياء الذين لا يستطيعون حل أي قضية دون تدخل منه، تنهد جلال بصوت مرتفع يتوقف بالتوكتوك الخاص به جوار المحل الخاص بوالد أحمد، يتحرك داخله وهو يتبع تعليمات أسامة له أن

يحاول معرفة مَن مِن الممكن أن يُضمر الشر لهذا الرجل أو ابنه.

تحرك يرفع يده في الهواء يصيح بصوت مسموع:

- سلام عليكم يا حاج.

رفع الرجل رأسه عن الدفتر أمامه، يرد التحية بهدوء:

- عليكم السلام، اتفضل.

ابتسم جلال يتحرك صوب المكتب الذي يتوسطه الرجل مردّدًا بهدوء وهو يحدق حوله في كافة الأشياء المعروضة:

- بقولك يا حاج، عندك جبنة اللي العلبة بتاعتها عليها صورة قطة بفيونكة خضرا؟

رمش الرجل بعدم استيعاب لما سمع:

- مش فاهم عايز إيه؟

- جبنة يا حاج، بس نوع كده غالي مش عارف هلاقيه عندك ولا لا، أصل أنا مش باكل الأنواع الرديئة دي خالص لاحسن غلط عليّ.

مال الرجل بنصف جسده يراقب التوكتوك المرابط أمام بوابة محله:

- أنت ليه محسسني أنك راكن المرسيدس قدام المحل، يا بني أنت سواق توكتوك استوعب بقى.

في تلك اللحظة ولج أحد الرجال ضخام الجسد متجبري الهيئة صوب الداخل، يرتدي جلبابًا تقليديًا وهو يسعل بصوت جعل مقعد

جلال يتحرك به:

- السلام عليكم يا حاج سلطان، أخبارك النهاردة؟

رفع سلطان -والد أحمد- رأسه صوب صديقه وجاره الحبيب يمنحه بسمة واسعة:

- عليكم السلام يا معلم صلاح اتفضل، الحمد لله أنا زي الفل، أنت أخبارك إيه؟

جلس صلاح على المقعد المقابل لجلال يتنهد بصوت شبه مرتفع:

- الحمد لله بخير، أدينا بنحاول نعيش، اللي بيحصل لنا مش شوية يا سلطان يا أخويا.

علت الحسرة والقهر ملامح وجه سلطان الذي وكأن الزمن أبى أن يسمح له بالمضي قدمًا ونسيان ما أصابه فأصبح يجدد جروحه مع كل مرة يبصر جثة أحد الشباب.

- أنا مش فاهم اشمعنا إحنا اللي صاب ولادنا كل ده؟ هما عملوا إيه علشان يستحقوا كده؟

زفر صلاح -والد أشرف- بصوت مرتفع يمسح وجهه مستغفرًا بصوت شبه مسموع، ثم رفع عينيه ليتحدث، لولا أن انتبه فجأة لشاب يجلس أمامه يحدق فيهما باهتمام وأعين فضولية كطفل يحضر جلسات الكبار لأول مرة.

- مين ده؟

تحركت عين سلطان صوب جلال والذي كان قد تناساه في خضم

حديثه:

- ده عيل سواق توكتوك جديد في الحارة.

وهذه التسمية يبدو أنها لم تنل إعجاب جلال الذي علت ملامحه تعابير الغضب والتذمر، وكان على وشك الصراخ بهما بأنّه ليس كما يظنونه، بل هو أحد أفراد الفريق العالمي والأشهر في عالم المحققين، رجل حق يركض خلف العدالة و ... لكن تلك الكلمات التي كانت على وشك الاندفاع من فمه للخارج، وأدتها كلمات أخرى صارخة رنّ صداها في عقل جلال، كلمات أسامة الذي كان يصرخ بها منذ ساعات على مسامعهم.

رمى صلاح جلال بنظرة تقييمية:

- بقى أي واحد معاه قرشين محيرينه يجيب بيهم توكتوك ويلف بيه الشوارع، يلا ربنا يرزقهم ويبعد عنهم الشر.

ابتسم له جلال بسمة صغيرة، ثم نظر صوب سلطان:

- مقولتش يا حاج عندك الجبنة اللي قلت لك عليها؟

أشار سلطان صوب أحد الأركان مردّدًا بعدم اهتمام وهو يعود للانشغال في الأوراق أمامه:

- عندك الرف اللي هناك ده عليه كل الأنواع شوف اللي عايزه يا ابني ومتدوشنيش.

تحرك جلال صوب ذلك الرف الذي يتحدث عنه الرجل وهو يشعر بالحنق من تعاملهم معه، لكن إن ظنّوا أنّ جلال رحل بكُليّته فقد

أخطأوا، هو رحل بجسده وترك لهم أذنه تشاركهم الجلسة.

كان يقف يحمل العديد من علب الجبن يقرأ الموجود عليها مدعيًا الانشغال بها، وقد وصلت لمسامعه بعض الكلمات المترامية منهم:

- أنا شايف إن باقي العيال تسافر من هنا، كفاية أوي اللي حصل لعيالنا.

- يا سلام وإحنا يعني يا سلطان هنفضل لغاية امتى كده؟ كل شوية واحد من عيالنا يضيع، أنا مش هستنى لغاية ما يدخلوا على ابني التاني.

- يعني هنعمل إيه يعني يا صلاح، ما أنت على يدك شوفت أننا قدمنا بلاغات ودخلنا في دوامات تحقيق ومحدش برضو عرف يوصل للي بيعمل كده.

صمت سلطان ثواني يبتلع غصة وقد بدأت عينيه تمتلئ بالدموع، فأحمد لم يكن ولده فقط، بل كان أنيس حياته الوحيد وصديق عمره ورفيق دربه.

- أنا بس نفسي أعرف ليه عمل كده؟ أنا ابني ذنبه إيه في كل اللي بيحصل ده علشان أخسره؟

اعترض صلاح بحنق على كلماته:

- وهو يعني أشرف كان عمل إيه، ولا سمير أو سالم، مين فيهم عمل حاجة لحد لدرجة يقتلهم؟

مسح سلطان وجهه يخفي دموعه التي كانت على وشك الهبوط:

- لا إله إلا الله، اللهم لا اعتراض على حكمتك يا رب، ربنا يجازي اللي كان السبب.

صمت وقد علت نظرات تفكير عميقة وجه صلاح الذي مال يهمس بصوت منخفض لم يصل منه سوى القليل فقط لجلال الذي كان قاب قوسين من الجلوس أعلى أكتاف صلاح ليسمع كلماته:

- الواد أشرف ابني قبل الدوشة دي كلها كان بيحكي أنّهم داخلين صفقة كبيرة أوي مع واحد من كبارات البلد اسمه خيري باين، تفتكر ليه يد في اللي حصل؟

رفع سلطان حاجبه وهو يفكر في هذا الاحتمال:

- ما إحنا قلنا كل ده في التحقيقات يا صلاح ومحدش وصل لحاجة، والراجل ملوش علاقة باللي حصل، بعدين ده كان هيشاركهم ليه يقتلهم؟ إيه مصلحته؟

ابتعد عنه صلاح يهز كتفه بجهل شديد:

- معرفش بس أنا مش مستريح للراجل ده من يوم ما شوفته في عزا أشرف، ملامحه وطريقته مش مريحة.

وكان هذا أكثر من مُرضٍ لجلال، وقد نال كفايته من هذا الحديث ليبتسم وهو يحمل علبة فول صغيرة يضعها على المكتب قائلًا:

- هاخد دي يا حاج، بكام؟

نظر سلطان للعلبة بعدم فهم:

- دي فول يا ابني، مش أنت كنت عايز جبنة؟

ابتسم له جلال يجيب بكل بساطة، يخرج بعض العملات من جيب بنطاله:

- جبنة إيه يا حاج أنا أساسًا عندي حساسية من منتجات الألبان.

***

كانت تجلس في بهو المنزل الذي لا يتلاءم داخله مع خارجه؛ فمَن يرى تلك الرفاهية التي تنطق بها جدران المنزل من الداخل لا يخمن انتماءه لبناية هشة قديمة في إحدى الحارات المصرية في منطقة فيصل.

ابتسمت هند ابتسامة واسعة تستقبل والدة مدحت التي خرجت تحمل لها الضيافة مبتسمة بسمة مشرقة جعلت هند تبادلها البسمة بالمثل:

- ليه تعبتِ نفسك؟ والله ما له لزوم.

- ودي تيجي يا بنتي؟ ده أنتِ ضيفتي.

صمتت تتأمل هند بفضول شديد، فمنذ سمعت مدحت البارحة يسأل عنها ويتتبع أخبارها لمعرفة هوية الضيفة الجديدة لحارتهم، وهي سعيدة أنّ ابنها وأخيرًا بدأ يتلفت حوله ويرى أبعد من أنفه ويتحدث عن الفتيات، وهي والله لن تضيع هذه الفرصة حتى تتأكد من أنّ ولدها نال نصيبه من النساء.

- قولي لي بقى يا حبيبتي أنتِ بتشتغلي إيه على كده؟

منحتها هند بسمة صغيرة تجيب بهدوء:

- مُدرّسة، لسه ناقلة في المدرسة هنا من قريب.

- مُدرّسة؟ بتدرّسي إيه يعني؟

توترت هند تشعر أنها غفلت عن هذه النقطة، بحثت في عقلها عن شيء تبرع به عدا حقوق المرأة وتوبيخ جلال وتقفي الآثار، ولم تجد شيئًا ببساطة، ابتلعت ريقها تفتح فمها تردد بصوت منخفض:

- علوم.

اتسعت عين المرأة بحماس شديد تدعي اهتمامًا زائفًا، وقد وجدت مدخلًا لتجمع ابنها بالفتاة دون البحث عن حجج واهية:

- علوم؟ والله بنت حلال، طب ده أنا بقالي فترة بدور على مدرسة علوم للولا خالد ابني، إيه رأيك تيجي تديله دروس واللي تطلبيه مش هنختلف فيه.

اتسعت عين هند بحماس ينافس حماس المرأة، السيدة أمامها منحتها بطاقة خضراء لدخول منزلها دون أي جهد يُذكر، وهذا ما جعلها تسارع للموافقة دون التفكير في كيف ستدرس شيئًا هي تجهله من الأساس:

- أكيد طبعًا موافـ...

قاطع كلماتها صوت طرقات عنيفة على باب المنزل والذي جعل جسد هند ينتفض مع السيدة التي ركضت تتحدث بحنق وغضب:

- قطع إيدك يا اللي هتكسر الباب، إيه فيه إيه؟ براحة يا أُخويا!

فتحت الباب بسرعة لتبصر وجه مدحت ابنها الذي اندفع داخل

المنزل بسرعة مرعبة يحدث ضجيجًا غير معلوم المصدر قبل أن يخرج من غرفته بعصى ضخمة وملامح شر وكأنه على وشك القتل، وقبل أن يتساءل أحدهم عمّا يحدث كان جسد مدحت يندفع للأسفل بقوة دون أن ينتبه أنّه كاد ينتزع كتف هند بالخطأ.

اشتعلت أعين هند وهي تلحق به بشر مستطر وكذلك والدته التي ضربت صدرها في فزع وهي تركض بسرعة خلفه صارخة:

- فيه إيه يا مدحت؟ رايح فين يا بني؟

هبط الجميع وخرجوا من البناية، ليبصروا بمجرد خروجهم حربًا تدور في منتصف الحارة وقد توسط كريم دائرة من الرجال يمسك بين يديه رجلًا مُدمى الوجه يصرخ فيه بجنون:

- وأخيرًا لقينا الـ ... اللي ماشي يقتل فينا.

***

الفصل الرابع

(مينا)

هل يُمكن أن تكون الحياة من اللطف الذي يجعلها تشفق على أحزانك ومصائبك لتريحك قبل أن تلفظ أنفاسك الأخيرة تعبًا وحزنًا؟ هل يُمكن أن تشفق الحياة على مَن تبقى منهم وتنجدهم من هذه المكائد التي أحاطت بهم؟ محمد وكريم ومدحت، بقايا شباب ما طمحوا في الحياة سوى لنجاحٍ يدفع بهم صوب السطح، وكان جزاؤهم هو غدر الحياة بهم وسلبهم حيواتهم واحدًا تلو الآخر، وكان السطح الوحيد الذي طفوا عليه، هو سطح مجرى المياه كجثث هامدة.

قبل ساعات من هذه الفوضى التي عمّت الحارة..

في المنطقة الفاخرة التي اختارها السبعة سابقًا لتكون عنوانًا لشركتهم الصغيرة، هبط كريم بغضب شديد بعد شجار قوي مع محمد، شجار كادت عيناه المتورمة أن تذهب ضحيته، لولا تدخل مدحت بينهما.

أخذ يسب ويلعن وهو يتحرك صوب سيارته، وفي نفسه يتوعد بالويل لمحمد، لكن فجأة توقفت أقدامه يبصر ظلًا على قرب من السيارات جوار مبنى شركتهم، ضيق ما بين حاجبيه يشعر أنّه يعلم هذه الهيئة.

اقترب بخطوات بطيئة هادئة محاولًا عدم إثارة أي ضوضاء في سيره، حتى أصبح بالقرب من ذلك الجسد يسمع صوته متحدثًا في

الهاتف بخفوت شديد:

- هستنى لما كلهم ينزلوا ووقتها ننفذ اللي استنيناه، أنت بس جهز فلوسك واعتبر الموضوع انتهى خلاص، السبعة انتهوا خلاص، كلها مسألة وقت يا باشا ويوصلك خبر نهاية الباقيين.

ولم يكد ذلك المتحدث يستوعب ما يحدث إذ وجد جسده فجأة يُسحب بشكل مرعب من خلف السيارات، وهناك العديد من اللكمات تهبط أعلاه يتبعها العديد من السبات، وصوت كريم بدأ يرن صداه في المكان بجنون بعدما اكتشف هوية المتحدث:

- اه يا زبالة يا حيوان، بقى تطلع أنت اللي عملت كل ده، والله ما هسيبك غير لما أطلع روحك في إيدي.

شهق الشاب برعب، يحاول الإفلات من بين قبضة كريم، لكن هيهات. هبط مدحت الذي ركض ليهدئ من كريم خوفًا أن يتأذى في طريقه بسبب قيادته المتهورة مع غضبه، ليُصدم مما يحدث أمامه؛ كريم يمسك بين يديه رقبة "ياسر" ذلك الشاب الذي كان يعمل معهم في وقتٍ من الأوقات، قبل أن يُطرد بسبب إهماله، تحرك مدحت صوبهم يصرخ بملء صوته:

- كريم بتعمل إيه؟ سيبه هتقتله، سيبه يا كريم، سيبه أنت اتجننت؟

دفع كريم مدحت للخلف بغضب وقد أضحت عيناه حمراوان بشكل مخيف صارخًا بصوت رنّ صداه في المكان بأكمله حتى هربت الطيور من أعشاشها:

- أسيبه؟ أنا مش هسيبه غير لما أخرج روحه بين إيديا، ده الـ ... اللي قتل صحابنا، أنا سمعته بوداني وهو بيكلم واحد وبيقوله أنه خلاص مبقاش غيرنا ويخلص خالص.

اتسعت عيون مدحت بصدمة كبيرة يحدق في وجه ياسر الذي شهق بصوت مرتفع ينفي برأسه باكيًا، يحاول الحدث والدفاع عن نفسه، لكن ما سمح له كريم بالتنفس حتى وهو يجذبه لسيارته يهدد بنبرة سوداوية:

- أنا هاخدك بقى لأهالي اللي أنت قتلتهم علشان تحكيلهم كويس إزاي خلصت من عيالهم وبتفكر تخلص من الباقيين.

وها هم، في منتصف الحارة حولهم الجميع شاخصي الأبصار فاغري الأفواه، مصدومي الملامح، في النهاية كان القاتل شابًا في مقتبل عمره مثلهم؟

ومن بين كل تلك الصدمات المنتشرة كانت صدمته هو، أسامة الذي علا الاستنكار ملامحه وهو يدور بنظراته بين فريقه يحاول أن يفهم ما يحدث هنا، وجدوا القاتل؟ بهذه السهولة؟ حقًا؟

كانت عفاف تراقب ما يحدث بعين منتبهه وهي تدور على الشاب الذي كان قاب قوسين أو أدنى من خروج روحه، بينما يد كريم تحركه كالورقة الذابلة في مهب الريح، وصوت جلال المصدوم جوارها يهتف:

- بس كده؟ بالسهولة دي؟ ده أنا لسه محفظتش أسماء الضحايا حتى.

نظرت له عفاف بجهل تهز كتفيها بعدم فهم، بينما هند جوارهم عينيها تتحرك على الجميع تراقب الاستنكار والاستنفار وقد بدأ البعض يتحرك صوب هذا الشاب بتحفز مخيف، نظرت صوب أسامة تسأله بعينيها عما سيحدث، ليهز هو كتفه بجهل وقبل أن يستوعب أحدهم سرعة الأحداث، اقتحم المعلم صلاح الدائرة يحمل بين يديه سكينه الضخم الذي يستخدمه في تقطيع اللحوم يصرخ بجنون وهو يجتذب جسد ياسر من بين أنامل كريم:

- والله في سماه لأكون مقطعك حتت ومعلقك على باب الحارة.

كان يتحدث بحرقة وغضب شديد وقد التمعت قسوة مخيفة في عينيه، وياسر يحاول الحديث، لكن أنّى له القدرة على النطق بكلمة بعد كل ما تلقاه من مدحت ومحمد وكريم في طريقهم إلى هنا.

تجمع أهالي الضحايا حوله وقد أخذوا يتنقلون بقايا جسده الهامد من يدٍ لأخرى، وياسر يتأرجح بينهم وقد بدأ يسلّم أمره وينطق الشهادة، لكن فجأة ومن بين كل هذا الهرج والمرج اقتحم الجمع صوت أسامة الذي انتزع من بينهم جسد ياسر يخفيه خلفه بسرعة وقد اشتعلت الأعين وؤجهت له هو.

التوى ثغر عفاف برعب وهي تهمس:

- بتعمل إيه يا حزين، سيبلهم الراجل بدل ما يقطعوك أنت.

هتف جلال جوارها وقد اشتعل الحماس في عينيه:

- سيبيه يا عفاف يشوف شغله الموضوع بدأ يولع.

استدارت له عفاف تنطق بغضب وجنون وهي تصفع رأسه:

- اللهي تولع وما تلاقي اللي يطفيك يا جلال، روح ادخل اقف جنب أسامة بدل ما يتكاتروا عليه.

تأوه جلال بغضب شديد يفرك رقبته وهو ينظر لها بحنق:

- أدخل فين أنتِ مش شايفة منظرهم عامل إزاي؟ بعدين افرضي دخلت وطالني أذى؟ مين يمسك الفريق بعد ما يقتلوا أسامة؟ مش وجب يفضل واحد فيه سمات القيادة علشان يعرف يشكمك أنتِ وهند.

فجأة وجد يد هند تجذب جسده صوبها من تلابيبه تهمس بشر من أسفل أسنانها وبشكل جعل أعين جلال تتسع بريبة منها:

- قسمًا بالله لو ما دخلت وقفت جنب أسامة دلوقتي، ما هتلاقي منظمة حقوق إنسان أو حيوان تنجدك من بين أيديا يا جلال يا أبنودي.

هز جلال رأسه بسرعة وخوف من نظراتها وصوتها الخافت المرعب، يبعد يدها عن تلابيبه مبتسمًا بسمة صغيرة مهتزة:

- كنت بهزر والله يا هند أنتِ محدش يعرف يشكمك ولا يقدر عليكِ غير ربنا، أنا هروح أشوف أسامة.

ختم حديثه يفلت من بين يديها يركض بسرعة كبيرة صوب القتال القائم في منتصف الحارة، وقد كان ذلك القتال خيارًا جيدًا له أكثر من البقاء مع هند في هذه اللحظة.

ثبت الجميع عيونهم على ذلك الغريب الذي اقتحم جلسة

قصاصهم بكل وقاحة يقطع عليهم متعة إطفاء نيران قلوبهم لموت ذويهم، بل ويتبجح ويخفي القاتل خلفه.

تحرك سلطان يهتف بقهر وغضب:

- أنت مين يا جدع أنت؟ ابعد كده خلينا نشوف الـ ... اللي وراك ده.

أبى أسامة التحرك خطوة واحدة وهو يدرك من الأدلة المبدأية أن هذا الشاب خلفه لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يكون نفسه القاتل، أدلة تخبره أنّ هناك حلقة مفقودة هنا، لكن هذه الأدلة لا يستطيع عرضها عليهم أو التحدث بها للحفاظ على سريته، لذا كانت مهمته في تحويل غضب هذه الجموع بعيدًا عن الشاب مهمة صعبة:

- يا حاج حقك محدش يقدر يتكلم، بس كله بالعقل.

تقدمت تلك السيدة التي كانت تصرخ آخر مرة في الطرقات، نفسها والدة سمير وهي تهتف بنبرة باكية متشنجة:

- عقل؟ قتل عيالنا وتقولى عقل؟

- مين قال إنّ هو اللي قتل؟ النيابة حققت معاه والمحكمة حكمت أنّه متهم؟

اعترض محمد وهو يهتف بشر:

- واحنا لسه هنستنى النيابة أو المحكمة علشان تقولنا؟ ويا عالم وقتها هنكون عايشين أو لا، بعدين محدش ليه مصلحة يقتل فينا غيره، وكريم سمعه وهو بيقول كده بنفسه.

نظر أسامة خلفه صوب الشاب بتشنج وكأنّه يخبره "حقًا؟" لكن الشاب فقط استمر في هز رأسه وهو يبتلع ريقه بصعوبة محاولًا الحديث وقد خرج صوته وأخيرًا يهتف بكلمات شبه مفهومة:

- لا والله ما قتلت حد أنا... أنا بس كنت هسرق أوراق آخر مشروع علشان أسلّمه لشركة منافسة، والله ما قتلت حد ولا أقدر أعمل كده أساسًا، أنا كان قصدي نخلص منهم في السوق مش من الحياة كلها.

رمش أسامة ثواني قبل أن يبتسم مشيرًا له:

- أهو يا جماعة ظلمتم الراجل، طلع غرضه شريف وعايز يسرق ويخرب بيوتهم بس.

هز الشاب رأسه بسرعة وكأنه بذلك يبرئ ساحته، لا بأس أن يُعتبر سارقًا حقيرًا، لكن قاتلًا لجريمة لم يرتكبها؟ لا وألف لا.

امتص جلال شفتيه مردّدًا بشفقة:

- يا ما في الحبس والله ...

اعترض صلاح وهو ما يزال يلوّح بالسكين الضخم في يده لدرجة أن أسامة ابتعد خطوات للخلف مبتلعًا ريقه يسمع صوته الجهوري:

- واحنا إيه يضمن لينا أنه مش كداب، ما يمكن كل ده علشان يداري على عملته.

بدأ البعض حوله يؤيده وخاصة كريم الذي كان يُكنّ حقدًا وغضبًا للحياة عامة، باحثًا عن قدر يفرغ به قهره وحسرته وخوفه، وأخيرًا وجد من يوجه له كل ذلك، وقد أضحى ياسر الخيار الأفضل له في

هذه اللحظة.

تدخل جلال وهو يقول بصوت مرتفع يرفع يده في الهواء مقترحًا:

- أنا شايف أننا نسلمه للبوليس وهو يتصرف معاه.

نظر له أسامة وقد أعجبه وللمرة الأولى قول لجلال، ليشير له بسرعة يقول ببسمة:

- صح، الولد ده بيقول كلام صح.

رفع جلال رأسه متفاخرًا، يرمقه من أعلى وأسفل وكأنه خرج لهم بحل اللغز وليس اقتراحًا متوقعًا أو ما شابه.

بدأت ملامح الاعتراض تظهر واضحة على وجوه الجميع وقبل أن ينطق أحدهم بكلمة واحدة سمعوا صوت صفير عربات الشرطة يصدح في المكان، لتعلو البلاهة أوجه الجميع وقد تحركت عينيهم بشر صوب جلال الذي تراجع يقول وقد فهم نظراتهم:

- والله أنا يا دوبك اقترحت، أكيد ملحقتش أبلّغ يا جماعة، هو الراجل اللي قاعد يعاند ويعارضكم ده، أكيد هو اللي بلغ البوليس.

ختم حديثه يشير صوب أسامة الذي عض شفتيه بغضب شديد، قبل أن تتحرك عيناه صوب عفاف وهند ليُدرك جيدًا مَن فعل هذا.

وقفة هند وهي تضم ذراعيها لصدرها وبسمتها الواسعة وهي تراقب انتشار عناصر الشرطة في المكان يسحبون ياسر ويفضون الجمع، أعلمت أسامة أنّ مثل هذا التصرف لا يخرج سوى منها هي.

هز رأسه ينتبه للجمع وقد بدأ ينفض رغم تحرك بعض الرجال خلف

سيارات الشرطة بإصرار على أخذ القصاص منه إن كان الجاني، وما هي إلا دقائق قليلة حتى خلت الساحة إلا من القليل، وقد كانوا هم من ضمن هذا القليل.

نظرات قليلة تبادلها أسامة مع فريقه تخبرهم أنّ اجتماعهم لليوم سيكون عامرًا بالكثير والكثير.

التقط الجميع تلك النظرات وتحركوا بسرعة متفرقين كلٌ يبحث عمّا سيفعل ليعود في المساء بكافة الأخبار لأسامة، عدا جلال الذي كان ما يزال واقفًا في المكان بعدم فهم بعدما فشل في فهم ما يريده أسامة:

- يعني إيه؟ يعني إيه النظرات دي أنا مفهمتش؟ أعمل إيه طيب؟

لكن كان الجميع قد انفض من حوله ليزفر جلال بحنق هامسًا وهو يخرج هاتفه الذي بدأ يصدح في المكان:

- شوية أغبيا.

وفجأة تلاشى عبوسه يبتسم بسمة واسعة وهو يتحرك متحدثًا بسعادة في الهاتف:

- اه يا توتا.

***

يُقال إن أردت التأكد من سرعة انتشار أخبارك، فامنحها لامرأة مع التأكيد على أنّها سر، وانظر بعينيك كيف تنتشر كالنار في الهشيم.

وهذا ما حدث الآن، تلك السيدة طيبة القلب عذبة اللسان التي

تزهد في الحياة ومن بها، والمسماة بفوز، كانت المصدر الأول لأخبار ومعلومات عفاف، نعم تكلفها طبق حلوى مع كل زيارة، لكن لا بأس بهذا يمكنها إضافة كل ذلك على حساب أسامة والمنظمة.

اتسعت بسمتها تراقب فوز تلقي بقطع الحلوى في فمها وهي تبتلعها دون مضغ تقريبًا:

- اللي أعرفه إنّ السبعة عامة مكانش ليهم مشاكل مباشرة مع حد في الحارة، اللهم إلا خناقات الشباب عادي.

صمتت فوز تتلذذ بقطمات الحلوى، قبل أن تتوقف فجأة تقول وقد تذكرت شيئًا ما:

- ما عدا واحد بس، أفتكر في مرة قامت خناقة شديدة أوي في الحارة بين الشباب وواحد هنا وكانت للركب لولا ستر ربنا كانوا راحوا فيها كلهم، بس كان مكتوب ليهم عمر علشان يموتوا بالشكل ده يا حبة عيني.

ختمت حديثها تمتص شفتيها بشفقة كبيرة، وقد شعرت عفاف بالفضول يملأ صدرها وهي تميل عليها مبتسمة تدعي الفضول مع لمحة من عدم الاهتمام:

- عادي يعني يا فوز يا أختي ما كل الشباب بتتخانق خناقات كبيرة، بس يعني مش هتوصل الخناقة للقتل.

نظرت لها فوز ثواني، ثم صمتت صمت مريب جعل عفاف تشعر بأنّها تُخفي شيئًا ما، وقد صدق حدسها إذ قالت فوز بصوت منخفض وكأن الجدران تلقي آذانها معهم:

- لا ما هو الخناقة دي كانت بعد الحادثة إياها.

- الحادثة إياها؟

رددت عفاف بجهل تحاول أن تستشف ما تقصده تلك السيدة من تلك الكلمات، فهي لا تتذكر أي حادثة تلك التي تتحدث عنها، وحين أبصرت فوز ملامح الجهل على وجه عفاف قالت بحنق:

- يووووه ما تركزي معايا يا أختي، الحادثة إياها يا حبيبتي بتاعة اللي ما يتسمى كريم وأخت صاحبهم.

اتسعت عيون عفاف بإدراك متأخر وقد تذكرت فجأة:

- أيوه أيوه صح، افتكرت أنك حكيتِ ليّ الموضوع ده، مش عارفة إزاي نسيته.

ابتسمت لها فوز بخبث:

- لا يا أختي متنسيش لأني حاسة إن كل حاجة كانت بدايتها اليوم الشؤم ده، من يوم ما صاحبهم طب على الشقة وقفش أخته مع كريم وحريقة قامت في الحارة، نزل ضرب في كريم وفضحه هو وأخته في الحارة، ونزله من الشقة بالـ ...

صمتت تضحك ضحكة خجلة جعلت عفاف تتشنج بصدمة، والأخرى أكملت:

- نزله يعني من الشقة بالفانلة والشورت بتوعه وفضحه في نص الحارة وخلى منظره زي الزفت قدام الكل، وقتها كريم أخد الموضوع على كرامته وكأنه ماعملش مصيبة يستحق عليها

الفضيحة فقام جاب صحابه واتجمعوا على الشاب ده ويا فين ما يوجعك.

ابتلعت قطعة حلوى تكمل بحماس شديد وقد وجدت فوز أخيرًا شخصًا يشاركها نفس الهواية، شخص يعشق الأخبار الساخنة والمصائب.

- يسكت الشاب؟ أبدًا؛ جاب صحابه وقلبوا الحارة والدنيا ولعت لولا تدخل المعلم صلاح كبير الحارة وحلوا الموضوع ولموه بأنّهم يجوزوا الاتنين ويلموا الموضوع، واللي عرفته أنّه كريم هو اللي ضحك على البنت يا حبة عيني، صحيح واطي، ورغم كل اللي يمنع جوازهم، إلا أن عملتهم خلت الكل يحط جزمة في بوقه ويوافق على الجواز.

ضيقت عفاف ما بين حاجبيها مرددة بعدم فهم:

- إيه اللي يمنع جوازهم مش فاهمة؟ ما كان يروح يتقدم ليها بدل كل ده، ليه معملش كده؟

رفعت لها فوز رأسها تجيب ببساطة:

- علشان مش على نفس الديانة، البنت مسيحية.

***

يجلس منتظرًا وصوله بفارغ الصبر، ذلك الرجل الذي كان متربصًا بالجميع متهكّمًا من الحياة، لا بد أنّه يُخفي خلف ملامحه المنقبضة التي أبصرها آخر مرة الكثير والكثير مما سينفعه في مهمته.

ولم يخِب ظنه إذ أبصره أسامة يخطو لداخل المقهى مصفقًا بكفيه في إشارة معروفة لاستدعاء الصبي الذي يعمل في المكان، مردّدًا بصوت خشن يتخلله بعض السعال:

- الشيشة ياض وهات معاها كوباية شاي.

جلس على مقعده المعتاد يخرج هاتفه يقلب فيه برتابة شديدة في انتظار وصول طلبه، لكن كان أسامة أسرع من ذلك الطلب إذ جذب مقعدًا على نفس طاولته يهمس ببسمة:

- صباح الخير يا أستاذ مينا.

رفع مينا عينيه عن الهاتف يحبتها على أسامة بجهل، لا يتذكر من هذا وكيف يعرفه:

- أيوه؟ أنا أعرفك؟

رفع أسامة حاجبه متعجبًا مستنكرًا جهل مينا لهويته، بل وسارع في قول بعض الكلمات المعاتبة وكأن مينا نسي حبيبة غالية عليه:

- أنت مش فاكرني ولا إيه؟

تشنجت ملامح مينا بحنق:

- أنا معرفكش أساسًا علشان أنساك.

ابتسم له أسامة يتجاوز عن كل هذا مردّدًا بجدية:

- أنا أسامة، جاركم الجديد هنا في المنطقة، اتكلمنا سوا من فترة لو تفتكر لما كنت بتكلم عن حوار الشباب والهيصة اللي في الحارة.

هز مينا رأسه بعدم اهتمام وهو يعود لهاتفه:

- أيوه أيوه افتكرتك، أهلا يا سيدي.

ابتلع أسامة تجاهله بغضب، لكن رغم ذلك ابتسم يقول:

- أنا شوفتك قاعد لوحدك فقولت آجي أسليك لأني أنا كمان قاعد لوحدي وزهقان شوية.

هز مينا رأسه دون اهتمام وهو منتبه لما في يده، وأسامة يود مدخل لحديثه معه يفتتح به نفس النقاش الذي أُغلق سابقًا، ولم يجد عقله غير بعض الكلمات السخيفة ليستهل بها حديثه معه:

- شوفت اللي حصل في الحارة؟

أجابه مينا بعدم اهتمام وكأنّه فاقد للشغف في الحياة بشكل عام:

- هيحصل إيه يعني هما أهل الحارة وراهم غير المشاكل والوش؟

ضيق أسامة عينيه قبل أن يلقى الكرة في ملعب الشاب:

- أصل بيقولوا أنّهم لقوا الراجل اللي بيقتل في الشباب هنا.

وأخيرًا نال ردة فعل تشي بحياة ذلك الجلمود أمامه، إذ انتفض جسد مينا انتفاضة غير محسوسة يهتف بصوت خافت وكأنّه يتحدث لنفسه:

- لقوه؟ إزاي؟

رفع أسامة حاجبه يردد الكلمة بعدم فهم:

- هو إيه اللي إزاي؟

نظر له مينا بانتباه وقد أدرك أنّه نطق كلماته بصوت مسموع:

- قصدي يعني إزاي ظهر دلوقتي وهو مش بيظهر غير كل شهرين ولا حاجة؟

كلماته غير المرتبة كانت كمصباح أحمر يُضيء داخل عقل أسامة الذي ردد بهدوء:

- معرفش، الصبح كريم دخل الحارة وهو ماسك في إيده الراجل وكان عادمه العافية.

وفجأة تلاشى الجمود والملامح المحايدة وأبصر أسامة أكثر تعابير كارهة مشمئزة حاقدة قد يبصرها على وجه إنسان يومًا يتحدث وكأنه يبصق الكلمة باشمئزاز:

- كريم؟

صمت ثوانٍ ثم ابتسم بسمة مريعة يهمس بغيظ وسخرية لاذعة وهو يحدق بأعين أسامة في برود شديد:

- يا خسارة.

ولم يفهم أسامة معنى تلك الكلمة، وما الذي يقصده بها:

- يا خسارة؟

- امممم مش بتقول لقوا المجرم؟ يا خسارة والله.

اتسعت عيني أسامة بصدمة كبيرة، هل يتحدث معه بهذه البساطة، ابتلع ريقه يحاول بلع كلماته تلك ويسجلها في عقله لحين الحاجة لها.

- مش فاهم قصدك إيه؟

تجاهل مينا كل ما يحدث حوله يهز رأسه بعدم اهتمام:

- متركزش، حوارات الحارة دي لو ركزت فيها مش هتخلص، أنت بس عيش وطنش، دي الطريقة الوحيدة اللي هتقدر تكمل بعقلك هنا.

فى تلك اللحظة وصل الصبى بطلبات مينا الذى تلقفها منه يحمل هاتفه، ثم أخرج سماعة أذنه يضعها في إشارة واضحة منه أنّه انتهى من الحديث ولا يريد سماع المزيد.

وأسامة تلقى إشارته الوقحة بهدوء وعدم اهتمام يتظاهر بأنّه يُجري مكالمة مهمة مخرجًا هاتفه، مستئذنًا بكلمات مقتضبة، يفكر فيما قال مينا ويديره داخل عقله لمعرفة ما يقصد.

***

- متقلقيش، هو هيكون بخير بإذن الله.

بكت والدة مدحت بصوت مرتفع تضرب فخذيها بحسرة وقهر وهي تحدق كل ثانية صوب باب المنزل مرددة:

- يا أنا على المشاكل اللي مش هنخلص منها، كل ما أطمن وأقول خلاص خلصنا تطلع بلوة جديدة.

ربتت هند على كتف السيدة بمؤازرة حقيقية، فقد كانت هذه نقطة ضعفها الوحيدة، دموع وقهر سيدة، تكره أن تشعر بضعف أي امرأة، أو أن ترى الحياة تميل على امرأة بكل مصائبها.

فجأة انتفض جسدها وجسد المرأة على صوت فتح الباب الذي تبعه نداء حبيب ماما وهو يردد بصوت بدا مرهقًا:

- أمّا ... أنا جـ ...

توقفت كلمات مدحت على بوابة فمه وهو يلقي المفاتيح على الطاولة أمامه يبصر تلك الجميلة تتوسط أريكته المفضلة داخل المنزل، ورغم كل ما مر به طوال هذا اليوم وما علمه إلّا أنّ كل ذلك ذاب وتلاشى أمام تلك الجميلة، كانت جميلة بشكل غريب عليه، أبصر الكثير من الفتيات في حياته، لكن هذه المرأة هنا كانت ... مميزة.

- مساء الخير.

خرجت الكلمة من فمه بنعومة وهو يتقدم صوب هند التي منحته نظرات الازدراء والحنق المعتادة تقول بصوت خافت:

- مساء النور.

نظرت صوب والدته تقول:

- طب بما أنّه المحروس ... قصدي ابنك رجع بخير يا خالتي هستأذن أنا بقى.

سارع مدحت يقول بنبرة لذجة وبسمة مستفزة:

- ليه ما تخليكِ تتعشي معانا.

تشنجت ملامح هند تهتف بغضب وغيظ منه ومن حركاته الرجولية التي يقوم بها أي ذكر لأي امرأة، تلوح بيدها موبخة

تصرفاته في مثل هذه الظروف، ففي حين أنّ والدته كادت تموت كمدًا عليه، كان هو يحاول مغازلتها:

- يا بني أنت في إيه ولا في إيه، هو ده وقته؟

اتسعت عينا مدحت بصدمة وكذلك فم والدته التي نظرت لها بعدم فهم وذهول لتستوعب هند أن فطرتها المعادية للرجال خرجت في وقت لا يجب أن تُخرجها فيه، فتراجعت تقول بنبرة خافتة مبتسمة بسمة صغيرة:

- قصدي يعني أنّه ده مش وقته أكيد عزومات وغيره، والدتك كانت خايفة عليك و... يعني أكيد عايزة تطمن.

ختمت حديثها تحدق في وجه والدته بحنان تقول:

- هاجي أطمن عليكِ بكرة ونتفق على مواعيد الدرس، عن إذنكم.

تحركت بسرعة خارج المكان وقد اكتفت من كل شيء تتمتم بحنق وهي تُغلق الباب خلفها بقوة انتفض لها جسد مدحت:

- ناقصة أنا، مش كفاية عليّ جلال وأسامة في حياتي علشان أتعامل مع رجالة تانيين؟

نظر مدحت للباب بصدمة وعدم فهم:

- أنا عملت حاجة غلط؟

ابتسمت والدته تقول بإعجاب واضح:

- يا حبيبتي البنت اتكسفت أكيد، طب والله يا واد يا مدحت طول ما أنت برة وهي جنبي ومرضتش تسيبني لوحدي، ربنا يجعلها

من نصيبك شكلها هادية ومحترمة وهتشيلك في عينها أنا قلبي حاسس.

تحركت بسرعة بعد كلماتها صوب المطبخ تقول:

- هروح أجهز ليك الأكل علشان تقعد تحكي لي اللي حصل.

رمش مدحت بعدم فهم مردّدًا:

- تشيلني في عينها؟ دي اللي يشوف تعاملها معايا يقول إنّها عايزة تشيلني من الدنيا كلها.

***

يجلس في محل الجزارة الخاص به وأمامه سلطان الذي كان يحاول تجاوز ما حدث منذ ثوانٍ، لهفته حين سمع أنّهم عثروا على قاتل أبنائهم جعلته يهرع دون تفكير وخلفه صلاح الذي حمل سكينه لينتزع حياة ذلك الذي نزعه حياته وحياة بِكره.

- اشرب الشاي يا سلطان ووحد الله.

نظر له سلطان بأعين غائمة وضباب الذكريات يغطي المشهد أمامه، فكان لا يبصر صلاح أو أحد، بل كان يرى أحد المشاهد الخاصة بولده العزيز، طفله الذي عاش حياته كلها لأجله، تخلى عن كل شيء لأجله، مشهد جثته التي وجدها تطوف على سطح البحر ما يزال يُعرض أمام عينيه وكأنّه كان بالأمس.

يركض بين الطرقات برعب وقلب ينتفض بجنون شاعرًا بأنه على وشك التوقف، يركض غير آبهًا لشيء حوله.

توقف على أعتاب مجرى المياه وهو يراقب بأعين شاخصة جسدًا يطوف على السطح، يعرفه جيدًا وكيف لا يفعل وهو مَن عكف على رعايته منذ كان نطفة حمراء.

شعر الرجل بأقدامه ترتجف وسقط أرضًا بعنف على ركبتيه، يتنفس بصوت مرتفع يضع يديه على صدره وقد تمسك بكل يأس في فكرة أنّه ربما يكون آخر، ربما ...

ثوانٍ حتى تجمع الجميع حوله وتعالت الهمسات، لكن ما وصل له من كل هذا سوى صوت الشهقات التي طعنته وصوت الجميع حوله يهمس بشفقة:

- ده أحمد ابن الحاج سلطان.

ظل يراقب ما يحدث بأعين شاخصة ووجه شاحب حتى وصلت الجثة أمامه يراقب وجهه الشاحب وذلك الجرح الكبير في معدته وآخر في رقبته الذي ينبئ عن ذبحٍ لا يدري ما فدى ابنه به، وذلك الشال الأبيض يلتف حول وجهه بقوة وكأنه يمنع عنه الهواء، ليس وكأنه سيتنفس أسفل المياه مذبوحًا.

مدّ صلاح أصابعه مرتعشًا وهو يتلمس وجهه هامسًا:

- أحمد، مالك يا بابا، شكلك ... شكلك ... شكلك تعبان، مش قلت لي مش هتتأخر؟

ظل الجميع حوله يرمقه بشفقة كبيرة وقد تجمعوا بصدمة كبيرة يحدقون فيما يحصل، ولم يفق سلطان سوى على صوت صراخ أصدقاء أحمد الذين انهاروا أرضًا باكيين بصدمة رحيل رفيقهم،

ولم يعلموا أنّ رحيل أحمد لم يكن سوى بداية، بداية سلسلة موتهم واحدًا تلو الآخر.

- مالك يا سلطان بس وخد الله.

انتفض سلطان من ذكرياته على صوت صلاح ليتنهد بصوت مرتفع وهو يمسح دموعه التي فرت منه دون شعور:

- مفيش بس افتكرت أحمد.

تغضنت ملامح صلاح بالحزن يتذكر بكره:

- ربنا يرحمه ويرحمهم جميعًا.

أمّن خلفه سلطان وهو يعتدل في جلسته يمسك كوب المشروب الذي برد يرتشفه دون اهتمام، يحاول التحدث بكلمات يبتعد بها عن هذا الحوار الذي يعيد له ذكريات مؤلمة.

لكن صوت الموسيقى الصاخبة الذي انطلق من أمام الجزارة والذي أصابهم بالصمم جعل ملامح صلاح تنكمش بانزعاج وهو يراقب تلك العربة التي تتحرك في المكان تعيث به الفساد بهذه الأغاني المريبة الصاخبة.

أغاني أجنبية صاخبة سريعة الإيقاع فيما يسمى بالراب، كان ذلك النوع هو الذي يهواه جلال، رغم عدم فهمه له إلّا أنه فقط يسمعه من باب "الروشنة".

أخذ يحرك شفاهه في طلاسم غير مفهومة مدعيًا الغناء مع ذلك الرجل الذي يصدح صوته من تسجيل العربة "التوكتوك".

ثواني وتوقف أمام الجزارة بكل قوة صانعًا سحابة من الغبار حول الجميع، ثم هبط من عربته متبعًا سياسته المعروفة في كل دخول له.

مشية بطيئة -يظنها مهيبة- نظراته الساحرة -حسب اعتقاده- بسمته الجانبية التي تجعله صعب المنال، نظارته البلاستيكية البيضاء -التي تجعله أحمقًا- كل تلك مقومات صنعت من جلال رجلًا مُريبًا، غريبًا، يحلق في عالمه الموازي، حيث يتزعم العالم ويطيح بقلوب الفتيات.

نزع النظارة عن عينيه يسحب مقعدًا مقتحمًا جلسة العجائز بعدما أوكل له أسامة مهمة الاختلاط بهم:

- الكلام على إيه يا كبار السن؟

نظر سلطان لصلاح الذي تشنجت ملامحه وهو يراقب ذلك العرض الغريب، قبل أن ينطق بضيق:

- هو الواد ده عبيط؟

- والله قلت كده من أول مرة شوفته.

تجاهل جلال كل تلك الكلمات التي لا طائل منها في نظره، ثم قال بجدية وهو يحدق في المحل حوله:

- بكام كيلو اللحمة دلوقتي يا معلم؟

ابتسم صلاح بسخرية يردد:

- ليه، هتشتري؟

- لا بسأل وبعدين هشور الأسرة ونشوف كده ناخد الخطوة دي ولا نستنى شوية.

كان واضحًا على ملامح جلال السخرية، وقد أعجبته هذه اللعبة، أن يكون هو اليد العليا والشخص الذي يسخر وليس مَن يُسخر منه.

مال عليهم جلال يبدأ عمله متبعًا تعليمات أسامة له بالحرص والحذر والسرية التامة:

- ألا قل لي يا حاج، تفتكر مين اللي قتل ابنك؟

اتسعت عيون سلطان بقوة متعجّبًا من جرأة الشاب في طرح سؤال لا يعينه، تشنجت ملامحه مردّدًا:

- أنت شغال مع البوليس ولا إيه؟

عاد جلال للخلف بصدمة وهو يحرك نظراته بين صلاح وسلطان مصدومًا من كشفهم له بهذه السهولة مردّدًا في نفسه:

- مكانش لازم ادخل الدخلة الجامدة دي، كان لازم أقلل مستوى الهيبة شوية.

رفع عيناه للرجلين وهو يفكر في طريقة للهرب بها من حصارهم، يريد إبعاد الشكوك عنه ظنًا أنّهم يشكون به صدقًا وليس سخرية.

ضحك صلاح ينفث بعض دخانه في الهواء:

- يا راجل قول كلام غير ده، بوليس إيه بس الدنيا لسه بخير يا عم مش للدرجة دي.

رفع له جلال عينيه بحنق شديد، ليهز سلطان رأسه بعدم اهتمام،

لكن جلال أبى الصمت وتمرير سخريتهم منه بهذه السهولة مردّدًا:

- أنا بس اللي مش مهتم بشغلهم، لعلمك أنا لو كنت ظابط مكانش ده حالكم وكان زمان قضيتكم انحلت ولقيت القاتل في ثواني.

صمت يمتص شفتيه بحنق متذكرًا مكانته داخل الفريق:

- لكن نقول إيه، هما كده مش بيعينوا غير اللي مبيفهموش.

وكان المقصود من حديثه واحد لا غير؛ أسامة بالطبع.

نظر له سلطان يشرب مشروبه البارد مرددًا بسخرية:

- يعني كل الظباط اللي مسكوا القضية دي مقدروش يلاقوا القاتل وأنت اللي هتلاقيه؟

- يوضع سره يا حاج.

ابتسم له سلطان بسخرية، بينما ردد صلاح بسخرية أكبر:

- سيبه يا سلطان مش بيقولك بتيجي مع الهبل ذبل؟

رماه جلال بنظرة حنق وغيظ، لكن صلاح لم يهتم وهو يردد:

- عامة محدش عارف يحل القضية علشان مفيش أي دافع ليها، مفيش حد ليه غرض أنّه يعمل كده في عيالنا.

رمقه سلطان بنظرة غامضة، قبل أن يردد بصوت خافت:

- عيالنا مكانوش ملائكة أوي كده يا صلاح، متنساش أنّ مفيش حد ملوش أعداء، ولو ملوش أعداء الحقد بيعمل أعداء.

أنصت لهم جلال يتعجب تحدثهم بحرية على مسامعه، هل هذا

نابع من ثقتهم في غبائه مثلًا، أو عدم اهتمام لجلوسه، أو ربما هذا الحديث عادي يعلمه الجميع لذا لا ضير من التحدث به أمامه.

فتح فمه للتحدث لولا كلمات صلاح المتسائلة والذي بدى أنه غفل عن شيء ما:

- قصدك مين يا سلطان مش فاهم؟

همس سلطان بعيون شاردة وهو يحمل كوبه ينظر أمامه مردّدًا بكلمات مبهمة واسم واضح وصريح:

- مينا.

***

الفصل الخامس

(بداية الخيط "شبشب")

هذه هي الحياة، إما أن تضنّ عليك بكل شيء وتحرمك مآربك، أو أن تكون من الكرم وتفيض عليك بما تريده، بل ويزيد حتى تشعر بالحيرة في أمرك.

وهذه كانت حالتهم، فبعدما عجزوا عن الوصول لأي خيط في هذه المهمة، الآن يمتلكون العديد من الخيوط والتي يبدو أنها تشابكت بشكل مريع لتحدث الفوضى في عقول عامرة بالفعل بالكثير منها.

- مينا؟

كانت تلك كلمة أسامة الشارد وهو يستمع لصوت وكلمات جلال الذي كان يلقي كل ما يطاله من طعام عفاف داخل فمه:

- أيوه، عم سلطان كان بيتكلم أنّه مينا مش بيطيق عيالهم.

ضيق أسامة عينيه يحاول الوصول للسبب وقد صرّح بالسؤال لهم عسى أن يجد إجابته لديهم:

- ده صحيح فعلًا، مينا كل ما تجيب ليه سيرة واحدة منهم يفضل يبرطم بكلام كتير قد يظهر أنّه عادي وطبيعي وتهكمي، لكنّه بيخفي وراه حقد مرعب، يا ترى اشمعنا مينا؟

- علشان أخته.

تحركت جميع الأنظار صوب عفاف التي قالت بجدية وهي تعيد

كلمات فوز في عقلها بانتباه شديد كي لا تغفل عن كلمة واحدة:

- من فترة، اللي اسمه كريم ده اتقفش مع أخت صاحبه، وحصلت كارثة وقتها اتسببت في خناقة كبيرة بينه وبين صاحبه، وفي الآخر جمع كريم الشلة بتاعته وعملوا مشكلة كبيرة مع صاحبه انتهت بمعجزة بسبب تدخل الناس، ولموا الموضوع وخطبوا البنت لكريم.

لمعت عيون أسامة باهتمام وحماس شديد وقد بدأ جسد هند يتحفز بكل كلمة وهي تبتسم بسمة غامضة وقد بدأت العقدة تنحل في عقلها، وما بين كل تلك النظرات وكل تلك الكلمات انبعق صوت جلال يثقب فقاعة الغموض والتشويق بإبرة غبائه مرددًا:

- أيوه ده إيه علاقته بمينا؟

استدارت جميع الرؤوس صوبه بحنق ليشعر أنّه نطق بشيء خاطئ:

- إيه؟ بتبصوا كده ليه؟

مال أسامة يستند على ركبتيه بيديه مرددًا:

- قل لي يا جلال، مين اللي الله يسامحه اللي اقترح عليك تتخصص في التحقيق، ودخلت إزاي أساسًا؟

نظر لهم جلال بعدم فهم، يدور بنظراته بينهم قبل أن يردد بجدية:

- عم بركات بتاع الفطير.

حرك أسامة إصبعه على الجميع في المكان مرددًا بغضب:

- ذنب كل اللي قاعدين هنا في رقبة عمك بركات بتاع الفطير،

والله سأقتص منه يوم القيامة.

- إيه اللي حصل علشان كل ده؟ مكانش سؤال يعني، كل اللي عايز أعرفه هو إيه علاقة مينا بالـ ...

فجأة توقف عن الحديث وقد شعر فجأة بالإدراك يصفعه بقوة، رمش وهو يحدق في الجميع بتردد، يرى بسمة أسامة تتسع وكأنّه علم أنّ جلال وأخيرًا وصل لبر الأمان، بعدما عبر بحيرة الجهل صوب شاطئ الإدراك.

- مينا أخو خطيبة كريم؟

كانت جملة تقريرية أكثر منها تساؤل، فأبصر بسمة أسامة وهو يهز له رأسه بنعم، ليبتلع جلال ريقه مرددًا بجدية يحاول تخطي ما حدث منذ ثواني:

- هو أنا.. عادي.. قَلّ مَن لا يسهو.

تشنجت ملامح عفاف تردد بسخرية لاذعة:

- قَلّ؟ يا جلال أنت محشور في السهو.

استدار لها أسامة نصف استدارة يرمقها لتصمت، ثم تنهد بصوت مرتفع يرفع كفيه في الهواء أمامهم يهتف بجدية كي يتجاوز كل ذلك.

- خلينا نجمع سوا كل اللي وصلنا ليه علشان نعرف اللي جاي.

صمت ثواني، ثم بدأ يعدد له كل شيء:

- أولًا مينا وأخته وعلاقتهم الغريبة بالسبعة، ثانيًا الدليل اللي

لقيته على حرف الترعة وقت انتشال جثة سمير، الشال اللي دايما بيكون ملفوف حوالين رقبة الضحية.

حاول تجميع باقي الخيوط في عقله، وحين فعل فتح فمه للحديث لولا كلمات جلال الذي ردد بدون اهتمام وكأنه يضيف بعض الأصناف على طلبية طعام أو ما شابه:

- وخيري كمان.

تحركت جميع الرؤوس ببطء ومازال أسامة يرفع إصبعه في الهواء والذي كان يستخدمه للعد، رمش ببلاهة يردد وقد تحفز جسده بالكلام:

- خيري مين؟

لوح جلال بيده وهو يتناول بعض الطعام يقول من بين مضغاته:

- ده شريك السبعة في مشروع كده، كان الحاج سلطان والمعلم صلاح بيتكلموا عليه كتير.

ابتسم أسامة بسمة واسعة وهو ينتقل من الأريكة الخاصة به ليجاور جلال يمسك كوب العصير يقدمه له مرتبًا على كتفه، وقد بدأ في لعب دور مربية جلال التي تعتني به.

يبتسم له باهتمام:

- وأنت بقى يا جلال عرفت عن خيري ده منين يا غالي؟ وعرفت إيه بالضبط؟

رفع جلال عينيه يردد بجدية بعدما ابتلع ما بفمه، ثم فرك كفيه

ينفض ما بهما من بقايا طعام، يضع قدمه على الأخرى لا يفوت تلك اللحظات والتي تأتي مرة واحدة كل مهمة:

- اللي فهمته إنّ الموضوع مكانش عادي، لأن الشباب من وقت الشراكة مع الراجل ده وكان فيهم حاجة مش مظبوطة، علشان كده هما شاكين فيه يكون ليه يد في الموضوع.

ازدادت بسمة أسامة غموضًا بشكل مريب حتى شعر جلال بالريبة ليتحرك بعيدًا عنه لآخر الأريكة، واستدار أسامة بسرعة صوب هند:

- هند، إيه رأيك في الكلام ده؟

نظرت له هند بعدم فهم لثواني قبل أن تدرك ما يقصد من نظراته فابتسمت تقول:

- اعتبره حصل يا عو.

تدخلت عفاف وأخيرًا تردد وهي تلوح بيدها في الهواء:

- لا معلش، هو إيه اللي اعتبره حصل يا عو؟ أنتم بتقولوا إيه؟ هو إحنا مش معاكم في المهمة دي ولا إيه؟

كانت تتحدث وهي تحرك إصبعها بينها وبين جلال الذي هو رأسه يدعم حزب الأغبياء في هذا الفريق:

- أيوه صح، من حقنا نعرف.

ابتسم أسامة لعفاف بلطف:

- هقولك بعدين يا فوفا.

وفورًا أعلنت عفاف الخضوع وهي تبتسم بكل بساطة مرددة بهدوء:

- ماشي.

اعترض جلال والذي ما يزال يحمل راية جهاد الأغبياء في المكان:

- لا ماشي إيه؟ طب هي وهتفهمها، أنا مين يفهمني؟ هو إحنا مش فريق واحد ولا إيه بالضبط؟ ولا هو كوسة؟

زفر أسامة يوضح بهدوء وهو يرفع كفه ليصمته:

- طيب بكل هدوء كده، هند هتتولى مراقبة مدحت علشان تجيب قرار خيري ده، عفاف هتفضل لازقة لفوز علشان نعرف كل الأخبار، جلال أنت متفارقش صلاح وسلطان، وأنا هقرب من مينا.

تنهد بصوت مرتفع يقول بإقرار:

- حتى الآن كل اللي نملكه مجرد تكهنات بدون أدلة دامغة، ومهمتنا هنا نلاقي الأدلة دي ونسلم المجرم للعدالة.

نظر الجميع صوب أسامة دون ردة فعل، وهو في الحقيقة ما كان ينتظر أي ردة فعل من أحد، يكمل بهدوء:

- شكي بخصوص المجرم بأنّه من الحارة لسه مش قابل يخرج من عقلي، علشان كده هنركز على اللي في الحارة أكتر.

اعترض جلال بقوة على الأمر:

- كل ده علشان فردة الشبشب اللي لقيتها جنب الترعة؟

نظر له أسامة يردد بجدية:

- وهي دي دليل يُستهان به؟ أكيد المجرم هو اللي وقعها هناك، أو على الأقل تدل لينا على أي خيط يوصلنا ليه.

- واشمعنا الدليل ده مخليك بتشك في أهل الحارة؟ ما يمكن يكون تبع حد من برة وهو اللي عمل كده، أي شريك ليهم أو راجل أعمال منافس مثلًا؟

ابتسم أسامة ينهض عن مقعده يدور في المنتصف بينهم وهو يفكر بصوت مرتفع يحرك شفتيه لأعلى وأسفل ويديه تساعده في رسم ذلك المشهد الذي يتخيله:

- تخيل معايا أنّك القاتل.

اتسعت عيون جلال بقوة يرفض ذلك المسمى ولو من باب الخيال حتى، هو جلال أحد أمهر المحققين والقائد المنتظر لفريق الأغبياء خاصته، ويصفه العو بالمجرم؟ هل دارت الدنيا أم ماذا؟

ورغم كل الرفض الذي ظهر على عيون جلال لم يهتم له أسامة، وهو يكمل القصة في عقله:

- تخيل معايا كده يا جلال أنك القاتل، وهنفترض أنّك يا سيدي من برة الحارة والمجتمع ده، رجل أعمال أو منافس ليهم مثلًا، صحيت الصبح قمت من على السرير بتاعك في الميعاد الشهري اللي بتخلص فيه على واحد منهم، لبست لبسك وجهزت عدتك وخلاص هتخرج علشان تشوف رزقك وتدبح اللي يقابلك منهم.

صمت ثم نظر له أسامة يردد بغموض:

- إيه آخر حاجة بتعملها قبل ما تخرج من البيت؟

- بقول دعاء الخروج من المنزل؟

ربت أسامة على كتفه بسخرية:

- دعاء الخروج ده لما تكون خارج تمتحن ثانوية عامة يا جلال، بلاش هبل ده واحد بيقتل الناس، أكيد مش هيسمي عليهم.

تحدثت عفاف وقد التقطت ببراعة ما يرنو إليه:

- ألبس الجزمة؟

استدار لها أسامة بلهفة مردّدًا ببسمة واسعة وعين لامعة:

- تعجبني فيكِ دماغك يا فوفا.

اتسعت بسمة عفاف وقد نالت مكافأتها منه ثناءً، تخفض نظرها أرضًا بخجل وهو ما يزال يرمقها بلطف، تشنجت ملامح هند بحنق:

- والله الراجل ناقصه كوباية مايه علشان يبلع الحلاوة اللي كل بيها عقلك، يا منبطحة.

حملقت عفاف بهند في عدم فهم، تشعر أنّها تود قول شيء هي لا تفهمه، ومنذ متى كانت تفهم شيء تتحدث به هند؟ لذا أجابتها نفس الإجابة المعتادة منها على كلماتها، هزة رأس، وبسمة متفهمة، وأخيرًا كلمة تأييد معتادة:

- عندك حق.

عضت هند شفتيها بغيظ شديد، تبعد عينيها عن عفاف تعطي كامل

انتباهها لأسامة الذي شرع يكمل تمثيليته:

- المهم وأنا طالع أقتل واحد وقفت قدام الجِزم، وباعتبار إنّي راجل منافس للشباب وغني، أكيد مش همسك شبشب بلاستيك ألبسه وأخرج، إيه اللي يخليني أعمل كده؟ وإيه اللي يخلي راجل أعمال يحتفظ بشبشب بلاستيك أصلًا.

حدق به الثلاثة وقد بدا هذا التفسير المريب والمضحك مقنعًا، هو محق، هذا النعل المُدمى جوار مجرى المياه والذي التقط له أسامة صورة لا يُعقل أنْ يكون تابعًا لرجل أعمال منافس أو ما شابه، خاصة أنّه كان شبه بالٍ.

- مش يمكن الشبشب ده يكون بتاع قاتل مأجور من رجال الأعمال دول؟ أصل بنفس المنطق بتاعك يا عو إيه اللي يخلي راجل أعمال يطلع يخلص الأمور دي بنفسه؟ ما يدفع لغيره؟

كان هذا تحليل هند والتي شعرت بالريبة في هذا الأمر، ليهز أسامة رأسه بهدوء لا ينفي هذا الاحتمال:

- ده احتمال، وهنمشي وراه، إحنا هنمشي ورا أي احتمال أو دليل ممكن أنّه يوصلنا للجاني، دلوقتي إحنا يعتبر قطعنا نص المسافة.

اعترض جلال بسخرية:

- نص مسافة إيه يا عو؟ ده إحنا لسه غارزين في أول الطريق.

- عندك حق، بس خلينا نقنع نفسنا أننا قطعنا شوط طويل، من باب الدعم النفسي والنفاق.

تنهد بصوت مرتفع يتحرك ليجلس جوار عفاف بعدما انتهى من تمثيله وتعليماته يقول بصوت شبه هادئ:

- بكرة في نفس الوقت زي دلوقتي عايز أخبار من كل واحد فيكم، أخبار مهمة تساعدنا نخلص المهمة، اتفقنا؟

وكالعادة كان الرد صمت طويل جعله يضيف ببسمة:

- توكلنا على الله.

***

في الصباح خرجت من منزلها بعدما انتهت من صراعها النفسي لتبدأ مهمتها، طرقت الباب تنتظر ردًا سرعان ما وصل لها حين سمعت صوت والدته:

- أيوه جاية.

فتحت السيدة باب المنزل لتتسع بسمتها بشكل غريب تردد:

- أبلة هند؟

- إزيك يا أم مدحت، معلش لو كنت جيت من غير ميعاد، بس أصل الدراسة هتبدأ أنتِ عارفة وكنت عايزة أظبط المواعيد قبلها وأخلص الأمور.

حذبتها السيدة بخشونة غير مقصودة للداخل مرددة بسعادة وصوت مرتفع تقصدت أن يصل لذلك المنعزل بالداخل تحاول جذب انتباهه:

- البيت بيتك يا هند يا بنتي اتفضلي أنا لسه كنت بجهز الفطار.

ابتسمت لها هند بلطف وما كادت ترفض بأدب حتى أبصرت مدحت يطل عليهم بسرعة بملامح مبعثرة بسبب النوم وأعين ناعسة وخصلات هائجة يحدق فيها ببسمة واسعة جعلت هند ترفع لها حاجبها.

ابتسمت السيدة تحاول منح ولدها الفرصة علّه يطوّع قلب تلك الجميلة الرقيقة:

- طب هدخل أجيب الأكل وجاية بسرعة.

ولم تمهل هند الفرصة وهي تركض ظنًا أنّها تركت الفتاة فريسة بين مخالب ولدها لينال منها نظرة أو كلمة، لكن ما لم تدركه تلك المسكينة أنّها تركت ولدها فريسة بين مخالب هند.

اتسعت بسمة هند الخبيثة بشكل جعل مدحت يتعجب، تحركت صوب الأريكة وهي تجلس عليها بهدوء مشيرة له:

- اتفضل يا باشمهندس، هتفضل واقف كتير؟ ده حتى البيت بيتك يعني.

تعجب مدحت من التحول الذي أصاب هند في ثواني، ورغم ذلك عز عليه أن يرفض طلبها فتحرك ليجاورها تاركًا مسافة مناسبة بينهما.

- قل لي بقى، أنت كويس؟

رفع مدحت عينيه لها بعدم فهم وصدمة:

- ها؟

ضحكت له ضحكة صغيرة وهي تقول:

- اللي حصل معاكم امبارح مكانش شوية، جيت أطمن إنّ والدتك بخير والأمور تمام.

هز رأسه دون كلمة وما تزال الصدمة تحتل جزءًا لا يُستهان به من تعابيره:

- الحمد لله، شكرًا على سؤالك.

- العفو على إيه.

صمتت ثم قالت بفضول تدعيه وعن جدارة:

- عرفت من والدتك أنّك مهندس مش كده؟

ابتسم مدحت يهز رأسه بنعم دون كلمة، لتزفر هند بحنق كارهة أن تكون هي الطرف الأكثر حماسًا في هذه الجلسة:

- مهندس إيه بقى؟

وأخيرًا تكرّم الرجل وأجابها ببسمة واسعة:

- كهربا.

- كهربا؟ شيء جميل، تعرف إن ابن عمي برضو مهندس كهربا وشغال في شركة كبيرة أوي برضو.

هز رأسه لها دون كلمة، لتشعر هي بالغضب يندفع داخلها، لكن رغم ذلك هدأت، تبتكر قصة تكون لها مدخلًا:

- أنا طول حياتي كنت بتمنى أبقى دكتورة وهو كان دايما يقول

هبقى مهندس، شوف الدنيا لفت وبقيت مدرسة وهو مهندس في شركة هندسة كبيرة، شركة خيري للعقارات لو تسمع عنها.

تغيّرت تعابير وملامح مدحت التغيّر الذي ارتقبته هند بنفاذ صبر، وقد شعرت بالحماس يندفع بين أوردتها تراقبه بدقة تنتظر أنْ يظهر أي ردة فعل قد تتخذها طرفًا للخيط، لكن كل ذلك تلاشى حين عادت ملامحه لتكون طبيعية يردد بهدوء وبسمة محايدة:

- أيوه خيري باشا يبقى شريك لينا في مشروع جديد.

ادعت هند صدمة مصطنعة وانبهار شديد:

- إيه ده بجد؟ شريك ليكم؟ ده على كده بقى أنتم كبار في المجال ده؟

ضحك مدحت ضحكة قصيرة بدت لها مريرة ساخرة:

- مش أوي كده، الموضوع كله حظ و... لوي دراع.

رمشت هند بتعجب من تلك الكلمة التي كانت لتمر مرور الكرام على الجميع عداها خاصة أنّه نطقها بصوت شبه هامس شارد:

- لوي دراع؟ مش فاهمة؟

ضُدم مدحت لسماعها همسه، ليتدارك خطأه سريعًا ممازحًا بغرور مصطنع:

- لا أنا بهزر عادي، بعدين يعني عادي، إحنا برضو مش قليلين في السوق على فكرة، إحنا فتحنا الشركة من فترة قليلة ورغم كده عملنا نجاحات كتير أوي.

مسحت هند وجهها بسأم:

- بدأنا ندخل في منطقة الغرور الذكوري العفن.

- إيه؟

- بقول ما شاء الله، شكلكم شاطرين جدًا في مجالكم.

ابتسم مدحت بشجن يحاول الخروج من تلك الحالة وألّا ينغرس بها مرة أخرى خاصة بعدما قضى ليلته البارحة يطفو في بحيرة ذكرياته بين جثث أصدقائه:

- كنا.. دلوقتي مبقاش تلات أرباعنا موجود، وحتى الربع الأخير مبقاش قادر يرجع زي الأول.

ضحك يردف بمزاح يحاول أن يكسر به حالته تلك:

- تقوليش ذنب وبنخلصه كلنا؟

وإن أراد أن يصرف انتباه هند عن حزنه بكلمات عادية وإن بدت سخيفة بعض الشيء، فقد نجح، لكنه صرف انتباهها لشيء آخر بعيد، مدحت يدرك ما يحدث ويعلم سبب ما أصابهم.

"ذنب" بكل بساطة ما يحدث مع الجميع هو ذنب كما قال مدحت، لكن أي ذنب هذا الذي قد يطالبهم بدفع حياتهم كفارة له؟

***

- بلطجة وصياعة وقلة أدب على اللي رايح واللي جاي، محدش كان بيسلم من السبعة ومن أذاهم.

ختمت فوز كلماتها تهمس بصوت مغتاظ:

- بالذات اللي اسمه كريم ومعاه محمد وسالم، التلاتة دول كان اللي بيقع في إيديهم مش بيخرج سليم، يلا ربنا يسهلهم نصهم بقى بين إيد ربنا دلوقتي ولا تجوز عليهم غير الرحمة.

رفعت عفاف حاجبها تدفع بطبق الحلوى المعتاد صوب فوز مرددة بجدية:

- ومحدش كان بيوقفهم؟

- مين يقدر عليهم؟ دول أهلهم ماسكين الحارة باللي فيها، عندك أشرف لوحده ابن الحاج صلاح الجزار من أكبر عائلات المنطقة كلها، وكريم أبوه تاجر خردة كبير، وسالم أبوه عنده أكبر سوق خضار هنا، أي نعم فيهم شوية زينا على الله بس أغلبهم من كبارات المكان.

صمتت ثم أكملت بجدية:

- بعدين كانوا بيقولوا طيش شباب والكل بيعمل كده عادي، لغاية مشكلة كريم والبنت تحسيهم ما صدقوا أخيرًا واتجمعوا عليهم وكان حوار ما يتحكى، المهم سيبك منهم وقوليلي بتعملي الكيكة الحلوة دي إزاي؟

أفاقت عفاف من شرودها تمنح كامل تركيزها صوب فوز تحاول إنهاء الحوار معها في الطعام والعودة بالحديث صوب السبعة، حتى انتهت جلستها اليومية وحملت الطبق الفارغ تتحرك للخارج مودعة تحمل في جعلتها الكثير مما قد يثير اهتمام فريقها.

لكن وقبل التحرك خطوة اصطدمت في جسد جعلها تتراجع

وبسرعة للخلف ترفع عينيها صوب القادم لتشعر بالصدمة وهي تعتذر:

- أنا آسفة مخدتش بالي.

ابتسم كريم بسمة جانبية وهو يمر بنظراته عليها من أعلى لأسفل مردّدًا بكلمات معسولة:

- ولا يهمك، أنا اللي مكنتش مركز.

طريقته في الحديث ونبرته كانت هادئة بشكل مثير للاهتمام، مما جعل عفاف ترفع عينيها بعفوية تحدق في ملامحه، شاب وسيم يمتلك بعض الملامح الغربية والتي تمثلت في عينيه الزرقاء وخصلاته البنية، لا عجب أنّ الفتاة سقطت في عشقه دون مقاومة.

وكريم ذلك الطاووس المتغطرس خيّل له غروره أنّ المرأة القصيرة صاحبة الملامح العادية أمامه سقطت -كما غيرها- في فخاخ نظراته.

ابتسم يقول:

- أول مرة أشوفك هنا، أنتِ قريبة الست فوز؟

انتبهت عفاف من شرودها على كلماته لتجيب دون اهتمام:

- لا أنا ساكنة جديد هنا في الحارة.

ضيق كريم عينيه بشكل مريب جعلها تشعر بذبذبات خطر تمر عبر جسدها بأكمله وهو يردد:

- ساكنة في حارتنا وأول مرة أشوفك؟ غريبة؟

- وليه غريبة؟ هو لازم اللي يسكن هنا ياخد إذنك ولا إيه؟

ابتسم لها يعجبه نبرتها الجادة والحادة والتي يسمعها لأول مرة من فتاة:

- لا بس علشان مينفعش يكون فيه حد بالجمال ده هنا وملاحظش.

احمرت ملامح عفاف بشكل واضح ظنّه خجلًا، لكنه كان غضبًا وحنقًا وهي تتحرك بعيدًا بخطوات مهرولة:

- عن إذنك.

رحلت بسرعة تحت نظرات كريم المستمتعة يطلق صفيرًا وهو يتحرك صوب باب منزله، بينما عفاف خرجت من البناية بملامح غير مُفسرة تركض صوب المنزل لتهدأ من غضبها بشكل أثار انتباه جلال الذي كان يجلس أمام أحد المحلات في المكان.

- مالها دي؟

- ها يا جلال هتشتري المرة دي لحمة ولا زي كل مرة؟

ابتسم جلال يستدير صوب صلاح مرددًا:

- ده سؤال يا حاج، أنا أساسًا مش بحب اللحوم أصل أنا نباتي، أنا بس باجي أتونس بقعدتك أنت والحاج سلطان لاحسن الواحد من كتر اللف طول النهار بيفرهد.

تشنجت ملامح سلطان بسخرية يرتشف من كوبه الساخن أمامه:

- فرهدة إيه؟ ده أنت طول النهار راكن التوكتوك وقاعد معانا

ومش بتركبه غير وأنت مروح، هي يا ابني فلوس التوكتوك دي حرام؟

لوح جلال بعدم اهتمام في الحقيقة، ثم قال بهدوء ينتزع الكوب الذي أحضره له سلطان:

- يا حاج أنا أساسًا مكاني مش في توكتوك أنا مكاني في حتة تانية، تعرف إنّي أساسًا كنت خريج هندسة وكنت هشتغل مهندس؟

رفع صلاح رأسه يسخر بنبرة موجوعة:

- وهما اللي اشتغلوا مهندسين عملوا إيه يعني؟ أهو كله تحت التراب.

نظر له جلال ثواني قبل أن يقول دون أي انتباه لشجن صلاح أو حزنه:

- إيه الفال ده يا حاج، ربنا يديني طولة العمر، بعدين أساسًا أنا مش مهتم بالحوارات بتاعة المهندسين والشركات والبدل دي، أصل لو اشتغلت مهندس هضطر أنجح ولما أنجح هيكون ليا أعداء كتير وممكن يخلصوا عليّ.

رمقه سلطان بسخرية لاذعة وهو يردد:

- إذا كان مش عارف تبقى سواق توكتوك ناجح؛ هتعرف تبقى مهندس ناجح؟

- بمزاجي يا حاج سلطان، أنا بعمل اللي عايزه بمزاجي، وبعدين أنا أساسًا بركب التوكتوك ده من باب تقضية الوقت لكن أكيد مش دي

شغلانتي الحقيقية.

وقبل أن يشرع جلال يصف لهم وظيفته الوهمية العظيمة التي تمنحه مكانة عالية فوق الجميع، سمعوا صوت الأذان لينهض صلاح يجذبه معهم:

- يلا يا ابني علشان نصلي الضهر، قوم معايا.

نظر لهم جلال بحيرة قبل أن يتبعهم دون كلمة، وصلوا لمسجد المنطقة ليتنفس جلال براحة شديد يتحرك صوب المرحاض الخاص بالمسجد ليتوضأروخلفه سلطان الذي ابتسم يقول:

- نظرتي فيك مخيبتش، أي نعم فاشل في كل حاجة، بس شكلك طيب وابن حلال.

ابتسم له جلال ينزع حذائه، ثم ارتدى النعل البلاستيكي الموضوع أمام المرحاض ليستعمله الجميع، يردد بفخر:

- طول عمري شكلي ابن حلال.

تحرك صوب الصنبور وهو يشمر أكمامه، وحوله العديد من المصليين، وحين سمع إقامة الصلاة بدأ يسارع في الوضوء حتى وصل لغسل قدمه، لكن فجأة توقفت يده في الهواء بصدمة حين أبصر ما جعل عينيه تتسع.

***

ختم حديثه مع مينا ولم يصل منه لشيء جديد على ما يعلمه بالفعل، ذلك الرجل يجيد الإخفاء بشكل رائع حقًا.

ابتسم أسامة بسخرية وهو يقف أمام باب المنزل الذي يشاركه مع عفاف يخرج المفتاح الخاص به، وقبل دسه في الباب سمع شهقة مرتفعة تخرج من الداخل ليسقط قلبه برعب يسارع للداخل مناديًا بخوف:

- عفاف؟ عفاف فيه إيه؟

تحرك صوب المطبخ وهو يرسم العديد من السيناريوهات في عقله لما يمكن أن يكون قد حدث لها، دخل يبحث عنها بعينه ليجدها تقف أمام الشعلة وهي تشهق بصوت مرتفع، وفورًا ترجم عقله ما يحدث، مندفعًا صوب الشعلة يغلقها منتزعًا عفاف من أمامها، يفتح كافة منافذ الهواء في المكان، يخرج بها للبهو يلقي بجسدها على الأريكة، ثم ركض يحضر لها كوب ماء، ومن ثم حمل الملف الموضوع على الطاولة يحركه أمام وجهها في محاولة لاستحضار ذرات هواء تنقذها من الاختناق.

وعفاف تحدق بالكأس بين كفيها وملامح الفزع على وجه أسامة وحركاته وهو يحرك الملف أمام وجهها تردد بتعجب:

- فيه إيه يا عو؟

وأسامة لم يكن يعي شيئًا سوى فكرة أنّ الدخان الكثير في الداخل تسبب في اختناقها:

- خدي شهيق وزفير، اتنفسي، خدي نفس وخرجيه.

تشنجت ملامح عفاف وهي تترك الكوب على الطاولة:

- أخد نفس وأخرجه إيه يا عو؟ هو أنت بتعزم عليّ بسيجارة؟ فيه

إيه مالك؟

نظر لها أسامة لا يفهم كلماتها يشير صوب المطبخ بريبة:

- مش أنتِ ... أنا ... أنا سمعت صوت شهقات عالية ودخان جاي من جوة و ...

ابتسمت عفاف تقول ببساطة وبلاهة:

- اه ده أنا كنت بعملك ملوخية وبشهق عليها.

توقف يد أسامة عن التحرك بصدمة كبيرة يحرك نظراته في المكان وكأنّه يتأكد أنّه لا يحترق كما تخيّل:

- شهقة ملوخية؟ بس أنتِ دي ... دي كانت شهقات كتير و ...

- أيوه ما أنا عرفت إن سر الملوخية هي الشهقة وأنا كنت بجرب شهقة كويسة وبشوف إيه اللي هتجيب نتيجة مع حلة الملوخية و ...

وقبل إكمال جملتها اصطدم الملف الذي يحمله أسامة بحدة في وجهها صارخًا بغضب وجنون وقد كاد قلبه يتوقف منذ ثواني لأنها كانت تصنع له طبق "ملوخية".

- شهقة ملوخية؟ ده أنتِ شهقتِ شهقة مطلعتش من ضحايا تايتنك وهما بيتنشلوهم من المحيط.

ضمت عفاف يديها لصدرها تتخذ الحيطة منه ومن نظراته التي كانت تحرقها في هذه اللحظة:

- الحق علي بحاول أبذل كل طاقتي ومجهودي علشان أعملك

ملوخية حلوة.

ضرب أسامة كفيه في بعضهما بقوة صارخًا وهو يندفع لها لتتراجع بسرعة وقلق للخلف:

- أنتِ ليه محسساني إنّنا جايين مهمة في قناة طبخ؟ فوقي يا عفاف مجهودك ده يتبذل في المهمة مش في طبق ملوخية، بعدين أنا مش بحب الملوخية أساسًا.

اتسعت أعين عفاف بقوة وقد التمعت الصدمة وخيبة الأمل داخل حدقتيها، نظرات جمدت أسامة الذي شعر فجأة أنّه ارتكب جرمًا بحديثه ذاك، يشعر أنّه جرحها وهي فقط تحاول إسعاده، إخفاق آخر تجاه عفاف يصدر منه.

ابتلع ريقه يحاول التحدث بأنّه لا يقصد أن يحزنها وأنّه يقدر كل ما تفعله له، لكن قاطع كل ذلك قيام عفاف عن الأريكة تقول بصدمة جمة:

- مش بتحب الملوخية؟

رمش أسامة بعدم فهم:

- هو ده اللي زعلك أوي كده؟ مش إنّي كنت حيوان وزعقت ليكِ؟

حدقت به عفاف في بلاهة قليلًا تشعر أنّها تسرعت في إبداء سبب غضبها وكان عليها على الأقل التفكير في الأمر أكثر.

فتحت فمها وقد قررت التراجع عن حجة "الملوخية" واذعاء الغضب لأنّه لا يقدر ما تفعله لأجله، لكن قاطع كل ذلك فتح جلال

لباب المنزل بقوة وهو يصرخ بصوت مرتفع يكاد يجذب جميع قاطني المنطقة لهم:

- يا عو مش هتصدق اللي حصل، أنا اكتشفت اكتشاف عظيم.

اتسعت عيون أسامة بفزع من هجوم جلال عليه وارتفاع صوته بهذا الشكل وكأنّه يدعو الجيرة للمجيء ومشاركتهم المهمة التي من المفترض أنّها كانت سرية.

لوحت عفاف بيدها في غيظ تصرخ في وجهه بجنون:

- أنت ياض متخلف ولا عبيط؟ ما تعلي صوتك أكتر الناس لسه معرفتش أنّنا شغالين مع بعض في مهمة سرية.

تحركت أنظار أسامة لها بصدمة أكبر من صدمته في حديث جلال يشعر أنّه محاط بالكثير من الغباء، ولكي تكتمل الصورة المعتادة ويتم إنهاء آخر ذرات تعقله وهدوءه، وجد هند تخطو للمكان تتحدث بصوت هادئ منخفض بعض الشيء:

- مش هتصدق مدحت وقع بلسانه النهاردة وقال إيه يا عو؟

وضع أسامة يده على رأسه وقد بدأ جسده يترنح يمينًا ويسارًا وكأنّه على وشك الإغماء، لولا يد عفاف التي سارعت تمسكه وهي تردد بفزع:

- اسم الله عليك يا خويا، اجري يا جلال هات كوباية عصير الليمون اللي في التلاجة.

بدأ أسامة يرفع أنامله لفك أزرار قميصه يحاول التنفس بشكل

طبيعي، فأمسكت عفاف الملف نفسه الذي كان يحمله هو منذ ثواني تلوح به أمام وجهه صارخة بفزع:

- بسرعة يا جلال الراجل هيروح مننا، عين وصابتك يا عو عين وصابتك والله، لسه كنت زي الفل من شوية.

اقتربت هند وهي تحدق فيه بقلق:

- ماله أسامة يا عفاف، حصل إيه؟

- والله يا هند ما أعرف مرة واحدة زي ما أنتِ شايفة كده، ربنا يستر ويكون كويس.

عاد جلال بسرعة يحمل كوبين من عصير الليمون واحد له والثاني لأسامة، انتزعته منه عفاف وهي تمده لأسامة:

- اشرب يا عو، اشرب بالشفا إن شاء الله.

فجأة أبصرت جلال يجلس أمامهم يرتشف من عصيرها بتلذذ لتوبخه بغضب وهي ما تزال تساعد أسامة على شرب العصير خاصته:

- أنت بتاخد ليه من عصير أسامة يا جلال، أنا عاملاه ليه هو علشان الضغط كل شوية بيعلى عليه مش عارفة إيه اللي حصله، إحنا لازم نكشف يا أسامة مينفعش نسكت على مرضك كتير.

رفع أسامة عينيه لها بتشنح يحاول التماسك والتنفس بشكل طبيعي، يشير لهند بإغلاق باب المنزل:

- اقفلي يا هند الباب الله مش ناقصين فضايح أكتر من كده.

ربتت عفاف على ظهره مرددة وهي تهدئه:

- ربنا ما يجيب فضايح يا عو، أنت بس اهدأ كده وبلاش العصبية علشان غلط على صحتك.

رفع عينيه لها يجيب بغيظ:

- والله يا عفاف ما فيه حاجة غلط على صحتي أكتر منكم، ده أنتم مضرين أكتر من الخمرة والمخدرات.

رمقته عفاف والجميع بصدمة، لكنّه لم يهتم وهو يمسح وجهه ينظر صوب جلال يقول:

- أيوه يا جلال إيه اللي حصل علشان يستحق أنك تفضحنا بالشكل ده في المكان؟ اكتشفت المجرم ولا إيه؟

رفع جلال رأسه له بعدما كان منشغلًا بالكامل في كوب العصير بيده، ليردف بعدم فهم:

- إيه؟ حصل إيه؟

- والله معرفش أنت اللي جاي تصرخ أنّك اكتشفت حاجة مهمة.

استمر جلال في التحديق به ثواني وكأنّه يحاول تذكر ما يقصد أسامة قبل أن يبتسم فجأة نفس تلك البسمة التي يخرج بعدها بوصلة مدح لنفسه وتحسر على حالته التي جعلته يعمل تحت يد أسامة، ولعن في الظروف التي جعلت أسامة قائدًا عليه:

- أنا بعونك يا رب اكتشفت خيط هيجرجر باقي خيوط القضية دي في إيدينا يا عو، مش هتصدق اكتشفت إيه؟

صمت يراقب نظرات الفضول والترقب على أوجه الجميع، وقد نال ما يريده وأكثر، إذ تململت هند في جلستها وهي تهتف بضيق:

- ما تخلص تقول اتنيلت كشفت إيه، والله لو طلع حاجة عبيطة في الآخر ما هيكفيني فيك رقبتك.

رفع جلال قدمًا يضعها على الأخرى وهو يردد بتفاخر:

- ولو طلعت حاجة مهمة؟

ردت عليه بغضب وضيق:

- جلال اخـ ...

فجأة توقفت عن الحديث حين أبصرت شيء جعل عينيها تتسع بقوة، استدارت ببطء صوب أسامة تتأكد أنّه رأى ما رأته هي.

بينما أسامة اتسعت عينيه بذهول وبقوة مرعبة وهو يراقب ما جاء به جلال، يبتلع ريقه بصدمة، وكذلك عفاف لم تقل ردة فعلها عن خاصتهم.

ابتسم جلال وقد أدرك أنّهم انتبهوا لما جاء به، وقبل أن يفتح فمه للحديث شعر بيد أسامة تجذب قدمه بقوة ليسقط عن الأريكة بعنف جعل صرخاته تتردد في المكان بأكمله، لكن أسامة لم يهتم وهو يرفع قدم جلال في الهواء يهمس بصدمة كبيرة:

- نفس الشبشب؟

***

الفصل السادس

(أحقاد دفينة)

ما قبل سلسلة اللعنات..

أحيانًا تغدر بك الحياة في أكثر لحظات سلامك، وتطعنك في أقصى لحظات قوتك، وهنا كانت البداية.

يجلس ملتحفًا بجمعهم الذي لطالما كان متنفسًا لكل ما يعانيه في حياته، كان مخرجًا لكل آهاته المكبوتة التي تخرج منه على هيئة ضحكات صاخبة، تجذب له الأنظار طوال الوقت.

ابتسم مدحت ابتسامة صغيرة يحدق به متعجّبًا:

- خير يا أحمد، ضحكنا معاك.

ازدادت ضحكات أحمد أكثر وأكثر وهو يحدق بكريم الذي ابتسم ابتسامة كسولة ساخرة يدرك سبب ضحكاته تلك، وحين توقف أحمد وأخيرًا عن الضحك ردد بأنفاس لاهثة:

- لا مفيش بس افتكرت اجتماع خيري النهاردة، بجد مصدقتش اللي شوفته بعيني، بقى خيري اللي عامل زعيم على المجال يجي لغاية عندنا يتحايل علينا ويبوس إيدنا علشان نشاركه؟ دي الدنيا غريبة أوي يا جدعان.

ازدادت بسمة كريم اتساعًا وخبثًا حين التفت له سالم يردد بجدية:

- وأنا برضو استغربت، ده أنا بنفسي روحت ليه مع محمد من شهر

وعرضنا عليه أكبر مشروع عندنا وقتها رمى الورق في وشنا وقال مش بشارك حد، فما بالك بناس لسه بتتعلم المجال.

ضاقت عين مدحت بتعجب من تلك الكلمات:

- وهو إيه اللي يغيره بين يوم وليلة كده؟ أكيد منامش وصحي حلم أنّه عايز يشاركنا.

رفع كريم سيجارته يرتشف منها بمزاج رائق، سعيدًا منتشٍ بكل إنجاز يحققه وكل خطوة يخطوها في حياته، سيصل ويعلم الجميع مَن هو، سيضحك في وجه من سخر منه يومًا، الكل آتٍ دوره.

تحركت عيون سمير صوب كريم يتأمل ملامحه المثيرة للشك، يدرك كما يدرك الجميع أنّ كريم لا يستسلم طالما أنّه وضع أمرًا في عقله، وهو وضع خيري وشركاته واسمه في عقله ولن يهدأ حتى يقتني اسم شركتهم الصغيرة باسم مجموعة شركات خيري.

- مش عارف ليه حاسس الموضوع ليه علاقة بيك يا كريم.

سخر منه أشرف يسحب بعض أنفاس الأرجيلة أمامه والتى توارث عشقها من والده بعدما كان يزاحمه الأسواق في طفولته:

- حاسس؟ لا اتأكد يا خويا، الموضوع ده مش هيخرج من حِجر كريم.

أطلق كريم ضحكات صاخبة جعلت الجميع ينظرون له بريبة، بينما هو كان يراجع عقله وما فعله ليقنع خيري بالتعاون معهم في هذا المشروع، أو لنقل: يُجبره.

شعر أحمد بالقلق في هذه اللحظة مما يحدث حوله:

- أنا مش مطمن للي بتعمله ده يا كريم، أوعى يكون كل ده بسبب حاجة وحشة عملتها للراجل! إحنا مش قده.

- يقدر يعمل حاجة؟

انتفض مدحت حين سمع تلك الجملة والتي أكدت صدق ظنون أحمد، وهذا ما يرفضه، فهو حين وافق على الدس بنفسه داخل هذا المجال حرص على البقاء بعيدًا عن أي خطر، وها هو كريم يحملهم بين كفه ويدسهم داخل غش الدبابير بنفسه.

- أنت بتهزر يا كريم؟ اه يقدر ويقدر، أنت مش بتتكلم عن عيل من بتوع الحارة اللي نقدر نسكتهم بكام كلمة وزعيق وعصايا، ده راجل نابه أزرق وإيده طايلة.

ابتسم له كريم نفس البسمة التي مضت معه عهدًا منذ بداية الجلسة ألّا تتلاشى عن ملامحه، يبتسم بخبث مرددًا كلمات رنت بعقول كل مَن يُحيط به:

- متقلقوش مش هيقدر يعمل حاجة.

وكانت تلك الكلمات بداية اللعنة التي أصابت الجميع في هذه الغرفة التي اعتادوا التجمع بها، بداية الشقاق وبداية الفرقة وبداية الكوارث.

انتفض مدحت عن فراشه يتنفس بصوت مرتفع محاولًا الخروج من تلك الدوامة التي سحبته لبحار لا يفقه بها سباحة، كان لهثه مسموعًا في الغرفة، يمسح وجهه المتعرق قبل أن تتحرك عينيه

ببطء صوب الصورة الموضوعة جوار فراشه، أين كانوا وأين أصبحوا؟ تشتت جمعهم وتفرفوا وكل ذلك بسببه هو.

حمل الصورة يمرر أصابعه على جميع الوجوه وقد بدأت تعابير وجهه

تتباين وتتغير مع كل وجه يمر عليه بعينيه وأصابعه حتى توقفت على وجه أطال الوقوف عنده لينفجر فجأة في بكاء حار وانهيار وهو يضم الصورة لقلبه يعتذر منه:

- أنا آسف، حقك عليا، أنا آسف، يا ريتني كنت أنا اللي مت، يا ريتني كنت سمعت كلامك، حقك عليّ.

كان يبكي بحرقة وهو يضم الصورة لقلبه يسكب عليها اعتذاراته واشتياقه لمَن غاب عن القلب والعين، وصوته ما يزال يتردد في أذنه:

- أنا خايف يا مدحت من اللي كريم بيعمله، أنا ... أنا بفكر أفض الشراكة معاه ومع الشباب، تعالى نطلع من الشراكة دي ونفتح شركة لينا أنا وأنت لوحدنا، اللي بيعمله كريم ده مش هينفعنا، بالعكس ده هيضرنا، بيلعب مع الكبار ومفكر نفسه قدهم، اسمع مني يا صاحبي وخلينا نطلع من كل الحوارات.

تنفس مدحت من بين دموعه وشهقاته بصعوبة وهو يشعر بدماء رفيقه تزين كفوفه، هو يحمل في عنقه ذنب موته مثله مثل المجرم الذي قتله، هو أحد المساهمين في فقدانه.

ترك الصورة أرضًا يتنفس بصعوبة، يعتذر بكلمات غير واضحة

بسبب الشهقات، وفجأة انتفض جسده انتفاضة صغيرة حين سمع صوت والدته يتردد حوله، لكنه كان كما لو جاء من بعيد، لا يسمع ولا يفهم ما تقول ولا يشعر بشيء، كان أشبه بالمُخدّر وعينيه حمراء شاخصة وكأنه يرى ب عينيه ملك الموت.

ضمته والدته وهي تبكي برعب وتقرأ على رأسه بعض آيات القرآن وهو فقط جثة فاقدة للروح بين ذراعيها لا يعي ما يحدث حوله، حالة من الذنب القاتل ابتلعته وأبت لفظه لحياته مرة أخرى.

***

العناد سيد الصفات القذرة في هذه الحياة، صفة ليست فقط قادرة على تدميرك، بل وتدمير جميع من حولك، فيا حسرتي عليك وعلى مَن يحيطك.

وهو في الحقيقة كان المُصدّر الأول لهذه الصفة، يرى الجميع يتساقط حوله واحدًا تلو الآخر، لكن هل يستسلم؟ والله لن يحدث، ليس بعد كل هذا الوقت وليس بعد كل مَن فقدهم، هم راحوا ضحية نجاحه المُقدّر وهو لن يدع تضحيتهم تذهب سدى وسيكمل في طريقه ولو كلفه هذا آخر صديق له.

انتفض جسد كريم عن فراشه حين أبصر الباب الذي فُتح وقد توسطه جسد يعرفه جيدًا حتى وإن لم يميز صاحبه بسبب الإضاءة القليلة في المكان وذلك الدخان الكثيف الذي يحيط به وكأنّه يجلس داخل مدخنة.

- اقفل الباب علشان النور ضارب في وشي.

ابتسم الآخر وهو يتحرك داخل الغرفة يغلق الباب مجددًا بقوة لم تحرك ساكنًا بجسد كريم، يتقدم خطوات لغرفته حتى جلس أمامه على الفراش في الظلام ويحيطهم شحب من الدخان.

- إيه يا كريم حابس نفسك في الأوضة بتاعتك ليه؟ مش فيه شغل مستني ولا خلاص رميت طوبته بعد اللي حصل ولسه بتفكر في الاستقلال بنفسك؟

رفع كريم عينيه لمحمد يردد بسخرية وقد صدّق محمد أنّه قد يفض الشراكة ويبيع الشركة وهو فقط كان يحاول التخلص منهم ليتفرد بها وحده:

- محمد يا حبيبي أنا أرمي طوبتكم أنتم ولا أرمي طوبة الشغل يا بابا، أنا بس قاعد بفكر في شوية حوارات.

علقت جملته الأولى بعقل محمد الذي ردد بحقد وغضب بدأ يزداد داخله خاصة حينما علم أنّ كريم كان يُبصر حبه لتلك الفتاة ورغم ذلك سحبها معه لبحار الخطيئة وحرمه منها، كره واشمئزاز يتولد في نفسه حين التحدث معه، لكن لا بأس هو يحيا على أمل أن يصبح كريم التالي على قائمة القاتل.

- أصيل والله يا كريم، بس خيري كل شوية يسأل عليك وبيقول هنعمل إيه في المشروع اللي أجلناه بسبب اللي حصل، أظن شهور كفاية ولا إيه؟

اشتدت ملامح كريم بقوة وقد تجمدت بسمته يرفع عينيه لمحمد يتعجب من كلماته ولينه في الحديث:

- خير؟ شايف اهتمامك بالشغل رجع يعني!

عض محمد شفتيه يرمقه بغموض التقطه كريم بسهولة:

- مش بعد كل اللي عملته هسيبلك الجَمَل بما حَمَل، أنا مكمل لغاية ما يوصلني حق وتعب السنين اللي فاتت يا كريم.

- وأنا يعني كنت منعتك يا حبيبي؟ الشركة عندكم، اللي عايز يكمل يكمل.

صمت ينظر في عيني محمد بشكل مخيف:

- بس بشروطي أنا، وبدماغي أنا، ومتنساش إنّ اللي وصلنا لهنا هي دماغي.

منحه محمد بسمة ساخرة يهتف بنبرة سوداء وصوت خرج من بئر حقد عميق وقد وارت كلماته معانٍ أخرى:

- عندك حق، كل اللي إحنا وصلنا ليه بسببك وبسبب دماغك يا كريم.

لم تُعجب كريم نبرته، لكنه تجاهل الأمر حتى يصل لهدفه، اعتدل في جلسته ثم مسح وجهه ينفض عنه غبار الانتشاء والكسل الذي كان يغطيه منذ ثوانٍ:

- طيب فين مدحت؟ معانا ولا خرج؟

- أنت عارف أن مدحت معانا، مدحت أكتر واحد فينا حلم بالنجاح والفلوس، هو بس جبان شوية، لكن طمعه أكبر من جُبنه.

وهذا ما كان يحبه فيه كريم، النقطة التي كان يلعب عليها ليمسك

بذراع مدحت ويجذبه أسفل مظلته.

- طب قل له يجهز علشان هاخد ميعاد من خيري ونقابله.

***

كانت النظرات تدور بصدمة على قدم جلال الذي جاء لهم يرتدي نفس ذات النعل الذي وجدوه جوار مجرى المياه، نفسه وكأنّه هو.

شهقت عفاف بصوت مرتفع تضع يديها على فمها:

- مش معقول!

نظر لها الجميع بتأكيد وكأنهم يخبرونها أن الأمر صحيح وأن ما وصل لذهنها هو الحقيقة.

لكن عفاف كانت بعيدة عما يدور بعقل هند وأسامة، إذ أشارت لقدم جلال مرددة بصدمة كبيرة:

- جلال القاتل؟ إزاي ده أنا مشكتش فيه خالص.

تشنجت الوجوه حولها بصدمة من تخمينها، بينما انتفض جلال يجذب قدمه من أسامة يقف أمام عفاف صارخًا بصدمة:

- قاتل إيه؟ أنتِ هتلبسيني بلوة؟ بعدين أنا لو بعرف أقتل ما كان من باب أولى أقتلكم أنتم وأخلص من غبائكم.

فرك أسامة خصلاته بقوة ثم تنهد بصوت مرتفع يفتح فمه للحديث، لكن عفاف لم تدع له الفرصة إذ اندفعت لوجه جلال تصرخ:

- غباء؟ مين بيتكلم؟ الموزّد الأول للغباء الخام في الشرق الأوسط والعالم كله؟

وقف جلال في وجهها يصرخ رافضًا لكل تلك الأوصاف التي تُطلقها عليه:

- ولما أنا غبي أنتِ تبقي إيه؟ يعني أنا هقتل كل دول ليه وإزاي أساسًا، سيبك من ليه وإزاي مفكرتيش بعد ما أقتلهم هجيب صحة منين أشيلهم وأرميهم في الترعة وأنا عندي خشونة ركبة أساسًا؟ أنتِ مشوفتيش الواحد فيهم عامل زي الحيطة السد إزاي؟

توقف عن الحديث بحنق ليخرج سؤال عفاف معبرًا عن تعجب الجميع:

- أمال جبت الشبشب ده إزاي؟

نفخ جلال يعدل من وضعية ثيابه بحنق شديد وقد شعر بالسأم منهم ومن التعامل مع أشخاص بهذه العقليات، لقد ابتلاه الله ببعض الحمقى ليضطر للتعامل معهم فيا تبقى من عمره.

- من الجامع.

اتسعت أعين الجميع ورددوا بذهول في صوت واحد:

- الجامع؟

- أيوه كنت بصلي مع الحاج سلطان وصلاح وفجأة أخدت بالي إني لابسه وأنا بتوضى، أتاري الشبشب ده فيه منه كتير هناك، بيلبسها الناس علشان يتوضوا بيها.

صمت ثم أكمل بحنق شديد:

- سرقوا الجذمة بتاعتي فالراجل اللي في الجامع هناك قالي أروح بيه وأبقى أرجعه بعدين في أي وقت.

غامت عينا أسامة وهو يدير الكلمات في عقله:

- شباشب الجامع؟

أبدت عفاف حيرتها إزاء هذا الأمر معبرة ومستنكرة عمّا وصل لها:

- إيه اللي هيجيب شبشب الجامع لرجل قاتل؟ أكيد مكانش بيصلي الفجر مثلًا وبعدين طلع علشان يخلص على واحد ونسي أنّه لابس شبشب الجامع.

هتفت هند بتفكير وشرود:

- أو يمكن كان قصد وتمويه.

نظر لها الجميع بانتباه لتقول بجدية وهي تنظر لأسامة تحديدًا تواجهه بشكوكه:

- ليه منقولش إنّ الشبشب ده أساسًا محطوط قصد جنب الترعة علشان يخلي أفكارنا تبعد عن المجرم الحقيقي؟ نفس اللي حصل مع أسامة وإصراره إنّ لا يمكن يكون القاتل من برة الحارة أو راجل أعمال، ليه متكونش دي خطة أساسًا علشان نبعد الانتباه عن عالم الأعمال واللي فيه؟ أصل هما مش صغيرين علشان يسيبوا وراهم دليل عادي كده.

شعر أسامة أنّها تدور حول شيء ما لا يلتقطه هو:

- قصدك إيه بالظبط يا هند؟

- قصدي إن احتمال أن اللي عمل الجريمة دي يكون واحد من عالم الأعمال اللي بيتعامل معاه التسعة أكبر من باقي الاحتمالات.

- والسبب؟

ابتسمت بسمة صغيرة تقول:

- شراكة الشباب وخيرى مكانتش مساندة من راجل أعمال تقيل لشباب أو استغلال لقدراتهم زي ما البعض بيقول.

اقترب منها أسامة خطوة صغيرة يهمس بفضول شديد:

- أمّال؟

أجابته هند بصوت غامض:

- لوي دراع.

- لوي دراع؟ دراع مين؟ وإيه اللي تقصديه يا هند؟ وضحي علشان نفهم قصدك.

رفعت هند عينيها صوب عفاف تقول بجدية:

- مدحت وهو بيتكلم معايا النهاردة وقع بلسانه وجاب سيرة إن مشاركة خيري ليهم مكانتش علشان سواد عينيهم، واضح إن الراجل مجبر بسبب حاجة هما يعرفوها عنه، كاسرين عينه من الآخر.

اهتم أسامة بما تقول يسأل بلهفة:

- وأنتِ محاولتيش تعرفي أكتر يا هند قصده ليه بالضبط؟

- للأسف عمل نفسه بيهزر وتوه في الكلام.

مسح أسامة وجهه وقد بدأت الخيوط تتعقد، تحركت أنظاره صوب عفاف يسألها أي نتيجة وصلت لها، لكن كل ما خرج منها كان:

- كل اللي بتقوله فوز بيثبت أن مينا له يد في الموضوع، قالت لي أن الشباب مكانوش بيبطلوا مشاكل بس عمر ما فيه مشكلة كبرت قد مشكلة مينا وأخته.

هز رأسه وقد شعر أن كل دليل يحضرونه ينافي الآخر، تحركت عينيه صوب جلال ولم يكد يتحدث حتى سمع صوت عفاف تقول بتردد:

- وكمان أنا ... أنا قابلت اللي اسمه كريم ده على السلم قدام بيت فوز.

نظر لها أسامة باهتمام وعدم فهم لتوترها ذلك:

- و؟

- وقف يتكلم ويجر كلام معايا، قعد يتكلم بشكل لطيف والظاهر متعود يرمي شباكه على أي بنت يشوفها و ...

اقترب منها أسامة بشكل خطير وهو يهمس بنبرة مخيفة:

- وأنتِ؟ رمى شباكه عليكِ؟

- محصلش ولا عمره هيحصل يا عو أنت عارفني.

صمت لكن ملامحه ما تزال سوداء وعيناه مشتعلة، يدرك أي نوع من الأشخاص هو كريم، لقد عكف ليلة كاملة يقرأ الملف الخاص به

لشعوره أنّ بداية ونهاية الخيط يلتقون عنده، لكن أن يقترب ذلك الفاسق من زوجته، والله ليلفن جميع الخيوط حول رقبته ويشدها حتى يلفظ أنفاسه.

وعفاف شعرت أنها تغابت وذكرت أمر كريم، لكنها ظنت أنها يمكنها اللعب على تلك النقطة:

- أنا ممكن أحاول ...

قاطعها أسامة يرفع إصبعه في وجهها محذرًا بنبرة شديدة قوية:

- إياكِ تفكري في الموضوع حتى، الزفت ده تشوفي جاي يمين تمشي شمال سامعة؟ متقفيش معاه ثانية واحدة، وإلا والله يا عفاف هبعت ميل رسمي وأستغنى عنك من المهمة، لو صدف ولمحك مرة تانية تعملي نفسك من بنها وتمشي من غير كلمة يا عفاف مفهوم؟

صمتت بصدمة من كلماته ولم تستطع النطق بكلمة بعد ما صدر منه، بينما هند استنكرت صمتها وهي تدفعها للخلف تقف في وجه أسامة معاندة:

- إيه يا أسامة هو أنت هتتشطر عليها وتقول تعمل إيه ومتعملش إيه؟ عفاف مش صغيرة ولا ...

قاطع أسامة كلماتها بصرخة جعلت جسد هند ينتفض للمرة الأولى من كلمات ذكر وهي تراقبه متسعة الأعين يردد بشراسة:

- متدخليش بيني وبين مراتي، اللي وراكِ دي مراتي يا هند لو مش واخدة بالك محدش له دعوة بينا.

كل ذلك وعفاف تحدق في وجهه بصمت وصدمة، ولم تنطق كلمة حتى انتهى من وصلة جنونه تقول بهدوء:

- يلا يا هند نمشي من هنا.

نظرت لها هند بعدم فهم وكذلك قال أسامة الذي نطق بغرابة:

- يلا فين معلش؟

- هروح أقعد مع هند انهاردة.

رفض بغيظ شديد وهو يتحرك ليمسك يدها يمنعها، لكن وقبل أن يفعل أوقفته بيدها تقول بهدوء ونبرات يسمعها للمرة الأولى منها:

- لو منعتني أنا اللي هبعت ميل وأنسحبُ من المهمة دي يا أسامة.

ختمت حديثها تتحرك بسرعة خارج المكان بملامح جامدة، تاركة خلفها هند اللي كانت مذهولة مما حدث وفجأة رفعت كفيها تصفق بانبهار وسعادة وفخر بشخصية عفاف الجديدة ترمق أسامة بتشفٍ واضح:

- هو ده اللي ينفعكم والله، شوية ذكوريين.

ختمت حديثها تشمل جلال وأسامة بنظرات غاضبة مستنكرة جعلت جلال يفرد كفيه بقلة حيلة:

- أنا مالي هو اللي زعق ليها.

خرجت هند تغلق الباب خلفها بقوة مما جعل جسد جلال ينتفض هاتفًا باستنكار:

- طيب أنا عملت إيه طيب؟ أنا كنت ساكت والله.

وبعدما فرغ المكان حوله رمق أسامة بحنق واستنكار لتشتعل نظرات أسامة بضرب الطاولة بقدمه في عنف وغضب جعل صرخات جلال ترتفع وهو يركض للخارج صوب الباب يصرخ باسم هند، لكن وقبل أن يصل للباب أمسكه أسامة من ثيابه لتعلو صرخات جلال برعب وهو يحاول الإفلات من بين قبضته والوصول للباب:

- والله ما عملت حاجة، مش أنا ...

جذبه أسامة يلقي به على الأريكة بغضب وحنق:

- ما تتهد يا زفت أنت واترزع كده، طلع التليفون بتاعك وكلم هند.

نظر له جلال بريبة وهو يهمس:

- ليه؟

- خليها تجيب عفاف وترجع هنا.

- يا أخي أنت إيه؟ الست مش عايزة تشوف وشك ما تسيبها في حالها بقى هتضيق عليها حياتها، أما أنت ذكوري عفن صحيح.

رمقه أسامة بشر يهتف من أسفل أسنانه:

- رن على هند دلوقتي.

أخرج جلال هاتفه بسرعة يتصل بهند التي طال انتظار ردها حتى أجابت في المكالمة الثالثة وهي تصرخ بحنق:

- عايز إيه أنت التاني؟

وقبل إجابة جلال وصل لها الرد من أسامة قويًا جامدًا:

- هاتي المدام اللي جنبك وتعالي يا هند إحنا لسه مخلصناش كلام في المهمة علشان كل واحدة تسحب نفسها وتتقمص، دي مهمة مش مصيف.

نظرت هند جوارها صوب عفاف التي انتفضت بحماس ظنًا أنه اتصل ليراضيها، لكن خاب ظنها من حديثه تهمس بغضب:

- يا رب المهمة تولع بيك يا عو وما تلاقي اللي يطفيكم.

لم تكد هند تعترض على كلماته حتى صرخ أسامة فيها بقوة قاطعًا أي اعتراض قد يصدر منها:

- حـــــالًا يا هند.

***

- مالك يا محمد؟

رفع عينيه صوب والده يبتسم له بهدوء وهو ينفي برأسه أي شكوك تعلو وجه والده والذي كان يضيق عليه الخناق في الآونة الأخيرة، وهو حقًا لا يلومه، فهو رجل يحيا فقط لتربية ابنه بعدما ألقته له زوجته دون اهتمام مع طفلة أخرى وذهبت للزواج بآخر، والآن هذا الطفل الذي بذل نصف حياته ليجعله يحيا حياة كريمة، على وشك فقدانها بسبب مختل يهدد وجوده.

- متقلقش يا حاج أنا بخير، بس ... أنا حسيت بصداع مرة واحدة.

هز أبوه رأسه وهو يجلس جوار محمد يردد بصوت خافت:

- عرفت أن جواز صاحبك خلال أسبوعين؟

رفع له محمد عينيه بعدم فهم:

- صاحبي مين؟

- وهو اتبقى مين فيهم؟ كريم ومدحت ومدحت مش خاطب يبقى مين؟ كريم طبعًا.

انتفض جسد محمد دون شعور مردّدًا:

- فرح كريم على ديانا؟

ابتسم والده بسخرية يسمع طريقته في نطق اسمها، لم يكن ينطقه، بل بدا كما لو أنّه يستمتع بمذاقه على لسانه.

- أيوه هي حبيبة القلب.

أبعد محمد عينيه عن والده يدرك أنّ والده يعلم كل خفاياه، لكن رغم ذلك هو سيستمر بالنكران:

- حبيبة قلب إيه بس يا حاج صلي على النبي دي خطيبة صاحبي وفرحهم قريب زي ما بتقول.

كانت ينطق آخر جملة بنبرة سوداء ميّزها والده بسهولة، ليقول بتحذير وهو يقترب منه مردّدًا:

- محمد، ابعد عن الواد ده، أنا قلت لك قبل كده مائة مرة ابعد عن كريم ومشاكله وأنت صممت وشوف وصلت لفين؟ أول ما عرف أنك حاطط عيونك على بنت جري شدها ليه، ده لا يمكن يكون صاحب أبدًا يا بني.

نظر له محمد ثواني وقد لمع الكره داخل عينيه يهز رأسه بهدوء:

- هبعد يا حاج بس مش دلوقتي خالص، مش بعد ده كله أبعد كده ببساطة، مش بعد كل ده أبعد وأسيبه يتهنّى بكل حاجة وأخرج من المولد بلا حمص.

شعر والده بالكثير من المعاني تتوارى خلف جملته لينتفض مستنكرًا ذلك الشر الذي سكن ولده:

- قصدك إيه؟ أنت بتتكلم كده ليه؟ وناوي على إيه يا محمد؟

نظر محمد لخوف والده الواضح يدرك جيدًا ما يفكر به ليتنهد بصوت مرتفع يعود بظهره على الأريكة متكئًا باسترخاء مصطنع رغم كل الضوضاء الداخلية:

- قصدي إنّي مش هسيبه دلوقتي، لسه بعد ما نخلص الصفقة الجديدة وآخد أرباحي، مش هنسحب ولسه حقي موصلش ليّ، لسه هاخد حقي تالت ومتلت يا حاج.

***

كانت أصوات التأفُّفات تعلو في المكان، لكنه لم يهتم لكل ذلك وهو يقول ببساطة:

- كل واحد عارف هيعمل إيه في اللي جاي؟

ضمت عفاف يديها لصدرها بحنق تبعد وجهها تنظر لجهة أخرى، بينما وضعت هند قدم على الأخرى تنظر له باعتراض على إجبارها للمجيء وهي التي لم يجبرها رجل سابقًا على شيء لا تريده، بينما

جلال والذي لم يكن يعنيه كل ذلك، رأى أن يشاركهم الاعتراض والحنق، فضم ذراعيه مؤازرًا لهم دون الفهم.

زفر أسامة بصوت مرتفع وهو يمسح وجهه مستغفرًا، يشعر أنه يتعامل في الروضة مع بعض الأطفال، هم لا يمنحون له فرصة للتفاهم، بمجرد أن يخطئ خطأً صغيرًا يعاقبونه بهذه الصبيانية، بينما هم يخطئون أكثر من عدد مرات تنفسهم يوميًا ويغضبون إن عاقبهم بالصراخ.

كان الجميع يراقب أسامة الذي بدأ يمسح وجهه ويستغفر، أمر معتاد من أسامة، فهو طوال الوقت يفعل الشيء ذاته، لكن ما لم يكن معتادًا منه هو ابتسامته التي زينت وجهه بعد ذلك وهو يتنفس بصوت مرتفع يقول بهدوء شديد:

- طيب علشان نكون متفقين سوا كلنا، المهمة دي هتخلص بالطول أو بالعرض برضاكم أو غصب عنكم هتخلص وهنحلها، ولغاية ما ده يحصل أوامري أنا بس اللي هتتنفذ واللي أقوله يتسمع، أظن كلامي واضح ومفهوم، صحيح؟

ختم حديثه بسهولة ويسر وهو يحدق في الوجوه منتظرًا الرد.

مال جلال على هند يهمس لها:

- علشان قلت لكم أكون أنا القائد بتاعكم بس محدش سمع كلامي، اشربوا بقى.

تنفس الجميع ووافقوا بصمت على حديث أسامة الذي تحرك يلقي بجميع الأدلة على الطاولة أمامهم:

- كده عندنا شك إن اللي عمل كده ممكن يكون شخص من برة الحارة وبيحاول يتوهنا، واللي غالبًا هيكون ليه علاقة بخيري بسبب المشروع الأخير، أو يكون حد من الحارة له علاقة بمينا، أو ...

- مينا نفسه.

كانت تلك الكلمات صادرة من هند التي لم تقاوم حلاوة المشاركة في التحليلات كعادتها، وقد تناسى الجميع ما حدث منذ دقائق بسهولة، وهمست عفاف بترقب:

- دلوقتي نعمل إيه؟ حاسة إن خلاص فوز مبقاش ليها لازمة، كل اللي عندها قالته أساسًا، المفروض أعمل إيه دلوقتي؟

نظر لها أسامة ببسمة جعلت ضربات قلبها عديمة الكرامة تزداد بقوة، لكنها ادعت صلابة كبيرة تنظر له دون أن ترمش وهو قال ببساطة:

- ديانا.

- خطيبة كريم؟

هز أسامة رأسه بنعم، لتتعجب عفاف:

- ودي أدخل ليها منين دي، ولا بصفتي إيه؟

صمت ثم جلس جوارها يقول ببسمة:

- دي عروسة جديدة، أكيد محتاجة شوية فساتين ولبس حلوين، وأنتِ يا فوفا ست العارفين بأذواق البنات، فإيه رأيك؟

- رأيي في إيه؟

- كام فستان وتروحي ليها البيت على أساس أنّك عاملة مشروع وبتشوفي البنات اللي على وش جواز وولاد الحلال دلّوكِ عليها.

اتسعت عيون عفاف بحماس شديد لتلك الفكرة، تنظر له بتقدير دون إرادة منها فهذا الرجل لا يفوته شيء البتة، وهند لم تكن في تلك اللحظة راضية عن هذا الرضوخ الصادر من عفاف لتسارع بالقول:

- وإحنا يا عو؟

نظر لها أسامة يجيب بعدما انتزع نفسه بصعوبة من النظر لعفاف:

- أنتِ زي ما أنتِ يا هند، مدحت لسه عنده كتير مطلعوش، وأنا عارف أنّه الكتير ده هيفيدنا في اللي جاي، وخاصة اللي له علاقة بخيري، حاولي توقعيه، ومش هقولك إزاي تعمليها يا هند، بس كل ما تيأسي منه، افتكري أنّه راجل وكده بيعلن انتصاره عليكِ ومش بس عليكِ لا ده على نساء العالم كله، وأكيد أنتِ ميرضكيش التسيّب ده.

اشتعلت عيون هند من مجرد تخيل انتصار رجل عليها، ليعلم أسامة أنّه أوصل رسالته واضحة وأشعل حماسها.

تحركت عينيه صوب جلال الذي كان ينتظر دوره وقال:

- وأنت يا جلال زي ما أنت مع سلطان وصلاح يمكن نوصل لأي حاجة ممكن تدلنا على القاتل، أما أنا فأنا هروح أقيم في المسجد ربما أوصل لأي حاجة بخصوص فردة الشبشب، أظن كلامي واضح ومفيش فيه أي مشاكل صحيح؟

والإجابة كانت صمتًا معتادًا، وهذا ما يحبه أسامة، تنهد براحة يهتف:

- طيب توكلنا على الله جميعًا.

***

وقت صلاة الفجر ومع ارتفاع الأذان كان أسامة يتحرك للمسجد بنشاط يذكر بعض الأدعية، وحين وصل أبصر وجهًا يعرفه جيدًا فابتسم يقول بهدوء:

- السلام عليكم يا حاج.

رفع صلاح وجهه صوب المتحدث يتعجب ذلك الصوت الذي يسمعه للمرة الأولى:

- عليكم السلام يا ابني.

صمت ثواني يشمله بنظرات مدققة:

- أنا أعرفك؟

- لا مظنش بس أنا جاركم هنا، اسمي أسامة، سمعت عنك كتير.

تحرك صلاح مع أسامة داخل المسجد يرتدي نعلًا بلاستيكيًا مبتسمًا متحركًا صوب المرحاض، وقد تحركت عيون أسامة تلقائيًا صوب قدمه تراقب خطواته باهتمام شديد، حتى انتبه لشيء جعله يضيق عينيه وما كاد يسقط في تحليلاته حتى أفاق على صوت صلاح يقول:

- مش عارفين يتعبوا نفسهم ويجيبوا شبشب تاني كبير شوية،

تقولش متعاقدين مع عزّام الجزماتي وخايفين يزعلوه؟

رفع أسامة عينيه باهتمام شديد حاول وأده بصعوبة:

- عزام الجزماتي؟ أنا برضو لاحظت أن الشباشب هنا كلها نفس النوع، هي معمولة مخصوص ولا إيه؟

ختم حديثه بضحكة صغيرة يظهر بها مزاحه يشمر عن أكمامه يستمع لصوت صلاح يردد:

- أيوه معمولة مخصوص علشان تستحمل، من كام شهر كده والمسؤول عن الجامع وضّى عزام يعمل للجامع كام شبشب كده يكون البلاستيك بتاعهم متين، بس مش فاهم الزفت ده مفكر الكل نفس مقاس رجله، ده أنا نص رجلي برة الشبشب.

كانت كلماته تخرج ببساطة، لكنها تدخل بترتيب كبير داخل عقل أسامة الذي ادّعى انشغاله بالوضوء مبتسمًا، ثم تحرك للخارج كي يصلي ليتقابل مع سلطان الذي جاء مهرولًا خشية ألّا يلحق بالصلاة.

ثوانٍ وارتفع صوت الإمام يعلن إقامة الصلاة، ليصفي أسامة ذهنه وكل أفكاره وينعزل مع صوت الشيخ.

وبعد الصلاة سجد سجدة طويلة يدعو الله أن يعينه ويكشف المجرم وينقذ ما تبقى من أرواح.

نهض يتنهد بصوت شبه منخفض، ليجد سلطان جواره يبتسم له مردّدًا:

- حرمًا يا ابني.

- جمعًا يا رب يا حاج.

ابتسم له سلطان وهو يحدق في وجه أسامة مطولًا قبل أن يهتف دون مقدمات:

- تعرف أنّك شبه ابني أوي؟

تفاجأ أسامة واتسعت عينيه ليربت سلطان على كتفه وهو يتكئ عليها ببطء ينهض مرددًا:

- ربنا يكفيك شر الدنيا ويوفقك في حياتك يا ابني.

ارتجف صدر أسامة بقوة وهو يشعر بالصدمة من كلمات سلطان، هو بالطبع أبصر صورة أحمد وأدرك الشبه بينهما، رغم أنّه لم يكن واضحًا، لكن يبدو أنّ ذلك الرجل الذي كان يتلمس طيف ولده في جميع الأوجه، أبصر الشبه لشدة اشتياقه، ابتلع ريقه وقد زاد تصميمه على معرفة ذلك الحقير الذي سوّلت له نفسه حرمان عائلات كاملة من أبنائهم.

نهض يتحرك صوب الخارج ليرحل، لكن فجأة توقف لا يبصر نعله الذي جاء به، نظر حوله يبحث عنه يحاول تذكر أين تركه، بالداخل أم هنا؟

فجأة سمع صوت خلفه يردد:

- خد يا ابني أي شبشب من عندك وعوض الله عليك.

نظر له أسامة بصدمة ولم يتحدث بكلمة فقط ارتدي النعل البلاستيكي والذي كان ضيقًا صغيرًا كما ذكر صلاح، تأفف بغضب

يتحرك صوب المنزل، كان يجر قدمه جرًا، لا يستطيع حتى التحرك في هذا النعل خطوة واحدة، ولولا أنّه لا يريد تلويث قدمه لكان سار دونه.

أخرج هاتفه ينظر للوقت قبل أن يقرر البحث عن أي محل أو شيء يحضر منه بعض الأشياء التي تحبها عفاف كي يسترضيها، وكله أمل أن يكون هناك خارج هذه الحارة مكان مفتوح.

تحرك يجر أقدامه بصعوبة خارج الحارة ينعطف في بعض الطرقات وقد أبصرت عينيه بعض الأضواء الخافتة بعيدًا وصوت المذياع يخرج من محل صغير خشبي في منتصف الطريق.

لكن وقبل التحرك صوبه توقف أقدامه حين سمع صوت استغاثة مكتوم يعلو من شارع جانبي، ضيق ما بين حاجبيه وهو يتحرك بصعوبة صوب ذلك الطريق وقد بدأت الصرخات تتضح أكثر.

تعجب يتحرك صوب المكان ببطء، لكن بدأت خطواته تزداد شيئًا فشيئًا حتى أصبحت هرولة بعدما خلع الخف وقد ازدادت ضربات قلبه يتحرك صوب صوت الصرخات، وقبل أن يدخل ذلك الشارع الجانبي المظلم اصطدم في جسد بعنف ليتراجع أسامة للخلف بتحفز، ولم يكد ينطق بكلمة حتى أبصر وجهًا يعلمه جيدًا، وجه مرتعب متعرق، وجسد يرتجف خوفًا وهلعًا، ليهمس بصدمة كبيرة:

- كريم؟

***

الفصل السابع

(ما قبل الشراكة)

تَجبّر كيفما شئت ففي النهاية ستموت صاغرًا، وتكبر كما تريد فبقايا جثتك يتقاسمها الدود في وجبة عشائهم بعدما تتلاشى عظامك بين الحصى والرمال.

وهو؟ هو تَجبّر وعاند وتكبر، لم يحسب حساب تلك اللحظة أبدًا، لم يظن يومًا أنّه قد يحيا حتى يرى الموت يطارده بهذا الشكل، كاد قلبه يتوقف مئات المرات وهو يركض في الشوارع المظلمة بعدما انتهى مع محمد ومدحت من بعض الأوراق في الشركة وتحرك للعودة، لكن توقفت سيارته في منتصف الطريق بعدما أصابها عطل مجهول.

وفجأة بدأ يسمع صوت خطوات خلفه جعلت قلبه يهتز لثوانٍ قبل أن يتنفس بصوت مسموع يكمل الطريق مخرجًا هاتفه يتصفحه دون اهتمام، لكن ودون سابق إنذار شعر بالخطوات خلفه تزداد وكأن أحدهم يهرول جهته.

توقف بصدمة يستدير نصف استدارة قبل أنْ تتسع عينيه بهلع يرى أحدهم يحمل سكين ويتحرك صوبه بتحفز وتأهب، جعله يدرك أنّه التالي على القائمة.

غامت عيون كريم بالخوف، وشعر أنّ جسده بالكامل تجمد من هول الموقف الذي يعيشه، هل هذا ما عاشه أصدقائه قبل رحيلهم، هل هذه الأفكار التي دارت في عقولهم قبل الموت، هل كان الأمر

بهذه البشاعة كما يشعر الآن؟

وقبل أن يسترسل في أفكاره شعر بقدميه تنقذه من كل ذلك وهو يهرول بشكل مخيف يصرخ بصوت مرتفع وقد أخذت دموعه تهبط بقوة، يصرخ ويستنجد وينتحب عسى أن يسمعه أحدهم وينقذه، استمر الأمر خمس دقائق، خمس دقائق رعب عاشهم كريم وهو يفر من موته وقد بدأ عقله يعرض عليه مشاهد من حياة عاشها ليعيث الفساد فقط، ظنًا ألّا موت سيناله.

كلهم سبقوه بهذه الطريقة وهو لن يكون التالي على قائمته، لن يستسلم له خاصة أنّه الآن على مشارف الدخول لمنطقته وهناك قد يجد مَن يُنقذه.

وأثناء ركضه من الموت اصطدم جسده بحبل النجاة -كما يعتقد- توقف بهلع يصرخ وهو يشير خلفه صوب الجسد الذي يلحق به صارخًا برعب:

- هيقتلني زي ما قتلهم كلهم هـ ...

كان يتحدث بهلع محاولًا ابتلاع ريقه وفمه قاحل كصحراءٍ لم ثروى لسنوات بقطرة غيث، الخوف والفزع من فكرة الموت في هذه اللحظة شلّه ومنعه عن الحديث.

تحركت عين ذلك الرجل الذي اصطدم به كريم، ولم يكن سوى أسامة الذي بمجرد رؤيته وجه كريم الشاحب حتى أدرك ما يحدث فتحرك بعينيه سريعًا صوب مَن يلاحقه ليرى جسد أخفاه الظلام يغطي وجهه بشالٍ أبيض يحمل بين يديه سكينًا متعرّجًا غريب

أسفل إضاءة المصباح الوحيد في هذا المكان ليعطيه مظهرًا إجراميًا بامتياز.

ثوانٍ فقط استغرقها أسامة قبل أن يركض بسرعة كبيرة صوب ذلك الجسد وهو يجاهد ليصل له، بينما كان الجسد سريعًا بشكل مخيف وكأنّه عاش حياته يركض.

دخل في شوارع وطرقات وأزِقّة ضيقة بطريقة جعلت أسامة يبتسم بشكل غامض وقد أكّد له الآن شيئًا كان يشك به طوال الوقت؛ هذا القاتل لا يُمكن أن يكون من خارج هذه المنطقة، هذا شخص وُلد وترعرع بين أزقة هذه المنطقة، زاد من ركضه يحاول الوصول له، لكن كانت ثوانٍ فقط حتى تبخّر بالكامل من أمامه وبشكل مخيف وكأنّه كان يطارد شبحًا.

توقف أسامة في منتصف الطريق يتنفس بصوت مرتفع يستدير يمينًا ويسارًا يبحث بين الظلام عنه، حتى شعر بذهول، لا يرى أثرًا له وكأنّه ما كان.

ابتسم أسامة بغموض:

- أنا كنت صح.

***

بعد ساعة تقريبًا..

مالت رأسه لتسقط على كتفها فازداد تأفف هند وارتفع صوت حنقها وهي تنفضه بعيدًا بغيظ وغضب:

- يا عم ابعد بقى مش كفاية البلوة التانية؟

ختمت حديثها تشير صوب عفاف التي استقرت على كتفها الثاني نائمة براحة شديدة، بعدما أقلق أسامة نومة الجميع، أخذ يتصل بهم جميعًا صارخًا لأجل اجتماع طارئ، ثم كعادته اختفى تاركًا إياها تجلس مع هذين الاثنين تجاهد كي لا تقتلهم وتخفي جثتيهما أسفل الأريكة قبل عودة أسامة من الداخل.

- يا الله يا ولي الصابرين، هو أنا كنت خلفتكم ونسيتكم؟ اعتقوني لوجه الله.

تمتمت عفاف ببعض الكلمات وهي تضم ذراع هند لها، تبتسم مرددة بهيام وبلا وعي:

- وأنا كمان بحبك يا أسامة.

استدارت لها هند بغيظ شديد تدفعها عنها، ثم صفعتها بضيق:

- أنتِ عار على كل النساء، ناقص تروحي تبني ليه معبد تعتكفي فيه طول اليوم.

نظرت جوارها لجلال الذي كانت رأسه متدلية عن الأريكة بشكل مضحك تشير له مؤنبة عفاف متحسرة على حالتها التي تحزنها:

- بصي على جلال كده؟ عبيط وعلى الله وكحيان ومفيش فيه ميزة تشفع له عند جنس النساء ورغم كده تقيل وشايف نفسه معرفش على إيه، مكنتش متخيلة إنّي أقول كده في يوم من الأيام، بس يا ريتك كنت بنص تقل جلال.

فجأة شعرت هند بالثقل ينقشع عن أكتافها لتظن أنّ عفاف استيقظت وأخيرًا، لكن خاب ظنها وهي ترى أسامة قد مال يلتقطها بحنان ثم تحرك بها صوب الأريكة سند جسدها لجسده يقول بهدوء:

- ملكيش دعوة بمراتي يا هند وخليها برة المنظمة بتاعتك، بلاش تزرعي الأفكار الخبيثة دي في عقلها.

- أفكار خبيثة؟ طبعًا ما هو كل اللي بتعمله على هواك ومش عايز تخسر الست اللي بتبجلك، هقول إيه ما أنتم كده تموتوا في اللي تعيش عبدة ذليلة ليكم، لكن اللي تعرف حقها وتعافر علشانه وتقف في وشكم تبقى وحشة وبتروج لأفكار خبيثة.

اتسعت عيون أسامة وهو يسمع كل تلك المحاضرة فقط لأجل كلمة خرجت منه -ويقسم على ذلك- بحسن نية، فتح فمه بسرعة ليصحح لها مقصده، لكن هيهات وقد شعرت هند في داخلها بجرح مس مكانة المرأة وكرامتها.

- أوعاك تكون فاكر علشان هي عبيطة وعلى نياتها الحياة بينكم هتكون وردي وجميلة، لا أنسى يا عو ده أنا ليكم بالمرصاد أنت والأستاذ اللي نايم ده، وأي واحد فيكم عقله يوزه ويفكر يستقوى على بنت أنا اللي هقف ليه، طالما متجوزين نساء مقهورات فأنا اللي هدافع عنهم منكم يا شوية ذئاب بشرية بتتغذى على ضعف اللي حواليهم.

ختم حديثها وهي واقفة تشير بيديها في الهواء وكأنها تلقي خطبة عصماء يستمع لها ملايين المهتمين بحقوق المرأة.

وكان الرد على تلك الخطبة التي استمرت لدقائق دون رد من أحد، هو صوت شخير جلال الذي ارتفع وتمتماته التي ازدادت، تحركت عيون أسامة صوبه، ثم عاد لهند يقول بهدوء وجدية:

- طب والمتخلف ده ذنبه إيه؟ بالله عليكِ جلال ده منظر راجل متعصب ولا شخص ممكن يجي على النساء؟ مكانش ده بقى حاله، دي عفاف اللي بتقولي عليها ضعيفة بتاكله حاف وتبلع بعده بكوباية نعناع، فاتهدي علشان محدش مظلوم في الفريق ولا مقهور هنا قدي.

فتحت فمها لتتحدث لولا صرخة أسامة بها التي تسببت في انتفاضة كلٌ من جلال وعفاف بفزع:

- ما خلاص يا هند خلصنا، خلينا نتكلم في الشغل وبعدين يبقى نناقش في حقوقكم اللي كل ما نخلص شوية منها تطلعوا لينا بند جديد فيها، اترزعي واسمعي.

كانت رؤية عفاف مشوشة وكذلك جلال الذي بدأ ينظر حوله محاولًا استيعاب مكان تواجده، وما هي إلّا ثوانٍ قبل أن يعلو صوت أسامة يتحدث بجدية:

- فوقوا ليا كده علشان حصل حاجة جديدة في الموضوع.

نظر له الجميع باهتمام، ومحاولة بائسة كي يتحكموا في أعينهم ويطردون النعاس الذي يحاول فرض سيطرته مرة أخرى.

- اللي شكيت فيه طلع صح.

حلقت حوله الأنظار باهتمام كبير وقد شعر الجميع أنّ ما اكتشفه

أسامة سيغيّر مجرى تفكيرهم وقد كان.

- اللي عمل الجرائم دي واحد من أهل الحارة دي، واحد عارف المكان والناس كويس أوي، واحد يقدر يجري بين الطرقات من غير ما يتوه ولا يدخل شارع مسدود بالغلط.

ولم يدرك الجميع سبب كلمات أسامة تلك ليبدأ هو في الشرح ويقص عليهم ما حدث له أثناء عودته من الصلاة، ولم يغفل عن ذكر أمر النعل.

تناقل الجميع النظرات فيما بينهم بتفكير قبل أن تتحدث هند مخمنة:

- يعني لو افترضنا إن فردة الشبشب اللي أسامة صورها جنب الترعة راجعة للي عمل الجريمة، فده معناه أنّه لازم يكون مقاس رجله ما بين ٤٢ لـ ٤٣ مش أكتر من كده، حد مقاسه زي جلال مثلًا.

انتفض جلال لسماع اسمه يدافع عن نفسه بضراوة وكأن هند ألقت التهمة في وجهه:

- والله ما عملت حاجة ولا قتلت حد.

استدار له الجميع بحنق قبل أن يردد أسامة:

- والله مقاس رجلك أكبر من عقلك يا جلال، اخرس شوية مش نقصاك.

تنهد يحاول التفكير ثم قال:

- المفروض لو تحليلنا صح يبقى صحيح كلامك، أصل مش معقول

أكون بجري ورا واحد علشان أقتله وبعدين أشيله علشان أرميه في الترعة وكل ده وأنا لابس شبشب أصغر من مقاسي، ده أنا مكنتش عارف أمشي بيه خطوتين على بعضهم.

أردفت عفاف بتفكير:

- معنى كده أننا محتاجين نشوف مقاس رجل كل المشتبه فيهم ونصنفهم حسب مقاس الشبشب.

كان الأمر يبدو مضحكًا، بل مضحكًا للغاية، فدليلهم الأول الذي يستندون عليه ما هو إلا "شبشب"، قد يدلهم على القاتل أو ينفي تهمة عن بريء.

تشنجت ملامح جلال بحنق:

- وإحنا هنعمل كده إزاي معلش؟ هنمشي بفردة الشبشب على البيوت نقيسها على رجول الناس؟ إيه سندريلا؟

نفى أسامة يستند بذقنه على يده مرددًا:

- لا هنفضل على نفس التقسيمة عادي، بس خلال ده كله نركز مع المشتبه فيهم ومقاس اللي بيلبسوه في رجولهم، يمكن نوصل لحاجة.

الأمور تزداد تعقيدًا حولهم، ولا يدرون ما الذي يحدث متخبطين بين الأدلة في محاولات بائسة للوصول إلى حل، لكن هل يحدث هذا قريبًا؟

***

توقفت أمام المنزل الذي دلّها عليه أهل الحي تتنفس بصوت مسموع تُذكّر نفسها بتعليمات أسامة، ثم رفعت يدها تطرقه بهدوء منتظرة الإجابة، وثوانٍ حتى وصلها صوت رجولي يجيب:

- أيوه لحظة.

دقيقة مرت عليها تتقلب بضيق أمام الباب، قبل أنْ يفتح أحد الرجال الباب مُتعجّبًا:

- أيوه اتفضلي.

ابتلعت ريقها تردد بهدوء:

- أنا كنت سمعت ... أنا يعني كنت ببيع هدوم عرايس وكده وسمعت إنّ فيه عروسة هنا بتتجهز مش كده؟

رمقها الرجل طويلًا قبل أن يحرك الباب ليغلقه في وجهها بكل وقاحة، لكن عفاف لم تدعه يُكمل إغلاق الباب توقفه بحدة مرددة:

- إيه يا أستاذ قلة الذوق دي، بتقفل الباب في وشي؟ هو أنا بشحت منك؟

تنهد الرجل بصوت مسموع يردد بضيق:

- معندناش عرايس هنا يا ست.

أوقفته عفاف قبل أن يُغلق الباب للمرة الثانية وقد شعرت بالغضب يتدافع بين أوردتها وكأنّ روح هند تلبّستها في هذه اللحظة تقول بصوت شبه مرتفع:

- حتى لو مفيش، ده ميديش ليك الحق تقل أدبك وتقفل الباب

بالشكل ده وأنا لسه واقفة، ولا هو أهلك مقالوش ليك كده غلط ولا إيه؟ ثم مفيش عرايس إزاي؟ والآنسة ديانا اللي جوا مش هي برضو مخطوبة؟

شعر الرجل بالضيق والذي لم يكن سوى مينا الذي صرخ بحنق وغضب:

- لا يا ستي مش مخطوبة، أختي فسخت و ...

- ومين بقى اللي فسخ مع أختك يا أستاذ؟

رفع مينا عينيه بسرعة صوب الجسد الذي توقف خلف تلك المرأة المزعجة والذي لم يكن صاحبه سوى كريم الذي جاء بناءً على مكالمة هاتفية من مخطوبته تخبره بتجبر أخيها عليها ورغبته في إنهاء الخطبة والرحيل بها عن مصر بأكملها.

- أنا اللي فسختها، عندك مانع، خلاص بطلنا ميشرفناش نسبك.

اندفع له كريم يهتف بصوت قاسٍ، ونبرة حادة نابعة من إحساسه بالضيق من حديث مينا وتصغيره له بهذا الشكل وكأنّه لا شيء، وليس من إلغاء الخطبة نفسها:

- لم لسانك واحترم نفسك يا مينا علشان أنا كل ده ساكت احترامًا لأبوك الراجل الطيب اللي كان خيره على الكل.

- ويا ترى بقى أنت رديت جميل أبويا اللي كان خيره على الكل إزاي يا حيلتها؟ ضحكت على بنته وخليت سيرتها على كل لسان في الحارة.

اشتعل وجه كريم ينظر صوب عفاف التي كانت تتابع ما يحدث باهتمام وترقب، عسى أن تخرج كلمة بالخطأ تفيدهم لاحقًا.

زجره كريم بنظرة قوية مشددًا على كلماته:

- بلاش تتخطى حدودك يا مينا علشان متزودش اللي جوايا ناحيتك.

اقترب منه مينا بتحفز جعل جسد عفاف يخرج من بينهما بسرعة وخوف أن تحتد النظرات أكثر فتصيبها في مقتل دون إدراك منهما لوجودها حتى:

- ولو زاد هتعمل إيه يا سبع البورمبة؟ هتأجر رجالة يضربوني زي ما عملتها قبل كده أنت وصحابك، ولا هتهددني بالقتل زي ما عملتها مع سالم قبل كده وطعنته في نص الحارة.

اتسعت أعين عفاف بصدمة كبيرة مما سمعت وشعرت أنّ الكثير والكثير سيُقال في هذه اللحظة، لذا ابتلعت ريقها وحاولت التحكم في ردود فعلها كي لا ينتبه لها أحدهم في غمرة غضبه وحقده فيتوقفون عن الحديث، حتى أنّها حاولت التحكم في صوت أنفاسها كي لا تزعجهم في جلسة الصراحة تلك.

بلل كريم شفتيه يهمس له بصوت شبه مسموع:

- لو وصلت لكده هعملها يا مينا، بس مش هيكون تهديد، أنا اللي يقف في وشي أفرمه.

- ده لو عشت لغاية ما تعمل كده يا باشمهندس كريم.

نظر له كريم بعدم فهم فابتسم له مينا بسمة جعلت كريم يتراجع للخلف وقد ضربته ذكرى البارحة حينما كان قاب قوسين أو أدنى من الموت على يد مجهول، وفي ثواني اشتعلت رأسه غضبًا وقد ضربته فكرة أنّه ربما كان ذلك الحقير هو نفسه مَن حاول قتله.

- هو أنت؟

نظر له مينا بعدم فهم:

- أنا إيه؟

وقبل إكمال كلماته اندفع كريم يقبض على تلابيب ثيابه بغضب يصرخ في وجهه:

- أنت اللي كنت بتحاول تخلص عليّ امبارح صح؟

اتسعت أعين مينا بصدمة يصرخ في وجهه محاولًا الفكاك من قبضته:

- أنت اتجننت، أخلص على مين يا مخبول أنت؟ اوعى كده لاحسن والله أعملها بجد.

لكن كريم لغى عقله في هذه اللحظة وهو يشعر بالرعب أن يتركه الآن فيحاول مرة ثانية وينجح، يردد كلمات بهذيان غير محسوب:

- فاكر أنك لما تقتلني يبقى كده سرك اندفن معايا؟ لا اصحى ده أنا أفضحك وأفضح اللي خلفوك لو قربت مني بس يا مينا، سامع، والله ما هيهمني حاجة وهفضحك وأفضح اللي عملته زمان.

اشتعلت عيون مينا بقوة وقد زاد غضبه كمارد خرج لتوه من

مصباحه بعد سجن لقرون طويلة:

- وأنا لو وقعت مش هقع لوحدي يا ... صاحبي، ولا ناسي أنّنا كنا فيها سوا يا غالي.

فتح كريم فمه للرد، لكن فجأة انتبه لوقوف عفاف التي تحدق فيهم باهتمام شديد جعلها تبعد عينيها بسرعة وهي تردد بضيق في نفسها:

- أخد باله مني، أخد باله مني.

تحركت عينيها صوبهم تقول بصوت خافت تدّعي أنّها لم تكن حتى مهتمة لهم وهي تتفحص حقيبتها التي أتت بها:

- يعني هو فيه عروسة ولا أروح أشوف حد تاني يشتري مني؟

نظر لها كريم ثواني نظرات جعلتها تشعر بانقباضة في صدرها قبل أن يبتسم بكل هدوء مردّدًا:

- لا فيه يا أستاذة، بس معلش فيه ظروف عائلية دلوقتي فمش هتعرف تشتري حاجة، أبقى عدي عليها مرة تانية.

هزّت عفاف رأسها ولم تجادله بكلمة وهي تود الهرب من أمامه بسرعة كبيرة وقد بدأ وجيب قلبها يرتفع من نظراته المريبة لها.

اختفت وما زالت نظرات كريم تلاحقها حتى تلاشت من أمام عينيه، ليعود بنظره صوب مينا يدفعه داخل المنزل:

- خلينا نتفاهم جوا كفاية أوي كده يا صاحبي.

***

- هو مينا مجاش النهاردة ولا إيه؟

كان ذلك سؤال أسامة الذي أخرجه بكل تلقائية وبراءة وهو يتسلم من صبي المقهى كوب المشروب الخاص به، لينفي الصبي برأسه مردّدًا:

- لا مجاش من الصبح مع أنّه متعود من زمان يجي كل يوم الصبح ياخد الشاي والشيشة بتاعته قبل ما يروح المحل.

ارتشف أسامة وهو يردد بجدية:

- هو عنده محل هنا ولا إيه؟

- لا يا باشا ده محل كده بيشتغل فيه من كام سنة مش بتاعه يعني، من وقت ما ساب الشغل في الشركة بتاعته وهو بقى بيشتغل فيه.

ضيق أسامة ما بين حاجبيه وقد شعر بأنّه الآن على أعتاب معلومة جديدة قد تفيده.

- شركة؟ هو كان شغال في شركة قبل كده؟

هز الصبي رأسه وهو يجيب باهتمام شديد:

- أيوه ده الأستاذ مينا كان زمان محاسب في شركة كبيرة أوي، بس مرة واحدة سمعنا أنّه سابها وبدأ يشتغل في المحلات اللي هنا ماسك الحسابات بتاعتها يعني.

- شركة إيه دي اللي كان شغال فيها؟

وفي الحقيقة أسامة وللمرة الأولى لا يُحسن إخفاء فضوله، لكن ذلك الصبي البسيط لم يكن يدرك أنّه الآن يخضع لتحقيق من قِبل أسامة، وقبل أن يجيب سؤاله ارتفع صوت أحد الزبائن ينادي الصبي ليحضر له طلبه، فاستأذن ورحل تاركًا بقايا فضول أسامة تتغذى على عقله.

رفع كوب المشروب الذي جاء به الصبي يرتشف منه بتمهل وعقله سافر بعيدًا عن واقعه يحاول معرفة أي شيء متعلق بماضي مينا؛ لربما كان ذلك بداية الحل كما يشعر ويأمل.

***

ألقى الأوراق على الطاولة بحنق، ثم رفع كوب الماء يتجرعه دون توقف، وبعدها ضرب الكوب على الطاولة يصرخ بحنق معترضًا على ما يحدث:

- ده كله غش، قلت لكم مش بحب الغش.

رفع صلاح طرف شفتيه متشنّجًا من حديث جلال، ذلك الشاب الذي أضحى مع الأيام رفيقًا ثالثًا لجلساته مع سلطان دون معرفة كيف بدأ الأمر أو سبب تقبلهم له بينهما، لكن ربما افتقادهم للرفقة أو رغبتهم في مشاركة أحدهم الجلسة كي يبتعدوا بأفكارهم عمّا أصابهم.

- أنا بغش ولا أنت اللي حمار وكل ورقك باين؟

ضُدم واحتج جلال على كلماته:

- يعني بتغش، شوفت الورق بتاعي، يعني أنا صح وأنت غشاش.

أطلق صلاح ضحكات صاخبة تخللها بعض أصوات السعال، قبل أن يتوقف ويقول بسخرية:

- ما أنت لو قدامك حتة لحمة حمرا وملبسة ومأكلتهاش تبقى عبيط، يعني عارض كل الورق بتاعك عايزني أعمل إيه؟ أغض بصري؟

نظر جلال صوب سلطان يتحدث بحنق شديد:

- سامع يا حاج سلطان!

ضحك سلطان بصوت مرتفع عليهم:

- معلش يا ابني هو عمك صلاح طول عمره غشاش من وقت ما ربنا خلقه.

صمت يرتشف بعض المياه كي يهدأ، ثم قال بهدوء وهو يستفز صلاح بكلماته عالمًا جيّدًا أنّه يكره التحدث في هذا الأمر والإشارة لطفولته التي كانت مليئة بالاحتيال:

- من صغره كان يموت في الغش والضحك على الناس ولما كبر وقولنا هيتوب ورّث ده لعياله، وطلعوا زيه وأكتر.

ختم حديثه يضحك بصوت مرتفع جعل صلاح يلقي ما بيده على الطاولة حانقًا غاضبًا:

- ما خلصنا يا سلطان، أنت هتفضل تعيد في اللي فات؟

ابتسم له سلطان يهز رأسه بهدوء، يولي انتباهه للشارع أمامه شاردًا:

- خلاص يا صلاح خلصنا، مكانتش كلمة قولتها جات على الجرح يعني، بعدين أنت زعلان ليه؟ علشان عيالك يعني؟ ما كل العيال مش متربية عادي.

- يعني أنت مربتش أحمد؟

انتفض جسد سلطان وهو يحرك عينيه صوب جلال الذي أجاد اختيار الوقت لإلقاء سؤاله وإثارة حنق وغضب حتى وإن لم يقصد ذلك، إلّا أنّه أحسن انتقاء الوقت والكلمات دون شعور منه حتى، إذ انتفض سلطان الذي ضرب الطاولة:

- لا، لغاية ابني وتسكت، مفيش واحد في الحارة دي عرف يربي ابنه قد ما ربيت أنا أحمد، ابني كان محترم كل غلطه أنّه اتلم على الناس الغلط، صاحب ناس مش شبهه ولا زيه؛ وأهو ضاع مني بسببهم وبسبب عمايلهم اللي جروه ليها.

ختم حديثه يتنفس بصوت مرتفع ويرمي جلال بنظرات مخيفة جعلت الأخير يتراجع بصدمة للخلف من انفعاله غير المبرر، فهو مَن بدأ كل ذلك منذ ثوانٍ وعلى عكس صلاح كانت ردة فعله مخيفة بحق.

تحرك سلطان من أمام جزارة صلاح غاضبًا ساخطًا على العالم بأكمله وقد أجاد جلال تحديد جرح سلطان وضغط عليه بقوة مخرجًا قيحه.

أبصر صلاح اتساع عيون جلال وصدمته ليربت على كتفه:

- اشرب يا ابني الشاي بتاعك مش كل مرة تشربه بارد.

- هو ... هو ماله؟

- هو كده كل ما حد يجيب سيرة أحمد بيلبسه مائة عفريت، سلطان كان متعلق بأحمد زي العيل الصغير، ضيع عمره كله ومرضاش يتجوز بعد موت مراته علشان خاطر ابنه ويربيه أحسن تربية، والحق يتقال الواد كان كويس، بس الله لا يسامح اللي كان السبب بأنّه يحرمه منه ويحرمني من ابني.

حدق به جلال في فضول يهمس بصوت منخفض وكأنه يخشى نطق السؤال بصوت مرتفع:

- هو بجد صحاب أحمد كانوا هما السبب في موته؟

رمقه صلاح باستنكار شديد:

- أنت هتمشي ورا كلام سلطان؟ ما هما التانيين راحوا وراه، لو كانوا السبب كان زمانهم عايشين، منكرش أنّهم كلهم كانوا بتوع مشاكل وأولهم أشرف ابني بس مش لدرجة يكونوا السبب في موت أحمد، هو بس سلطان لغاية دلوقتي مش راضي يتقبل قتل ابنه.

ختم حديثه بتنهيدة حارة متذكرًا بِكره الذي رحل تاركًا إياه يحمل المنزل والعائلة أعلى أكتافه بعدما كان يشاركه في إدارة المنزل.

- هو... هو أنا ليه مش بشوف أهالي الولاد اللي ماتوا معاك أنت وعم سلطان هما مش صحابكم؟

هز رأسه بهدوء يجيب باقتضاب:

- نصهم سابوا الحارة بعد اللي حصل ومتبقاش غير القليل

وملهمش اختلاط بحد، بعدين أنا وسلطان صحاب من وقت ما كنا عيال.

فتح جلال فمه للتحدث، لكن قاطع ذلك اقتراب امرأة منه تتحدث بهدوء وبسمة واسعة:

- صباح الخير يا عم صلاح، معلش اقطعلنا كيلو ونص لحمة بسرعة لأحسن مستعجلة.

نهض صلاح ليحضر طلبات المرأة، تاركًا جلال ينظر أمامه بشرود فيما قيل منذ ثوانٍ.

***

"حاولي تعرفي منه كانوا بيعملوا إيه قبل الشراكة"

كانت تلك الكلمات تنير شاشة هاتف هند التي أخرجت هاتفها وهي تجلس مع شقيق مدحت لشرح دروسه، وحينما عجزت عن فهم كلمة مما ترى أمامها أخرجت الهاتف لتجد تفسير لكل تلك الرموز الكيميائية الغريبة متمنية لو كانت عفاف هنا بدلًا عنها، ففي النهاية هذا مجال دراستها ولا تتقن شيء بقدره.

لكن وأثناء بحثها في الهاتف عن شيء يرشدها لحفظ ماء الوجه أمام هذا الطفل، أبصرت رسالة أسامة التي لم تفهم منها سوى أنّ عليها النبش في ماضي السبعة، وما قبل الشراكة تحديدًا.

حركت عينيها في المكان تبحث عن أي أثر لمدحت الذي لم تبصر طرفه منذ جاءت رغم رؤيتها لحذائه خلف باب المنزل.

ثوانٍ وسمعت صوت والدة مدحت تخرج من المطبخ تردد:

- واد يا إسلام، تعالى بسرعة انزل هاتلي بجنيه كبريت.

ابتسم إسلام بسعادة لحصوله على الكارت الأخضر للهروب من المكان ومن أمام هند، يلتقط من والدته الأموال يهرول للأسفل بأمل أن ينساه الجميع ويندمج مع أقرانه في اللعب.

ابتسمت والدته بحرج لهند تقول:

- معلش يا أبلة هند خمسة بس ويرجع على طول، والله لولا بس متأخرة في الأكل وعلاج مدحت كنت نزلت بنفسي ومقاطعتش الدرس.

ودت هند لو تشكرها على صنيعها، لكن لفت انتباهها كلمات المرأة لتقول بجدية تتوقف على كل همسة تخرج أمامها:

- ليه هو المهندس ماله ألف سلامة عليه؟

لوت والدة مدحت فمها وهي تجلس أمام هند متناسية الطعام الذي عليها الانتهاء منه لأجل ولدها:

- والله يا بنتي ما أعرف ماله هو كل فترة كده يسخن ويتعب ويقعد يخرف بكلام مش مفهوم ويفضل ينادي أسماء معرفش مين ومين، كل ده بدأ من وقت ما شاف صحابه بيروحوا واحد ورا التاني.

ضيقت هند عينيها وودت لو سمحت لها المرأة بالدخول لغرفة مدحت وإلقاء نظرة، لكن بالطبع لن تفعل، ابتلعت ريقها وهي تسمع

صوت المرأة تضرب فخذيها بحسرة على حال ولدها:

- ياما قلت له يا بني بلاها الشراكة الزفت دي، من يوم ما شاركهم وهو حاله من سيء لأسوء.

هل حظها جيد لهذه الدرجة أم هي إرادة الله في كشف المستور؟

المرأة فتحت لها باب لما تريد الوصول له دون حتى أي مجهود منها في طرقه.

- ليه هو المهندس مكانش شغال معاهم من الأول؟

رمقتها السيدة بحسرة:

- لا كان شغال في شركة الأول مع أحمد ابن سلطان البقال، كان كل واحد فيهم شغال في شركة مع نفسه، وكانت الدنيا مستورة معاهم لغاية ما جه سالم أقنعهم يسيبوا الشغل ويدخلوا معاهم شركاء في الشركة بتاعتهم هما التمانية.

ضيقت هند عينيها بعدم فهم تردد:

- تمانية؟ هما مش سبعة؟

اتسعت عيون هند بقوة وهي تدرك أنّها لتوها انجرفت في الحديث وصرحت بمعلومة من المفترض أنّها تجهلها أمام الجميع، توترت تحاول لملمة ما قالت بتردد

- أصل يعني ... اللي سمعته من الناس هنا أنّهم كانوا سبعة صحاب، فاستغربت أنّك بتقولي تمانية!

نظرت لها السيدة تبتسم بتحسر وسخرية:

- لا كانوا تمانية، بس التامن يا أختي ناصح وعرف يفلت منهم مش زي ابني اللي لبس في بلاويهم وبقى مستني دوره زيهم.

لم تهتم هند بكل تلك التحسرات والخيبات التي تعبر عنها المرأة تقول بجدية وكأنّها تُخضعها لتحقيق:

- ومين التامن ده؟ حد من هنا يعني؟

هزت السيدة رأسها تجيب ببساطة ملقية قنبلتها:

- أيوه، شاب اسمه مينا جارنا هنا.

اتسعت أعين هند وقد شعرت بعقلها يكاد ينفجر، إذن مينا كان أحد المشاركين للفتية في الشركة وتركها وانعزل عنهم، ما السبب؟ هل أُجبر على ذلك فعاد لينتقم؟ أم حدث الشقاق بعد حادثة شقيقته وذلك الفاسق كريم؟

***

رفض أسامة أن ينهي يومه دون كشف ما يريد الوصول له، سمع رنين هاتفه وحينما أبصر اسم عفاف أجاب بهدوء وهو ما يزال يجلس على المقهى في انتظار أن يطل عليه مينا، لربما جاء قبل غروب الشمس أو ما شابه.

- ألو يا عفاف؟

- أنا كنت عند بيت البنت اللي خطبها كريم، وهناك حصل حاجة غريبة.

جذبت كلمات عفاف انتباه أسامة ليعتدل في جلسته يقول بهدوء

شديد:

- غريبة إزاي يعني؟ حصل إيه؟

جلست عفاف على الأريكة في المنزل تلقي ما كانت تحمل بتعب على الطاولة تردد بجدية وهي تدور بعينيها في المكان:

- كان بيقول أنه خلاص فسخ الخطوبة بين أخته وبين كريم، وقبل ما يكمل كلامه طب علينا كريم وحصلت بينهم خناقة كبيرة، قعد وقتها كريم يهدد مينا بكلام مش مفهوم، كريم ده تقريبًا ماسك ذلة على الشاب ده أكبر من حوار أخته.

كان أسامة يحرك أصابعه على الطاولة جواره يفكر في كل ما قيل، يشعر أن بداية الحل بيد مينا؛ كل الطرق تؤدي إلى مينا.

- تمام يا عفاف لما أجيلك بالليل هنتناقش في الموضوع ده أكتر.

هزت عفاف رأسها وهي تتحرك صوب غرفتها وكأنه يراها:

- ماشي أنا بس قولت أعرفك علشان لو قابلته تحاول تفهم أي حاجة عن الموضوع.

- تسلمي يا فوفا، أنا شوية وهطلع.

ختم حديثه ببسمة وحنان، ثم أغلق الهاتف وانتبه لما يدور حوله وشعر باليأس لعودة مينا اليوم للمقهى، فقرر بتهور أن يذهب لمقر عمله الحالي ويحاول استمالة مَن هناك بالحديث.

نهض ينادي الصبي ليعلم منه مقر عمل مينا الحالي، وبمجرد أن وصل له الصبي وقبل أن يتحدث أسامة بكلمة انتفض للخلف بفزع

على صرخة الصبي الحماسية:

- أهلًا يا باشا نورت الدنيا كلها، والله الحارة كلها نورت بقالك كتير مجيتش عندنا يعني.

تعجب أسامة ما حدث وهو يستدير صوب الجهة التي يتحدث لها الصبي لمعرفة مَن ذلك الذي يتلقى كل تلك التهليلات والترحيبات، ليبصر رجلًا يبدو في منتصف الأربعينات من عمره يهبط من سيارة لا تليق بأي شكل من الأشكال على المكان حوله، يتحرك بهدوء صوب الأزقة المتداخلة بعدما ترك السيارة في الخارج لعدم تمكنه من التحرك بها في الشوارع الضيقة، يشير بكفه للصبي، ومن ثم اختفى ليتعجب أسامة متسائلًا بهدوء:

- مين ده؟ شكله راجل غني.

نظر له الصبي بحماس يُمنّي نفسه بحضور الرجل لهم قبل رحيله والحصول على بقشيش يكفيه يومين كآخر مرة:

- إيه اللي غني، ده غني وغني وغني، ده واحد من الكبارات اللي ماسكين البلد، مرة جه هنا عطاني بقشيش ٢٠٠ جنيه بحالهم.

رفع أسامة حاجبه ينظر بفضول للطريق الذي سلكه الرجل يردد بهدوء ونبرة شبه فضولية:

- وهو واحد غني زي ده بيجي حارتكم يعمل إيه؟ مش غريبة دي؟

- ولا غريبة ولا حاجة تلاقيه جاي للأستاذ مينا، ما هو ده كان المدير في الشركة اللي بيشتغل فيها الأستاذ مينا قبل كده اللي قلت لك عليها.

نظر له أسامة بفضول كبير وعيناه تلمع بقوة والحماس تدافع في شراييه، هل هو محظوظ أم أنّ الحقيقة ملّت الاختباء وقررت الإعلان عن نفسها فوضعت له الأدلة في طريقه:

- مدير مينا القديم؟

هز الصبي رأسه يتحرك ليلبي طلبات الزبائن متأففًا، لكنه وقبل الرحيل ألقى في وجه أسامة قنبلة جعلته يتصنّم في أرضه وهو يقول ببساطة شديدة:

- أيوه الأستاذ خيري كان المدير في شركة مينا القديمة.

الفصل الثامن

(تشابكت الخيوط)

الحقيقة، كلمة يسعى لها الكثيرون، وينالها القليلون.

كان هو وفريقه من هؤلاء القليلين الذين تعهدوا على كشف كل الحقائق المستترة، وكان بداية كشف هذه الحقيقة هي كلمة خرجت من فم صبي المقهى، قالها ببساطة، لكن وقعها على آذان أسامة لم تكن بمثل بساطة خروجها من فمه.

ظلّ أسامة واقفًا مكانه يحاول استيعاب ما سمع منذ ثوانٍ، شعر أن عقله ينفجر، ما الذي يحدث حوله، وما كل تلك الخيوط المتشابكة؟

تنفس ينظر حوله يحاول إخفاء جميع انفعالاته يتحرك صوب المنزل الخاص به ليجلس قبل اجتماع الكل مساءً يحاول تجميع أفكاره بشكل صحيح.

***

دخل المحل الخاص به يتنفس بعنف وغضب، يكره ويبغض كل مَن يتحدث بكلمة واحدة عن ولده، وهذا الجلال لم يكتفِ فقط بالضغط على جروحه، بل أجاد استحضار ندمه، الندم الذي يتجرعه كاسات كل يوم، ندم تسليم ولده الوحيد لشياطين الإنس.

كل هذا خطؤه هو، هو مَن تسبب في رحيل ولده وفقدانه، كان عليه منعه منذ البداية، كان عليه أن يحرمه مرافقة هؤلاء الفاسدين،

كان عليه فعل ذلك قبل اليوم المشؤوم الذي فقده به.

- رايح فين يا أحمد كده؟ أنا جهزت الأكل، مش هتاكل معايا؟

توقف أحمد عما يفعله ينظر لوجه والده ببسمة صغيرة رغم أنّها لم تكن صافية كعادته، كانت متوترة مهتزة وكأنّه على وشك ارتكاب جريمة أو ما شابه.

- لا يا حاج كل أنت أنا هروح مشوار على السريع بعدين هطلع أخلّص شوية شغل مهمين.

ولم يكن سلطان في هذا الوقت مدركًا لأي شيء يتعلق بعمل ولده سوى أنه على وشك الخوض في مشروع جديد سينقلهم لحياة أخرى:

- ده بخصوص المشروع الجديد؟ وصلتوا لإيه صحيح؟

توقفت يد أحمد عمّا يفعله حيث كان يربط رباط حذائه، ونظر بطرف عينيه لوالده لعدة ثوانٍ قبل أن يقول بنبرة جامدة بشكل غريب عنه:

- لا ما هو مش هنكمل في المشروع ده.

ترك سلطان ما بيده يتحرك صوب أحمد متعجبًا من كلماته:

- ليه بقى؟ مش ده كان مشروع الأحلام؟ المشروع اللي قعدت تقول لو اتيسر هتتنقلوا نقلة تانية؟ حصل إيه؟ حد عمل مشكلة يعني؟

اهتزت نظرات أحمد وهو يهرب بنظراته من والده:

- هو ... هو يعني مش مناسب لينا وأنا ... أنا اللي رفضته مش حد.

ازداد اندهاش سلطان يقترب من ولده يقف في وجهه ينظر لعينيه يحاول اختراق روحه ومعرفة ما يُخفي خلف كلماته البسيطة تلك، لكن أحمد أبعد عينيه يهمس بصوت خافت:

- الناس دول مش شبهنا و ... المشروع ده الضرر اللي هيجي من وراه أكبر من نفعه، والحقيقة أنا مش مستريح لكل ده.

- حصل حاجة ولا إيه؟ أنت مخبي حاجة عني يا أحمد؟

نظر له أحمد بتردد؛ لم يعتد إخفاء شيء عن والده يومًا، بل كان صندوقه الأسود مذ كان طفلًا، أكبر أسراره أنّه فعل مقلبًا في أحد أصدقائه، ابتلع ريقه يردد وهو يربت على كتف والده ببسمة:

- متقلقش يا حاج، خير والله، هو بس حسيت إن المشروع ده أكبر مننا والناس اللي فيه كبار واحنا لسه في البداية، وأنت علمتني إن اللي يبص لفوق أوي رقبته تنكسر يا سلطان ولا إيه؟

- أيوه بس علمتك برضو أنّ الطموح حلو، وحلو أنّك تحاول تكبر نفسك يا أحمد مش تفضل واقف في مكانك.

نظر له أحمد نظرات شعر بها سلطان مكسورة خائفة:

- بس معلمتنيش أعمل كده بطرق غلط يا حاج، ولو أنّي أكبر ده مبني على غلط من الأول مش هيفيدني، صح؟

- أحمد فيه حاجة مخبيها عليّ؟

تردد أحمد في البوح بما يملك من حقائق اكتشفها ولم يعلم

عنها أحدهم شيئًا بعد سوى رفيقه الأقرب، بلل شفتيه وقد استقر على قراره الذي سيتخذه، اليوم إما إلغاء هذا المشروع اللعين، أو الانفصال عن هذه المجموعة وللأبد، لقد اكتفى من كل هذا.

- هقولك كل حاجة يا حاج، بس لما أخلّص وارجع.

ولم يعد أحمد ذلك اليوم، ولم تبصره عيون سلطان منذ تلك اللحظة سوى وهو مجرد جثة مذبوحة ملقاة في المياه شاحب الوجه شاخص البصر.

لم يعد أحمد ولم يعلم سلطان ما حدث، لكنه متأكد أنّ موت أحمد ذلك اليوم كان بسبب ما ذهب لفعله، ليته منعه في تلك اللحظة ورفض ذهابه، ليت وليت وليت، لكن ما نفع التمني؟

رحل أحمد، ورحل خلفه أشرف وسالم وسمير، وما زال القوس مفتوحًا ينتظر الوافدين الجدد ليغلق خلفهم أبوابه.

***

في المساء وكعادة كل يوم..

انتظر الجميع نوم أهالي الحارة وتحركوا بتخفي صوب منزل أسامة حيث تجمعهم، وبمجرد وصولهم انطلق جلال صوب للطاولة يلتقط ما عليها من طعام بنهم شديد، بينما هند جلست تراقب أسامة الذي كان شاردًا بشكل غريب.

- خير يا عو رسالتك اللي بعتها كانت بتقول أنّك عرفت حاجة مهمة.

نظر لها أسامة وهو يضيق عينيه وصمت لثوانٍ قبل أن يردد بجدية:

- اسمعوني كويس علشان المواضيع بدأت تكبر وتكلكع.

تحدث جلال وهو يمضغ الطعام بتلذذ وجوع واضح محرّكًا يديه بحنق شديد:

- بدأت تكلكع؟ ده من يوم ما استلمنا المهمة وهي مكلكعة، يا أخي ده أنا مش عارف آخد نَفَسي طول النهار، ولا عارف ألاحق على إيه ولا إيه ولا إيه؟ شوية شغل على التوكتوك وشوية أراقب الحاج سلطان والحاج صلاح، وشوية أندمج وسط عامة الشعب علشان أعرف آخر الأخبار، لما خلاص مبقتش عارف أقيّم نفسي!

نظر له أسامة لثوانٍ قبل أن يتجاهله، فهذا جلال بالنهاية لا حرج عليه، لذا تنهّد يقول:

- مينا.

انتبه له الجميع وقد تمحورت جميع الخيوط اليوم حول هذا الشخص تحديدًا، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّه الجاني، أو على الأقل أنّ بداية الحل عنده.

نظر لهم يدرك أنّ كلًا يملك في جعبته الكثير، لذا طالبهم بإفراغ ما وصلوا لهم على الطاولة أمامهم ليلملم هو كل تلك الحقائق لعل وعسى يصل لشيء ينفعهم في القادم.

بدأت عفاف تصف ما حدث أمامها بدقة وتقص عليهم الشجار منذ بدايته حتى وصلت لكلمات كريم التي نطق بها بغضب وغِلّ واضح:

- قاله لو فاكر إنّي لما أموت سرك هيندفن معايا تبقى غلطان، لأنّي هفضحك وأفضح اللي خلفوك، لكن مينا رد وقاله إنّه لو وقع مش هيقع لوحده.

ضيق أسامة عينيه يفكر في حديث عفاف قبل أن تفاجئه هند وتلقي بأوراقها على الطاولة تضم كفيها أمامها بتفكير:

- مينا كان واحدًا منهم.

نظر لها الجميع بفضول فأكملت تخبرهم ما سمعته من والدة مدحت:

- مينا كان الشريك التامن للكل في الشركة الجديدة، وهو من أوائل اللي فكروا في فكرة الشركة دي، لكن فجأة انفصل عنهم بدون مقدمات.

شعر أسامة أنّ هناك حقائق تتبلور داخل عقله ينتظر أنْ يفرغ الجميع مما وصل له، لتكمل هند بكل بساطة لا تغفل عن كلمة واحدة من شأنها أنْ تساعدهم:

- قبل الشراكة دي كان كل واحد فيهم بيشتغل أساسًا في شركة غير التاني، واللي عرفته أنّ مدحت كان بيتشغل مع أحمد ابن الحاج سلطان قبل ما يقرروا يستقيلوا ويشتغلوا مع الباقيين في الشركة الجديدة.

أضاف جلال على حديثها ما علم اليوم الذي لم يكن بالكثير، لكنه لن يمرر جلسة دون أن يسجل بها مداخلة ويكتب نفسه في صفحات المشهد القائم:

- الحاج سلطان النهاردة كان بيقول أنّ اللي حصل ده كله بسبب الشلة دي، وإن هما السبب في اللي وصل ليه أحمد وكان شكله شايل كتير منهم، تقريبا اللي بيحصل ليهم بسبب حد فيهم.

- كريم.

كانت كلمة خرجت من فم عفاف التي قالت بجدية تتذكر كلمات فوز جيدًا:

- كريم مفيش غيره، فوز كانت مش عندها سيرة غير أنّه هو أس المصايب كلها ومعاه اللي اسمه سالم، والباقيين كانوا شوية في حالهم وشوية في مشاكل زيهم.

هز أسامة رأسه وصمت وكذلك الجميع، لا صوت يعلو فوق صوت أنفاسهم وصوت أفكارهم وصوت مضغ جلال للطعام.

واستمر الصمت طويلًا حتى تدخلت هند تسأل بفضول شديد:

- بتفكر في إيه يا عو، وإيه اللي في دماغك لأن سكوتك ده مش مريح.

رفع أسامة عينيه لهم وقد كانت غائمة بالكثير من الأفكار وهمس بكلمة واحدة:

- خيري.

قال جلال بتلقائية وهو يبتلع ما بفمه:

- صاحب الشركة اللي شاكين فيه؟

هز أسامة رأسه ثم قال يخبرهم ما وصل له على أمل أن يجمعوا معه خيوط ما يحدث:

- خيري يبقى هو نفسه المدير السابق لمينا، مينا كان بيتشغل محاسب في شركته قبل ما يسيبها ويشتغل في محل هنا.

اتسعت الأعين بشدة وفغرت هند فاهها في صدمة شديدة وقد عمل عقلها سريعًا على تجميع الأجزاء لتتضح الصورة أمام عينيها فتتسع أكثر بإدراك، بينما عفاف كانت تحرك أنظارها بينهم تحاول استيعاب جميع هذه الحقائق، وأخيرًا جلال الذي توقف عن الطعام فجأة، ثم همس بعدم فهم:

- إيه فيه إيه؟ كلكم مرة واحدة فتحتوا عيونكم كده ليه؟ هو فيه حاجة ورايا ولا إيه؟

فجأة انتفض عند هذه الفكرة ينظر خلفه بسرعة باحثًا عن ذلك الشيء الذي أصاب الجميع بصدمة، لكن أسامة لم يهتم بكل ذلك يردد بجدية:

- لو كان اللي بفكر في صح، فإحنا دلوقتي على أعتاب حل اللغز ده.

تحدثت هند بما يدور في عقلها:

- المشروع اللي خيري دخل فيه مع الشباب كان على حسب كلام مدحت اللي قاله بهزار أنّه لوي دراع، تفتكروا مينا ليه يد في لوي الدراع ده خاصة أنّه مفيش إنسان طبيعي يسيب شغل محاسبة في شركة كبيرة زي شركة خيري ويروح يشتغل في محل في حارة

متواضعة زي حارة الجزار.

ابتسم أسامة وقد عبرت هند عما يدور داخل عقله، وأضافت عفاف على حديثها بجدية كبيرة:

- مش عارفة ليه حاسة إن كلام كريم وقت الخناقة ليه علاقة بالموضوع، أصل إيه اللي ممكن يمسكه كريم على مينا غير كده؟

كانت الحقائق تتقافز بين الجميع كالكرة المطاطة، كلٌ يلقيها للآخر يضيف عليها ما وصل له، عدا جلال الذي كان يتخذ مقعده بين الجمهور يبتلع طعامه:

- لا لحظة كده علشان حاسس نفسي مش فاهم حاجة، إيه علاقة مينا بخيري؟

أمسك أسامة قطعه دجاج دفع بها صوب جلال، ثم ربت على كتفه يقول بجدية:

- ملكش دعوة أنت يا جلال، كمل أكل وليك روقة لما نخلص كل ده.

هز جلال رأسه وقد أعجبته هذه الفكرة، إذ لم يكن عليه إجهاد عقله في التحليلات معهم، وبدأ يتناول الطعام وهو يعطيهم انتباهه، لكن ليس كل الانتباه بالطبع.

عاد أسامة لهند وعفاف يحاول معرفة ما يدور:

- حاسس إن السبب ده هو بداية كل اللي بيحصل، يعني لو عرفنا سر مينا وكريم هنعرف اللي بيعمل كده وغرضه كان إيه بالضبط.

تساءلت هند بفضول:

- وهنعرف ده إزاي؟

صمت وهو لا يدري حقًا من أين البداية لمعرفة هذا السر، نظر صوب هند التي فهمت ما يريد قوله فزفرت بغيظ شديد تهتف من أسفل أسنانها:

- هعمل أكتر من كده إيه يا عو؟ ده أنا ناقص أروح أبات معاهم في بيتهم.

ضحك أسامة على كلماتها وقد أدرك أنّها التقطت رسالته، فمَن عدا مدحت يمكنهم معرفة ما يريدون منه، وهند هنا تمتلك طرقها التي قد تُذيب أي رجل وتجعله كالحلقة في إصبعها، أولم تفعل هذا مع جميع من عرفها بالفعل؟ فعداه هو الذي هام في حبه لعفاف منذ اللحظة الأولى، وجلال الأبله والذي كان أصغر منها لا يهتم بغير نفسه، لم يَنجُ رجل من براثنها.

- يلا يا هند خليكِ جدعة، الراجل باقي له تكة صغيرة، الموضوع كله دلوقتي في إيدك.

- لا يعني لا يا أسامة، ده أنا بقيت بفرض نفسي على الراجل وأمه بكلاحة.

- بس متنكريش أنّه على قلبهم زي العسل، الراجل مستني منك إشارة رضا واحدة يا هند.

تنفست هند بعنف وغيظ شديد، بينما أسامة ابتسم:

- أنا من ناحيتي هحاول أشتغل على الولد اللي في القهوة ومينا، وجلال يشتغل على سلطان وصلاح ويعرف أكتر عن المشروع وخيري لو قدر يعني، وفوفا زي ما هي تحاول تدخل بيت مينا وتلقط أي كلمة.

أوقفته عفاف عن الحديث تقول بجدية وحنق:

- إيه يا أسامة ألقط دي؟ فيه كلمات أحسن بتأدي نفس الغرض.

- المهم إنّ الغرض يتأدّى يا عفاف.

رفعت حاجبها فغمز لها ببسمة جعلتها تصمت وهي تنظر بعيدًا عنه بخجل شديد وهُيام، قبل أن تنكمش ملامحها فجأة بصدمة حين أبصرت نظرات هند الغاضبة والحانقة، وقد هتفت بغيظ:

- هعيش وأموت وأنا بعلم فيكِ وبرضو مش هتتعلمي، ده أنا عندي أقنع جلال أنّه معفن ومفيش بنت بتبص عليه ولا ليه معجبين سريين، أسهل من إنّي أقنعك تتقلي عليه.

التوى ثغر عفاف بضيق من كلمات هند الغاضبة، بينما أسامة تدخل يجذب له عفاف برقة وحنان:

- وتتقل عليّ ليه؟ دي مراتي، بعدين سيبك من عفاف ووريا أنتِ شطارتك مع مدحت، عايز الجديد كله يوصلني يا هند وفي أسرع وقت.

نظرت له بسخرية فأكمل هو دون اهتمام بنظراتها يدرك جيدًا أنّها لن تقصر في أي شيء من عملها وستبذل قصارى جهدها لتفعل ما يخبرها به.

- اعملي اللي تشوفيه صح يا هند مش هفرض عليكِ طريقة معينة، المهم توصلني أخبار تساعدنا، تجبيها بالدلع، تجبيها بالقوة، مش هتفرق المهم تيجي، واضح كلامي؟

هزت رأسها بجدية لينظر بعدها صوب عفاف يقول ببسمة:

- عرفتِ هتعملي إيه يا فوفا؟

نظرت له بشرود وقد طرأت لها فكرة لم تفصح عنها له، لكنها ابتسمت تهز رأسها بنعم:

- تمام يا عو.

اطمئن عليهما أسامة، ثم استدار صوب المهمة الأصعب والتي احتفظ بها حتى يتفرغ لها في النهاية.

- جلال.

- عايز إيه؟

كانت كلمات جلال متأففة حانقة وكأنّ أسامة يعمل لديه وقاطع عملًا هامًا له، لكن أسامة تجاوز عن ذلك يهتف بعد تنهيدة حارة خرجت من صدره:

- لا مؤاخذة يا أستاذ جلال هنتعبك معانا، بس ممكن تركز معايا لو سمحت؟

رفع له جلال رأسه ينفض يديه بجدية، ثم أولى كامل اهتمامه لأسامة:

- أيوه فيه إيه بقى شايفكم كده من وقت ما جيت مشغولين في كلام كتير، خير حصل إيه؟

تشنجت ملامح عفاف وهي تشير له وللطعام:

- طبعًا وأنت هتركز إزاي وأنت عمال تتعلف زي البهايم، اتفضل يا سيدي الأستاذ مش عارف إحنا بنعمل إيه أساسًا؟

استدار لها جلال يردد بغيظ شديد يدفع الأطباق الفارغة من أمامه مهلّلًا بضيق شديد:

- اتفضلي أنتِ هتذليني ولا إيه؟ بعدين هو أنا باكل علشان إيه؟ مش علشان أقدر أقف على رجلي وأشتغل طول النهار واتبهدل؟ مفيش واحد فيكم بيتعب نص تعبي وأنا بلف في عز الحر والبهدلة بالتوكتوك.

كادت عفاف تنهض لتجيبه بطريقتها، لولا يد أسامة التي أوقفتها وهو يقول بهدوء وصوت هادئ:

- سيبيه يا عفاف الله يكرمك وأنا هخلص الموضوع.

استدار صوب جلال الذي كان يجلس بغضب يوجه نظراته ساخطًا على الجميع، يسقط عليهم لعناته ويتوعدهم الويل كاسات داخل عقله، فقط يصبروا حتى يصبح قائدًا عليهم والله ليسقيهم المرار يوميًا وخاصةً تلك المتحذلقة التي تتحين الفرص لتفسد مزاجه، عفاف الـ ...

فجأة أفاق ينتفض من بين أفكاره على صفعة قوية هبطت على رأسه جعلته يتأوه وهو ينظر بسرعة جواره صوب أسامة الذي حذره

بأعين تتقد شرًا:

- تدعي عليّ وتشتمني في دماغك وتدوس عليّ في أحلامك ماشي، لكن تبص لمراتي بالنظرات دي أخزقلك عيونك، سامع؟

رفرف جلال بعينيه مفزوعًا من قدرة أسامة على قراءة أفكاره وكأن نظراته لم تكن توحي بما يفكر به، التوى ثغره بغيظ وهو يفرك رأسه ولم يتحدث بكلمة واحدة بينما أسامة تنهّد بصوت مرتفع:

- اسمع يا زفت أنت علشان لو غلطت غلطة واحدة هروح فيك في داهية، سامع؟

هز جلال رأسه، بينما تحركت أنظار أسامة صوب الجميع يحرك إصبعه محذرًا بجدية مخيفة:

- والكلام للكل مش جلال بس، أي حركة غباء ممكن أنا هصنع من المهمة دي مهمة جديدة، لكن الفرق أن القاتل هيكون معروف والسبب هيكون واضح.

***

الصباح التالي..

خرج من المنزل يعدل من وضعية ثيابه يتحرك خارج المكان بأكمله صوب الجراج الذي يقبع على بداية حارتهم حيث يترك سيارته، لا يهتم بنظرات الجميع حوله له، فمنذ متى توقفت تلك النظرات له؟

وصل وأخيرًا، أخرج جهاز التحكم عن بُعد ولم يكد يضغط عليه

قبل أنْ تتوقف أصابعه بصدمة يبصر تلك التي تستند على سيارته وكأنّها تنتظره.

هتف بصوت خافت لا يصدق ما يراه:

- ديانا؟

انتفض جسد الفتاة وهي تخرج من شرودها على صوته، ترفع عينيها صوبه تبتلع ريقها بتوتر، وقد بدأت تلوم نفسها على مجيئها لها خاصة وهي تدرك أنّها بمجيئها هذا قد تصنع الكثير من المشاكل:

- إزيك يا محمد.

نظر محمد حوله بعدم فهم لوجودها:

- أهلًا يا ديانا، خير؟ فيه مشكلة ولا إيه؟

نظرت ديانا أرضًا تفرك كفيها بقلق، ثم هتفت:

- كنت عايزة أتكلم معاك شوية و ...

نظر محمد فى ساعة يده يدّعى انشغالًا كى يتخلص من هذه الوقفة، ورغم أنّ قلبه كان يصرخ مطالبًا إياه بالبقاء جوارها أكبر وقتٍ ممكن، لكنه رفض الرضوخ لمطالبه:

- معلش يا ديانا بس أنا مشغول شوية دلوقتي، فلو الموضوع محتاج وقت مش هنقدر نتكلم دلوقتي، هو فيه مشاكل مع كريم ولا إيه؟

كان يقول آخر جملة بأمل وكأنّ هناك فرصة له معها، حتى وإن كانت هناك مشاكل مع كريم، لكن فاجئته وهي تتحدث برعب ظهر

في نبرتها:

- لا، الموضوع يخص مينا.

ضيق ما بين حاجبيه بعدم فهم يقول:

- مينا؟ ماله مينا؟

ابتلعت ريقها تقول بصوت خافت خائف:

- في ... في واحد بيجي البيت كل شوية لمينا يهدده، وآخر مرة كان امبارح، حاولت أوصل لكريم علشان أبلّغه اللي بيحصل بس ... بس مش عارفة هو قافل تليفونه من وقت آخر خناقة ليه مع مينا، عايزاك توصلني ليه أو تساعدني، أنت كنت أقرب واحد لمينا فيهم و...

- ديانا، أنا مالي ومال أخوكِ ومشاكله، مينا مبقاش صاحبي من وقت ما جاب شوية بلطجية علشان يضربونا، خليه يحل مشاكله لوحده.

ختم حديثه يتحرك صوب السيارة الخاصة به، ولم يكد يصعد لها حتى سمع صوتها تقول بغضب شديد:

- المشكلة دي تخصك أنت ومينا، تخصكم كلكم ومش أخويا بس اللي هيتحمل نتايجها يا محمد.

توقفت يد محمد واستدار لها نصف استدارة يحدق في وجهها بعدم فهم لتقترب منه تقول بشر وتحفز شديد وكأنّها على وشك الانقضاض عليه:

- الراجل اللي مينا كان بيشتغل معاه قبل كده، وطرده علشان اختلس منه فلوس، أظن أنا وأنت نعرف كويس أوي السبب اللي خلاه يسيب مينا وميبلغش عنه، وهو نفسه السبب اللي وافق عشانه يشارككم، تحب أوضح اكتر من كده ولا فهمت اللي أقصده يا محمد؟

ضغط محمد على أسنانه بشر كبير يحاول التحكم في اهتزاز جسده، ثم استدار بكليته لها يهتف بصوت شبه غاضب:

- عايزة إيه ديانا بالضبط؟

توقفت ديانا أمامه بقوة تهتف بجنون وكأن شيطانًا تلبسها حين وجدت الجميع يتخلون عن شقيقها:

- لو مينا وقع مش هيقع لوحده، أخويا لو وقع هوقع الكل وراه، والفلاشة اللي لاويين بيها دراع خيري بيه معايا منها نسخة، يعني أي غدر بمينا هكون موقعة الكل.

اتسعت أعين محمد بصدمة كبيرة وهو لا يصدق أنّ مَن تقف أمامه هي نفسها ديانا رمز الرقة والنعومة، الفتاة التي على استعداد لإلقاء كل ما يملك أسفل أقدامها فقط لتمنحه نظرة رضا من عينيها، الآن تقف أمامه تهدده بما حاولوا جميعًا دفنه، تعيد عليه حديثًا سمعه سابقًا، تعيد عليه تهديدات مرّت عليه من قبل، لكن هذه المرة بشكل أقل شراسة عن السابقة.

ابتلع ريقه يقول بهدوء:

- والمطلوب مِني إيه؟

- زي ما خليتوا أخويا يغرز في لعبتكم الزبالة دي تخرجوه منها.

ابتسم بسخرية لاذعة:

- نخرجه منها إزاي بقى؟ بعدين حبيبتي أخوكِ أساسًا هو اللي غرز لوحده واستفاد من الموضوع ده، واحنا بس بنستفاد على حسه، لكن الموضوع من البداية كان باختياره وعلشان مصلحته هو.

ختم حديثه وكاد يصعد للسيارة لولا جملتها التي صرخت بها غاضبة:

- ومساعدة كريم ليه علشان يعمل المصيبة دي في الأول كان برضو علشان مصلحته؟ من امتى كريم بيعمل شيء لله؟

ابتسم محمد يقول دون أن يستدير لها ونبرته خرجت ساخرة:

- والله ابقي اسألي كريم على الموضوع أنا معنديش علم، عن إذنك علشان اتأخرت.

وبكل بساطة صعد للسيارة يخرج من ذلك الجراج الواسع والذي كان خاليًا من رواده في هذا الوقت من الصباح، تبتعد هي عن طريق سيارته بصدمة كبيرة، ظنت أنّها جاءت تحمل بين أناملها بطاقة الضغط عليهم، ظنّت أنّه سيرتعش حين تشير لذلك الأمر ويساعدها لحفظ حياة أخيها.

هبطت دموعها بصدمة تكتم شهقاتها وهي تتحرك بأقدام واهية خارج المكان تتجرع مرارة الخزي والخسارة، ترتعش من فكرة خسارة مينا، السند الوحيد لهم في هذه الحياة.

رحلت وتركت خلفها صدى حوارها مع محمد يتردد في المكان الشبه فارغ، ويتردد داخل عقل تلك التي كانت تتابع كل كلمة باهتمام شديد.

اتسعت بسمة عفاف وهي تخرج من مخبئها الذي سكنت به منذ لحقت بديانا من الصباح حين أبصرتها تخرج من منزلها بشكل مريب، لتلحق بها صوب المكان على أمل الوصول لشيء، وها هي لم تصل فقط لشيء واحد، بل لأشياء.

***

يجلس على فراشه يضم قدميه لصدره، يستأنس بصوت الصمت حوله، يرفض السماح لأي صوت دخيل باقتحام خلوته التي يتخذها رفيقًا له منذ أيام، يتنفس بصعوبة وأصوات كثيرة تتردد في أذنه، يشعر بأنّه الفُلام الوحيد في كل هذا، كان من المفترض أنْ يموت هو وليس أحمد، أحمد لم يرتكب أي خطأ، هو الحقير الذي أصرّ على المواصلة في هذا المستنقع رغم أنّه اشتم رائحة القذارة تفوح منه.

- مدحت أنت مش كده، بالله عليك خلينا نسيبهم، خلينا ناخد فلوسنا ونفتح أنا وأنت أي شركة صغيرة على قدنا، إحنا برضو مش شوية وبإذن الله هننجح أكتر.

نهض مدحت عن فراشه يتحرك صوب النافذة يراقب البنايات المتلاصقة والحالة التي يحيا بها هو وعائلته.

الفقر.. عدوّه الأول واللدود والذي انتصر عليه في معارك عدة، آن الأوان ليعلن هو انتصارًا عليه، وبداية هذا الانتصار في المشروع

الجديد.

- أحمد بالله عليك بص حواليك، أنت مزهقتش من كل الفقر والقرف اللي إحنا عايشين فيه ده؟ أنا تعبت من يوم ما أبويا مات وأنا شايل كل البيت فوق كتفي لما اتكسر خلاص تعبت وعايز أستريح، عايز أعيش يا أحمد.

سخر منه أحمد يقف أمامه يواجهه باتهام وغضب من استسلام رفيقه لشيطانه:

- وهو الحرام هو اللي هيخليك تعيش مرتاح يا مدحت؟

اتسعت أعين مدحت من فداحة الكلمة يرددها بصدمة:

- حرام؟

- أيوه حرام، أنا وأنت عارفين أنّه حرام، اللي جاب الصفقة دي يبقى كريم وكريم مجبهاش بالمحبة، لا دي جابها بالتهديد ولوي الدراع، ده بيهدد الراجل في سمعته علشان يشاركنا، والراجل ده نفسه عليه كلام كتير إنّ شغله مشبوه، يعني الموضوع من أوله لآخره حرام في حرام.

نظر له مدحت لثوانٍ يصارع نفسه، يريد الرفض عالمًا في قرارة نفسه أنّ أحمد محق، لكن هو سئم وتعب من الفقر وما خلفه، ماذا فعل له الشرف، ماذا قدم له الحلال؟

أبصر أحمد صراع مدحت داخل عينيه ليقول بتصميم يعلم أنّ رفيقه ما كان يومًا ليسلم نفسه للشيطان:

- على العموم أنا النهاردة هعلن انسحابي من الشراكة دي، بالناقص منها يا مدحت، وهروح للي اسمه خيري ده وأسلّمه كل الشرايط اللي معايا كفاية أذية في الناس لغاية كده، مش هنمشي نتتبع عورات الناس ونفضح فيهم.

اتسعت عين مدحت بصدمة يردد:

- هتعمل إيه؟ أنت اتجننت ده ممكن يخلص عليك أنت مفكر خيري ده إيه؟

- يعمل اللي يعمله أنا هريح ضميري، هسلمه النهاردة الأصل، وأنت فكر في كلامي كويس، عارف أنّك عمرك ما هتسلم نفسك للشيطان يا صاحبي، أنت مش كده، ارجع لنفسك يا مدحت وارجع لربك هو الرزاق مش كريم ولا خيري ولا غيرهم، فوق يا صاحبي فوق، ولما أرجع بليل هنتكلم ونلاقي حل لكل مشاكلنا.

ولم يعد أحمد، لم يعد ولم يجد هو حلًا لمشاكله، بل أضاف على مشاكله واحدة، وقد كانت تلك الواحدة هي القاسمة، خسر أحمد واستمر فيما نهاه عنه، رحل أحمد ورحل معه مدحت في الليلة ذاتها.

انتفض جسد مدحت عن الفراش يحطم كل ما تقع يده عليه وهو يصرخ ويبكي باسم أحمد، دماء أحمد بين يديه هو، هو الوحيد المذنب في كل هذا.

في اللحظة ذاتها كانت والدته ترحب بهند على الباب تستقبلها ببسمة واسعة سرعان ما انمحت بمجرد سماعها لصراخ ولدها لتركض بسرعة مفزوعة صوب الغرفة تصرخ باسم مدحت، بينما

هند اندفعت خلفها بسرعة كبيرة وهي تشعر بقلبها يكاد يتوقف من صوت الصرخات التي هزّتها بعنف.

وحين وصلت لغرفة مدحت أبصرت مشهدًا جعلها تتجمد في مكانها وهي تراه منهارًا على الأرض يصرخ وينتحب ويردد كلمات كثير لم تستوعب منها سوى القليل:

- أنا اللي قتلت أحمد، أنا السبب، لو مكنتش سيبته يروح اليوم ده ليه مكانش حصل كل ده، أنا السبب، أنا اللي قتلته، قال لي نسيبهم وأنا رفضت، أنا السبب، كان لازم أنا اللي أموت مش هو، يا ريته قتلني أنا.

كانت هند تستمع لكلمات مدحت وهي تشعر بصدرها يهتز صدمة من حديثه، تؤجل تحليله فيما بعد حتى تنتهي من هذا كله، واستمر مدحت في الترديد دون شعور:

- كل ده علشان كان عايز يساعده، كان رايح يساعده، كان عايز يساعده والله، كل ده علشان رفض يلوث إيده، كل ده علشان كان كويس، قتله، مكانش هيأذي حد باللي معاه كان بس ... كلنا قتلناه، كلنا قتلنا أحمد.

صرخت والدته وهي تضم جسده بقوة تحاول تهدئة حركاته بصعوبة:

- لا إله إلا الله، اهدى يا مدحت خلاص أحمد ربنا يرحمه، مات شهيد يا حبيبي، وأنت ملكش ذنب، أنت ملكش ذنب يا مدحت.

انهار مدحت بين أحضان والدته يهتف بصوت منخفض وصل لهند

الواقفة على باب الغرفة تتابع دون التدخل بشيء:

- أنا السبب، لو كنت منعته يومها يروح ليه كان زمانه معايا، كان زمانه عايش، بس أنا ... كنت جبان وحيوان، يا ريتني كنت أنا اللي روحت يومها ومت.

تحركت هند للخارج ببطء وقد اكتفت بما سمعت، نزلت دموعها دون شعور وهي تخرج من المكان وقد ارتجف صدرها لما سمعت، يبدو أنّ مدحت لا يزال محبوسًا في لحظة رحيل صديقه، والسؤال هنا لِمَ أحمد بالتحديد؟

من بين جميع من قُتلوا لِمَ أحمد بالتحديد من خصه مدحت بالرثاء والندم رغم أن الجميع رحل بنفس الطريقة؟ هل لقرب أحمد من مدحت؟ أم لشيء آخر أكبر من مجرد شعور بالذنب وصداقة عميقة؟

***

فتح الباب بملامح شاحبة باهتة وكأنّه خرج لتوه من قبره، يشعر بالعالم بأكمله وقد اتفق عليه، الماضي بكل مصائبه تراكم عليه وبقوة.

أبصر آخر شخص قد يتوقع مجيئه يقف على أعتاب منزله مبتسمًا يحمل أكياسًا سوداء وهو يردد بهدوء شديد:

- صباح الخير يا مينا، بعتذر لو جيت من غير ميعاد بس بقالك كام يوم مش بتيجي على القهوة وسمعت أنّك تعبان فقلت آجي أزورك.

ابتعد مينا عن باب منزله يشير له بالتحرك للداخل وملامح الذهول

ما تزال مرسومة على وجهه، هذا الرجل الذي حتى لا يتذكر اسمه استشعر غيابه وجاء ليزوره؟ شيء لم يفعله له أحدهم سابقًا حتى حينما كان يمتلك من الأصدقاء سبعة.

- اتفضل اقعد.

ابتسم له أسامة بلطف لا يدّعيه، بل كان صادقًا وهو يرى نظرات القهر في عينيه:

- أنت كويس دلوقتي؟

- كويس والدنيا تمام، تشرب إيه الأول؟

- لا لا متتعبش نفسك أنا بس جاي أشوفك و ...

قاطعه مينا وهو يتحرك بعيدًا عنه رافضًا أي اعتراض:

- لا مينفعش دي أول مرة تشرفني في البيت، معلش مفيش حد هنا، من الصبح وأختي مش هنا ولا أمي، فأنا اللي هعملك، تحب تشرب إيه؟

- شاي.

كلمة بسيطة نطق بها أسامة وهو يراقب رحيل مينا عن المكان ليخرج هو سريعًا جهاز صغير يكاد لا يُرى يلصقه بأسفل الطاولة، ثم اعتدل في جلسته يدور بعينيه في المكان بفضول لعل وعسى يبصر ما قد يساعده، لكن لا شيء، هو من الأساس لا يتوقع أن يجد دليلًا ملقى أمامه بكل بساطة وكأنه ينتظر حضوره ليستكشفه هو.

بدأ يدور بعينيه على الأثاث وكأنّه يبحث عن مكان آخر ليضع به

ناقلات الصوت، نهض ينظر صوب الممر الذي تحرك به مينا، ثم نهض صوب طاولة تستقر في الجزء الآخر من البهو يلصق بها جهاز تنصت آخر، يسمع صوت مينا من الداخل يردد:

- سكرك إيه؟

أجابه أسامة بصوت حاول أن يجعله طبيعيًا وهو يتفحص الصور أمامه:

- معلقة واحدة لو سمحت.

أخذ يمر بعينيه على الصور أمامه، حتى أبصر صورة تجمع الثمانية، إذن كما قالت هند كانوا جميعًا رفقة، ترى ما السبب الذي جعل مينا يعتزلهم؟ هل هي حادثة شقيقته؟ أم للأمر أبعاد خفية؟

لفت انتباه أسامة بشكل سريع أنّ أكثر صور مينا كانت تضمه هو وكريم وسالم، إذ يبدو أنّ الثلاثي كان مقربًا لبعضهم أكثر من الباقيين، فسبحان مقلب القلوب، أحدهم رحل والاثنين الآخرين كلٌ يتمنى فناء الآخر.

كانت عيناه تدور وتحلل جميع الصور بهدوء، حتى توقفت فجأة على صورة كانت تضم الجميع إذ يبدو أنّهم كانوا في زفاف ما بالحارة، فالبعض محمول فوق الأكتاف والبعض الآخر يمسك عصيًا للرقص والبعض يمسك الأسلحة البيضاء يأخذون صورة عفوية شبابية، صورة في منتهى العفوية، لكن كان بها ما جعل أعين أسامة تضيق بتأمل، وهو يقترب منها بسرعة يدقق النظر بها، قبل أن تتسع عينيه ببطء مريب وصدمة جلية ژسمت فوق ملامحه.

***

الفصل التاسع

(خيري وما وراءه)

الأدلة على الأسرار تطوف حولنا في كل مكان، وحده الصياد الماهر هو مَن يستطيع اصطيادها من بين مئات المضللات التي تسبح معها.

وهو كان ذلك الصياد الماهر الذي أمسك سنارته وألقاها على الحقائق وما عليه الآن سوى سحبها للخارج.

أخرج أسامة هاتفه بسرعة والتقط صورة لما يراه أمامه، ثم استدار بسرعة وتحرك صوب الأريكة يجلس عليها منتظرًا عودة مينا.

وبالفعل كانت ثوانٍ معدودة حتى أبصره يقترب منه مبتسمًا بسمة صغيرة يرحب به بفتور بعض الشيء ولم يعتد بعد على مثل تلك الزيارات:

- منور.

- بنورك، المهم أنت كويس دلوقتي؟

هز رأسه بحيرة:

- ومين قال لك إنّي مش كويس؟

- يعني بقالك فترة مش بتيجي القهوة ودي عكس عادتك حسب ما عرفت من الناس اللي هناك، فقلت تلاقيك تعبت ولا حاجة.

ابتسم له مينا بسمة جانبية لم يفهم أسامة غرضها، لكنها كانت أبعد

ما تكون عن الامتنان أو الشكر أو الصدق حتى، كانت بسمة غامضة كمَن يخفي خلفها سر الأكوان، لكن أسامة لم يظهر لمينا إدراكه لبسمته ومعناها، يقول بجدية:

- اعذرني لو جيت من غير ميعاد بس قولت أطمن بس مش أكتر واديني اطمنت أهو.

ختم حديثه وهو يتحرك عن المقعد ليودعه ويرحل من هنا بعدما شعر بنظرات مينا التي تزداد ريبة وتشكيكًا به، مد يده ليصافحه، فنهض مينا يصافحه بهدوء شديد يردد بنبرة غريبة:

- كده من غير ما تاخد اللي جيت علشانه؟

اتسعت عيون أسامة لوهلة قبل أن يخفي صدمته بمهارة يردد بنبرة عادية وبسمة صغيرة:

- كنت جاي أطمن عليك واطمنت خلاص.

حدق مينا بعمق عيون أسامة وكأنّه يسخر من كذبته الغبية، لكن إن ظنّ للحظة أن أسامة قد يلين بنظراته أو يتراجع أو يتوتر فقد أخطأ، ازدادت بسمة أسامة اتساعًا وهدوءًا وهو يسحب كفه عن كف مينا، ثم هز رأسه يهتف ببساطة أثناء تحركه صوب باب المنزل:

- هستناك على القهوة بقى لما تبقى كويس، مع ألف سلامة.

خرج تزامنًا مع تحدث مينا بصوت ساخر غامض:

- مشربتش الشاي يعني؟

لكن كان أسامة في ذلك الوقت قد خرج بالفعل ولم تصل له كلمات

مينا الذي جلس على الأريكة يحمل كوب الشاي الخاص به يرتشف بكل سلام لا يَمتّ لحالته الداخلية بشيء، وكل تفكيره يدور حول حياته وما سيحدث بها.

***

كان يجلس أمام المحل الخاص به يراقب الجميع بأعين ضبابية، جسده في المكان وروحه تطوف بعيدًا حيث حبيب الروح ورفيق العمر.

فجأة انتفض جسده على صوت جلال الذي وصل له يقول بجدية وحنق شديد وقد اضطرته الظروف والظلم والمحسوبية في هذه البلاد لتنفيذ أوامر أسامة فقط لأنّه قائده حسب ما يزعمون.

- أيوه يا عم سلطان اتصلت بيّ ليه؟

زفر سلطان بضيق وهو يشير صوب بعض الحقائب جواره وقد خرجت نبرته باهتة فاقدة للحياة بشكل كامل:

- طلع دول التوكتوك علشان نروح نرجعهم للتاجر و ...

أوقفه جلال عن الاسترسال في الحديث وهو يُحجّم من خياله الخصب الذي صوّر له أنّ جلال الأبنودي قد يعمل سائقًا على توكتوك بالأجرة له:

- إيه يا حاج؟ هو أنا علشان بقعد أشرب معاك شاي قدام المحل يبقى هوافق أقل من نفسي وأشتغل سواق ليك، لا فوق التوكتوك ده أساسًا جايبه علشان العربية بتاعتي مش بتدخل الحارة الضيقة دي.

استمر يتحدث ويتحدث دون توقف محاولًا وصف حالته المُرفهة، ومكانته المرتفعة في المجتمع، وليس لأنّه يتواضع ويقود تلك العربة الصغيرة بين طرقات وأزِقّة حارتهم القذرة؛ سيصبح منهم بل ويعمل عندهم سائق، هذا سيكون على جثته.

بعد دقائق توقف بالعربة أمام محل ضخم يقول بهدوء:

- هو ده المحل يا حاج سلطان؟

رفع سلطان عينيه صوب المخزن الكبير أمامهم وردد بهدوء، يتنهد بصوت مرتفع وهو يهبط ليحمل الحقائب التي جاء بها:

- أيوه هو ده، استنى هنا لغاية ما أرجع لك بقى.

رمقه جلال بسخط وكاد يرفض كلماته، لولا أن سلطان لم ينتظر كلمته وتحرك بهدوء داخل المخزن، تاركًا إياه يغلي ويرغو ويزيد.

وبعد دقائق خرج بكل هدوء يسير صوب جلال بخطوات قوية، ثم صعد للعربة يشير له بالصعود والتحرك، زفر جلال أنفاسه بغضب يحاول الهدوء وتصبير ذاته.

ثم تحرك صوب الحارة مرة أخرى وفي الخلف يجلس سلطان يسمع تأففه دون أن يُعلّق، وبمجرد أن مرّوا على أحد محلات الأقمشة أوقفه وهو يشير له:

- أيوه نزلني هنا علشان عايز أشتري كام حتة قماش، وأنت روح بقى شوف شغلك يا ابني وسيبك من كلامك الأهبل بتاع أنّك أعلى من الشغلانة دي، فوق لنفسك شوية خلي ربنا يرزقك وبطل عبط.

ختم حديثه يتحرك صوب الداخل تاركًا جلال فاغر الفاه مصدوم من كل تلك الألفاظ التي أطلقها عليه سلطان وهو الذي لا يعرفه حقًا.

- معذور ما أنت متعرفش مين جلال الأبنودي اللي بجد، بس بكرة تعرف وكل الحارة تعرف.

سخر وهو يخرج كلماته بضيق يصعد للعربة للعودة مجددًا للحارة حتى يرى ما يمكن فعله في هذا الوقت من النهار، وقبل أن يصعد أبصر سلطان يوبخ أحد الشباب في المحل يمسك بين يديه قطعة قماش يشير له بوضعها في حقيبة، وصوت صرخاته يكاد يصم الشاب:

- سبحان مَن صبر الناس عليك يا عم سلطان والله.

تحرك بالعربة بعيدًا وقد قرر الابتعاد عن وجه سلطان الذي كلما لمحه أخبره مهمة لفعلها، وقرر الذهاب لصلاح الذي كان يجلس بهدوء أمام جزارته لا يلقي للحياة بالًا.

- معلم صلاح أخبارك؟

رفع صلاح رأسه لجلال، ثم ابتسم بسمة صغيرة يشير له بالاقتراب:

- تعالى ابن حلال، لاعبني دور دومنة، مستني من بدري سلطان ولسه مجاش وزهقان.

- اه ما أنا كنت بوصله لتاجر كده بعدين سيبته راح يشتري قماش.

هز صلاح رأسه بتفهم:

- هو سلطان كده من يوم يومه، مزاج عنده يشتري قماش، المهم يلا روح هات الدومنة من جوا وتعالى علشان نلعب دور.

***

تحركت بين الطرقات وقد قررت قرار متهور لا تدري له من نتيجة، هي فقط تبعت عقلها الذي أرشدها لهذا الحل.

توقف أمام باب الشقة تتنفس بصوت مرتفع، ثم طرقت الباب بخفة تبعها صمت طويل بعض الشيء حتى انفرج عن وجهٍ جعلها تعقد حاجبيها بعدم رضى تردد بصوت منخفض كاره لوقوفها بهذا الشكل، تتخيل ملامح أسامة إن علم بالأمر:

- صباح الخير، والدتك موجودة؟

دار كريم بنظراته عليها لتشملها بالكامل، فقد كان الأمر كأنّه يُعرّيها مما تضع عليها من ثياب، وهذا جعل عفاف تتململ في وقفتها بضيق شديد:

- إيه يا أستاذ، أمك هنا ولا فين ما تخلص؟

تشنجت ملامح كريم وهو يردد كلمتها بذهول:

- أمك؟

نظر لها مجددًا وقد تبدلت صورة الفتاة الرقيقة الجميلة التي كانت ترتسم أمام عينيه منذ ثواني، بأخرى في غاية الشراسة، هل يمكن لكلمة أن تحول شخص لآخر؟

- أيوه أمك، إيه كلمة غريبة يعني ولا إيه؟

تحرك جانبًا وهو ينادي بصوت لم يخرج به من صدمته يحاول استيعاب ذلك التحول:

- نجاة.. يا نجاة.

كان ينادي وهو مستمر بالنظر صوب عفاف التي تحركت جانبًا تنتظر وصول والدته، تفكر في ردة فعل أسامة إن علم أنّها جاءت لعقر داره وبقدمها ودون اهتمام، لكن هي رأت أنّ تقربها من زوجة كريم المستقبلية، لن يكون بفائدة دخولها عشه بنفسها، وتحدثها مع والدته، غير أنّها بالفعل صباحًا علمت ما تريد معرفته من مخطوبته، إذن لتحاول الاستفادة من والدته.

ثوانٍ مرت قبل أن تخرج لها امرأة بملامح طيبة بريئة لا تعكس حقيقة كونها والدة لذلك الخسيس الذي بجوارها.

انسحب كريم من المكان متحجّجًا بالعمل بعدما وصله مكالمة جعلت ملامحه تتغير بشكل ملحوظ.

أشارت نجاة لعفاف كي تتحرك وهي تردد بتعجب وفضول حول هويتها، تراها تحمل حقيبة بلاستيكية كبيرة تخفي هوية ما جاءت به:

- اتفضلي يا بنتي ادخلي.

تحركت عفاف للداخل مبتسمة، لكن فجأة بدأت بسمتها تتلاشى بمجرد دخولها للمكان والذي بدا كما لو أنّه لا ينتمي لمحل هذه الحارة أبدًا، ابتسمت تتحرك صوب الأريكة بتوتر لتنظر لها الأم بفضول فتحدثت بسرعة تعرض ما معها لتستهل الحديث:

- معايا لبس براند تحبي تتفرجي؟

***

توقفت معه في أسفل درج البناية، وهو ينظر لها بعدم فهم يحاول إدراك ما تود قوله منذ دقائق، زفر يقول:

- هند وضحي كلامك، إيه اللي بتقوليه علشان مش فاهم أوي.

- بقولك إنّ مدحت عارف الشخص اللى قتل أحمد.

ضيق حاجبية وهو يشير لها أن تتبعه، يبتعد عن المكان كي لا يثير الشبهات والقيل والقال خاصة أنّهم في حارة صغيرة.

صعد الدرج وخلفه هند التي بمجرد خروجها من منزل مدحت هرولت للبحث عن أسامة لتقابله على بداية الدرج فتفضي له بما سمعت وبلهفة شديدة.

دخل أسامة المنزل وأشار لها بالدخول وترك الباب مفتوحًا يشير لها على الأريكة، ثم استقر أمامها يضم كفيه يردد كلماتها بجدية:

- عارف اللي قتل أحمد؟ طب والباقيين؟

هزت رأسها تُجيب بتلقائية:

- أكيد هو نفس الشخص، لأنّه قعد يخرف بكلام كتير مش مفهوم منه غير أنه السبب، لو مكانش ساب أحمد يروح ليه اليوم ده كان زمانه موجود معاهم دلوقتي.

- يروح لمين وليه؟

صمتت ثم هزت رأسها وقالت بهدوء وجهل:

- معرفش بس ... بس هو واضح أنّه متأثر بموت أحمد تحديدًا دونًا عن الباقيين، واضح أنّه كان قريب منه جدًا.

- أو حاسس بالذنب.

نظرت له بعدم فهم فأوضح لها ما يفكر به:

- من كلامك واضح أنّه حاسس بالذنب، وحاسس أنّه جزء مِن قتل أحمد، علشان كده بيلوم نفسه، إحنا لازم نعرف مين اللي عمل كده في أحمد والكل.

صمت ثم أضاف:

- أنا شاكك في حد معين بس مش عارف إذا كان دليلي كافي علشان أشك فيه أو لا.

اقتربت هند من الطاولة تستند عليها بلهفة كبيرة:

- إيه هو الدليل وشاكك في مين بالضبط؟

نظر لها ولم يكد يتحدث حتى اقتحم المكان جسد كالقذيفة وصوت الاعتراض والحنق والغضب يتردد في المكان:

- إيه اللي بيحصل هنا؟ مش هنبطل شغل الطبقية اللي جوا الفريق ده؟ مش هنبطل شغل العنصرية وتقليلكم مني أنا وجلال؟

وكأنّه بذكر العفريت يحضر، قفز جلال لهم وهو يقول بشك:

- أيوه أنتم بتقللوا مننا ليه يعني؟

نظر لهما أسامة بعدم فهم وقبل التحدث بكلمة سارعت عفاف تصيح بعدم رضى عما ترى وقد اشتعلت غيرة شديدة في صدرها أخفتها ببراعة خلف حجتها الغبية والتي ساندها جلال فيها، ابتلعت ريقها تحاول التحدث:

- أنا جيت لقيت الأساتذة قاعدين يحللوا ويتكلموا ولا كأن فيه اتنين تانيين معاهم في الفريق، ولو هنمشي بالشكل ده يا عو يبقى نفضها سيرة.

انتفض أسامة بقوة وصدمة مرددًا بعدم فهم:

- نفض إيه؟ بتقولي إيه مش فاهم؟

- يعني أروح فريق تاني طالما مش هتحترموا وجودي.

أضاف جلال على حديثها يضم ذراعيه لصدره:

- وأنا هروح أقود فريق غير ده يقدّر اللي بعمله ويحطني في مكاني المناسب.

رمقه أسامة بشر جعله يصمت:

- أنت لو مسكتش أنا هوديك مكانك المناسب فعلًا، ومش حابب أوضح أكتر من كده، فاسكت شوية يا جلال علشان مش ناقصة والله.

صمت ثم نظر لعفاف التي كانت تحاول تجنب النظر لوجهه تدرك أنّه سيلتقط غيرتها دون مجهود، لذا قررت أنّ أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم، إذ انطلقت بسرعة كبيرة داخل المنزل دون أن تنظر له

تقول:

- طب طالما بالفعل بدأتم، كملوا مع نفسكم، ولو حد احتاج لي ينادي.

دخلت تحت أعين الجميع المصدومة من التصرفات التي تصدر منها، وهند اتسعت عينيها لا تدرك ما يحدث، نظرت صوب أسامة الذي كان صامتًا بشكل غريب يراقب أثر عفاف، ثم هتف بكلمات قليلة خافتة:

- بالليل في ميعادنا هنتجمع هنا علشان نناقش اللي وصلنا ليه.

نظر له جلال باعتراض ولم يكد يأخذ خطوة ليعلن غضبه وعصيانه كما فعلت عفاف منذ ثوانٍ، حتى سمع صوت أسامة يصدر مجددًا منه محذّرًا:

- بالليل يا جلال، وإياك متجيش هبعت فيك ميل للمنظمة وتنسى أنّك في يوم تبقى قائد على حد سامع؟

امتلأ وجه جلال بالغضب، لكنه كبته ينظر بشر لأسامة يتوعده داخل نفسه بكل السيء حينما يصبح في موضع قوة، صبرًا فقط حتى يصبح.

تحرك للخارج، بينما ظلت هند مكانها تنظر لأسامة الجامد بعدم فهم:

- أنا ... أنا آسفة مكانش قصدي إنّي أعمل مشاكل، بس أنت عارف إنّي لما بتحمس لحاجة ... لو عايز أنا هدخل أقـ ...

وقبل أن تتمم جملتها أوقفها أسامة بهدوء شديد، فهذا الحوار بينه وبين زوجته العزيزة وعليه الانتهاء منه بنفسه:

- متاخديش في بالك يا هند أنا هكلم عفاف وأشوف الموضوع، أنتِ بس ركزي في الشغل الله يكرمك.

هزت رأسها، وقد شعرت من كلماته أنّه يود الاختلاء بزوجته، لذا تحركت بهدوء صوب الخارج تودعه، ابتسم هو لتفهمها وما كاد يغلق الباب حتى أوقفته هي تردد بسرعة:

- بس حذاري تقول كلمة كده ولا كده للبنت هتلاقيني ليك بالمرصاد.

رمقها أسامة بصدمة وهي تشير له بالتحذير، ثم اختفت تاركة له مهمة المواجهة والاصطدام مع مدام عفاف.

وهو أطلق أنفاسه بصوت مرتفع، ثم استدار يغلق الباب خلفهم، يتحرك صوب غرفتها بخطوات هادئة، رفع يده يطرق الباب بهدوء شديد، ولم يكد يفعل ذلك حتى وجده يُفتح بقوة وهي قبالته مصدومة من وقوفه.

أنزل أسامة يده بسرعة راسمًا بسمة واسعة على فمه وهو يقول بحنان وهدوء يُبصر كل المشاعر في عينيها:

- إزيك يا فوفا، وحشتيني.

رفعت عفاف حاجبها بعدم فهم وسخرية، تتحرك بعيدًا عن الباب، وهو ما يزال ينظر لأثرها بصبر يتحرك خلفها صوب المطبخ حيث مملكتها التي تقتحمها وتعيث بها فسادًا كلما ضاقت بها الحياة، ولا

داعي لذكر أنّ جميع أسباب ضيقها من الحياة يتلخص باسم واحد (أسامة العو).

تحركت لثعدّ بعض الطعام كما اعتادت تردد بصوت خافت مخافة أن يُفضح ما يستره القلب:

- أنا هجهز الاكل وهحطه في المطبخ وقت ما تجوع سخن منه وكل.

كان يراقبها تتحرك بنشاط في المكان رغم حركات جسدها غير الطبيعية التي تَنُمّ عن غضب كبير، وما بين كل تلك الحركات، أوقفتها همسته التي خرجت مُحمّلة بكامل المشاعر التي يمتلكها تجاه تلك المرأة الحمقاء والتي لا تدرك مقدار المكانة لديه:

- فوفًا!

توقفت عفاف عمّا تفعله وقد التوى ثغرها دون إرادتها تشعر برغبة عارمة في البكاء، بينما أسامة انتبه لكل ذلك يقترب منها يجذبها صوبه يعانقها بحنان مربتًا على ظهرها بهدوء ودون كلمة واحدة، وهي بمجرد أنْ فعل ذلك انفجرت في البكاء بصوت مرتفع تردد كلمات غير مفهومة، كلمات كثيرة لم يفهم منها أسامة سوى أنّها تشكوه لنفسه.

قبّل رأسها وعاد يربت على ظهرها ينتظر أن تَفرُغ من البكاء والشكوى، واستمر الأمر لدقائق، قبل أنْ تبتعد عنه تمسح دموعها مرددة بصوت موجوع من أفكارها التي تتغذى على عقلها كل ليلة:

- انسى اللي قلته يا أسامة، الشكوى لغير الله مذلة.

اتسعت عيون أسامة بصدمة، بعد دقائق قضتها في البكاء وتلويث ثوبه، تبتعد عنه مرددة هذه الكلمات، ابتسم بعدم تصديق وقبل أن تخرج من نطاق ذراعيه جذبها مجددًا معيدًا إياها له:

- نعم يا أختي؟ بعد نص ساعة بكا وبهدلتِ ليّ اللبس تقولي الشكوى لغير الله مذلة؟ ونعم بالله يا حبيبتي، بس أنتِ مش بس اشتكتيني ده أنتِ اشتكتيني لسابع جد.

نظرت له باعتراض ولم تتحدث بكلمة وهو فقط زفر، ثم ربت على خدها بحنان ولطف:

- مالك يا فوفا بقيتِ حساسة الفترة الأخيرة كده وتشمشمي على النكد ليه؟

التوى ثغرها مجددًا استعدادًا لموجة بكاء وشكوى أخرى، لكن أسامة مد أنامله يضم شفتيها يمنعها من البدء مجددًا:

- من غير عياط، اتكلمي عادي زي ما بتكلم معاكِ كده.

أبعدت يده وهي تقول بصوت منخفض:

- أسامة هو أنت ندمان أنّك اتجوزتني؟

أصاب الذهول أسامة ولم يستطع النطق بعد كلماتها تلك، ندم؟ والله الشيء الوحيد الذي يندم عليه حتى الآن أنّه لم يتزوجها منذ أول مرة رآها بها وهي تقدم له بعض الحلوى التي كانت تنافسها حلاوة، ابتلع ريقه يتساءل بجدية وقد قرر رأب الصدع الذي أنشأته بينهما بأفكارها:

- ليه بتقولي كده يا عفاف؟

بللت عفاف شفتيها وهي تفضي له بمخاوفها:

- ساعات ... ساعات بحس أنّك مش ... مش شبهي، مش لايق عليا، وبخاف تاخد بالك إنّي مش لايقة عليك يا أسامة، وهند ... بحس هند أقرب ليك مني وبتفهمها من غير كلام، و...

صمتت وقد أفضت بأكثر مما يجب، هي تثق بهند وتثق بأسامة، لكنه الشيطان استمتع باللعب على أوتار ثباتها، هي ليست حمقاء لتغفل عن نظرات الفهم بينه وبين هند، تشابه عقليته معها.

وأسامة شعر بقلبه يهتز بقوة لكلماتها، ابتعد خطوة للخلف يحاول إيجاد كلمات يتحدث بها معها، وكلما فتح فمه أغلقه مجددًا وقد عجز عن الرد على كل ذلك، بينما هي فهمت صمته بطريقة خاطئة لتهز رأسها وهي تتحرك بعيدًا عنه:

- عمومًا يا أسامة أنا مش بلومك، ولا بعاتبك بس ...

وقبل الابتعاد بخطوة إضافية جذبها أسامة بعنف لأحضانه، يحجزها بين ذراعيه برعب من فكرة أن تتمكن تلك الأفكار الخبيثة من التفريق بينهما:

- عفاف أنتِ بتقولي إيه؟ هند؟ وأنا لو عايز هند ما هي كانت قدامي من سنوات طويلة، ما كنت اتجوزتها هي؟

أبعدها عنه يردد بفزع وخوف من أن تتمكن تلك الأفكار منها:

- والله العظيم عمري ما بصيت لهند بصة غير رسمية، هند أختي

اه بس حتى تعاملي معاها بيكون في حدود الزمالة، وبالنسبة أنّها شبهي أو بتفهمني من نظرة، دي مش ميزة تخليني أنجذب ليها، أنا بنجذب للدفء في عيونك أكتر من الفهم اللي في عيون هند يا عفاف.

نظرت له بتردد وهو ردد بسرعة ولهفة:

- عمر الإنسان ما هيحب شخص شبهه، إحنا بنحب اللي يكملنا يا عفاف، وأنا من يوم ما جيت المنظمة دي واتعينت فيها مش شايف حد يكملني ولا ينفع يكون شريك حياتي غيرك، حاولت أبعد الموضوع عن دماغي وأنّه مينفعش أخلط الشغل بحياتي الشخصية، بس الموضوع كان أكبر من احتمالي، مسألتيش نفسك لو أنا معجب أوي كده بهند متجوزتهاش هي ليه؟

نبست عفاف من بين بكائها بصوت خافت:

- علشان هي كانت هتخلص عليك ومش هتوافق.

أطلق ضحكات مرتفعة وهو يضمها له بقوة وحب:

- عندك حق، وعلشان سبب تاني.

نظرت له بفضول ليقول بلطف:

- علشان هي مش مدام عفاف.

توترت عفاف ولم تستطع التحدث بكلمة، وهو قبل بصمتها إجابة، يردد بحنان لإبعاد تلك الفكرة عن رأسها تمامًا:

- هند علاقتي بيها محصورة في الزمالة، والأخوة، هي مجتهدة

وشاطرة رغم أنها ساعات بتشاركككم الغباء، لكن هي شخص ذكي محدش يقدر ينكر ده، زي ما محدش يقدر ينكر إن أنتِ شاطرة في مجالك ومحدش يقدر ينافسك فيه، وجلال شاطر في مجاله، كل واحد شاطر في جزء فأوعي تحسي أنك أقل من هند أو غيره، عفاف أنتِ شاطرة وذكية زي هند ويمكن أكتر كمان فبلاش أفكارك تبعدك عن الحقيقة دي.

نظرت له بشك ليبتسم ممازحًا:

- بعدين ما أنتِ بتندمجي مع جلال أكتر مني، جيت في يوم زعلت منك وزعقت ليكِ رغم أنّي بغير عليكِ منه وببقى نفسي أقوم أطرده من المكان كلّه؟

نظرت له بصدمة وهو تنهد يفضي لها بما يكنه في صدره:

- أنا مش بحب أشوفك مندمجة مع حد في الكلام غيري، ورغم كده مدرك شغلنا واللي بنعمله علشان نعدي كل مهمة، هند متستحقش أنّك تشكي فيها ولا جلال يستحق إنّي اتعامل معاه وحش علشان بغير عليكِ منه، لازم نتحكم في تصرفاتنا علشان دول صحابنا، صح؟

نظرت عفاف للأرض بخجل وهو ابتسم يقبل رأسها، ثم ضمها بسرعة وابتعد يقول بهدوء:

- تمام كده مش هتسيبي الفريق؟

نفت عفاف ببسمة واسعة وهو بادلها البسمة، ثم دفعها صوب المطبخ يشمر أكمامه بحماس:

- طيب يلا خلينا نجهز أكل علشان جعان وهيجي جلال بالليل يدوشنا أنّه جعان.

ابتسمت له تحب تفهمه وأنّه رغم كل ما قالته لم يجرحها بكلمة، لذا بدون تفكير ضمته بقوة تردد بحب:

- شكرًا يا أسامة، وآسفة لو زعلتك، وأنا هعتذر لهند لما تيجي بالليل.

- هند أساسًا مزعلتش دي كانت بتهددني قبل ما تمشي لو قربت منك أو زعلتك الجتة الجاية هتبقى جثتي.

ضحكت عفاف بصوت مرتفع وهي تتنهد براحة، تبتعد عن هذا الجزء، وتندمج في الجزء المهم الآن.

***

- تمام كده يا خيري باشا، أظن كل شيء تمام ومتفقين؟

كانت تلك كلمات كريم وهو يغلق شاشة العرض أمامه بعدما انتهى للتو من عرض كامل مستجدات المشروع على خيري ومساعديه، ذلك المشروع الذي كان أشبه باللعنة على الجميع، والآن استكملوه بعد شهور من توقفه.

تنفس مدحت يخفف من رابطة العنق حول رقبته وهو يحرك القلم أمامه بشرود، بينما محمد يراقب ويستمع باهتمام شديد، فهو لن يترك المشروع بين أنامل كريم يتحكم به كما يشاء ويهمش دوره.

ابتسم خيري بسمة باهتة لا معنى لها، وقد اشتدت عينيه تحكي

كرهًا وحقدًا واضحين، لكن لسانه نطق بما ينافي نظراته:

- تمام كده يا باشمهندس، أنا هسيب المحامي هنا علشان يعرض عليكم العقود النهائية بعد تعديل البنود اللي فيها وأنتم اقرأوها كويس وبلغوني رأيكم علشان نمضيها.

ابتسم كريم يجذب العقود ملقيًا بها صوب المحامي الذي أحضره مدحت ينقر بأصابعه على الطاولة مرددًا بهدوء وتحدٍ:

- لا يا خيري باشا وعلى إيه، نص ساعة والمتر يخلص ونمضي وإن شاء الله ميكونش فيه شيء يمنع الموضوع، إحنا عايزين نحتفل النهاردة ولا إيه؟

رمقه خيري بكره وغضب شديدين، ثم هز رأسه ينهض عن الطاولة مستأذنًا بهدوء متحركًا للخارج:

- طيب أستأذن أنا أشرب سيجارة برة لغاية ما تخلصوا وابقوا نادوني.

خرج بسرعة غير تاركٍ فرصة لهم للرد، يفك أزرار قميصه وهو يخرج سيجارة يلقيها في فمه وقد وصل لقمة غضبه، ذلك الحقير أجبره بأكثر الطرق قذارة على مشاركته، لكن صبرًا سوف يُلحقه برفاقه.

تحرك صوب النافذة التي تقبع في أحد أركان الشركة يقف هناك يرتشف من سيجارته بهدوء وشرود وقد عاد عقله لذلك اليوم الذي سقط أسفل أقدام كريم ورفاقه وسلم لهم رقبته.

كان خيري يجلس وأمامه يقبع محاسب شركته المخلص العزيز

والذي يعمل معه منذ سنوات طويلة، بعدما طعنه في ظهره واختلس منه مبالغ ضخمة ظنًا ألّا أحد سيمسك به:

- ها يا مينا؟ مش عايز تقول كلمة أخيرة تدافع بيها عن نفسك قبل ما أرميك في السجن؟

ظهرت لمحة خوف وهلع على وجه مينا، قبل أن يخفيها بمهارة أدهشت خيري، وقد ظهرت نظرة قوة غريبة داخل عينيه، نظرة لا يجب أن تستوطن عيون شخص بمثل موضعه.

بينما مينا كاد يرتجف بخوف من تهديد خيري الواضح له، لولا أن تذكر اتفاقه مع كريم وما حدث، ابتلع ريقه يردد:

- أيوه يا باشا بس أنا لو وقعت مش ... مش هقع لوحدي.

رفع خيري حاجبه بعدم فهم:

- إيه هتبلغ إنّي بختلس معاك من شركتي؟

رمقه مينا بتجبر وقوة وهو يدس يده داخل جيوبه ومن ثم أخرج شيئًا صغيرًا أسود اللون يضعه على المكتب مردّدًا:

- لا هبلغ عن كل بلاويك اللي بتعملها في شركتك.

نظر له خيري بعدم فهم ولم يكد يتحدث حتى نهض مينا من أمامه، يُغلق أزرار سترته، ثم قال بهدوء:

- اتفرج براحتك على الفيديوهات دي وحللها مع نفسك وبعدين كلمني يا باشا، وآه أنا عندي النسخة الأصلية منها فمتخليش عقلك يوزك تعمل حاجة كده ولا كده.

وبكل بساطة خرج من المكتب تاركًا خيري مصدومًا من طريقة حديثه معه، نظر للذاكرة الإلكترونية الصغيرة التي تتوسط مكتبه بتفكير، قبل أن يمد يده يلتقطها لمعرفة ما بها، ولم يدرك أنّه فتح يومها أبواب جحيمه وسلّم رقبته لهم.

استفاق خيري على صوت خلفه يقول:

- خلاص يا باشا تعالى علشان نمضي الورق.

استدار نصف استدارة يواجه كريم الذي كان يضع يديه داخل جيبه مبتسمًا بسمة واسعة سعيدة مبتهجة، بسمة أشعلت نيرانًا داخل صدر خيري الذي نبث بهدوء منافي للمراجل داخله:

- تمام يا كريم بس متشتكيش من النار بقى لما تحرقك.

ابتسم بسمة جانبية ساخرة يشير بحديثه صوب ما يملكه ضد خيري:

- متخافش معايا طفاية حريق للنار دي، يلا علشان نمضي وبعدين هنروح نحتفل كلنا سوا، سهرتنا صبّاحي يا باشا.

***

نهاية اليوم..

دارت عيون أسامة على جميع الوجوه حوله يرى ردود الفعل الخاصة بهم على حديثه وقد ألقى الهاتف الذي يحمل ما صوره أمامهم.

- يعني كده محمد هو القاتل؟

نظر الجميع صوب عفاف التي خرجت بهذا التحليل حينما سمعت كلمات أسامة ورأت بعينيها الدليل، لكن أسامة هز رأسه بحيرة:

- الصورة دي بتقول كده، السكينة اللي ماسكها محمد في الصورة هي نفسها اللي كانت مع القاتل يوم ما كان بيجري ورا كريم.

خمنت هند بتفكير طارحة جميع الاحتمالات الممكنة:

- مش ... مش ممكن فيه أكتر من شخص معاه نفس السكينة؟

هز أسامة رأسه موافقًا:

- ممكن، بس في الشلة دي وهنا مفيش غير محمد اللي ماسك النوع ده، وده بيخلي أصابع الاتهام تتحرك ناحية محمد.

- طب وليه يقتل صحابه أساسًا؟

كان ذلك تساؤل جلال الذي خرج عن صمته معبرًا عن حيرته:

- عم سلطان كان دايمًا يقول إن كل الشباب فاسدين ومش كويسين وإنّ ابنه ضاع بسببهم، بس لدرجة يقتل صحابه؟

تحدثت عفاف شاردة وقد تذكرت اللقاء الذي حضرته صباح اليوم، وغفلت عنه في خِضم ما حدث لها.

- النهاردة الصبح ديانا راحت علشان تقابل محمد، وحصل بينهم حوار طويل.

انتبه لها الجميع بإنصات وترقب وهي بدأت تخبرهم ببساطة ما سمعت:

- كانت بتستنجد بمحمد باعتبار أنّه أكتر واحد كان قريب من مينا، بتقوله يساعد مينا وينقذه من خيري اللي كل يوم يجي يهدد أخوها، و... اللي فهمته إنّ الشيء اللي أجبر خيري يشارك الشباب موجود مع مينا برضو، لأنّها قالت لمحمد أنّها معاها نسخة منه وهددته بفيديوهات.

ضيقت هند عينيها تحاول فهم ما حدث وقد بدأ عقلها يجمع الخيوط يربطها ببعضها حتى نطقت دون شعور كلمات سمعتها على لسان مدحت اليوم:

- هو كان رايح علشان يساعده، ليه يعمل فيه كده؟ مكانش هيأذي حد باللي معاه.

نظر لها الجميع بعدم فهم لتلك الجملة الغريبة التي نطقت بها هند، بينما هند انتفض جسدها تردد بأعين متسعة وقد أدركت للتو شيئًا قد يساعدهم للوصول للجاني:

- ده كلام مدحت، يوم ما أحمد اتقتل كان المفروض أنّه رايح مشوار علشان يساعد حد واتقتل، مدحت كان عمال يردد أنّه السبب وكان المفروض يسمع كلام أحمد ويسيبهم، مكانش لازم أحمد يروح اليوم ده لوحده، أحمد ... أحمد اللي قتله مش نفس اللي قتل الكل، اللي قتل أحمد كان علشان يدفنه باللي معاه.

نظر لها الكل بانتباه شديد وقد عملت عقولهم بسرعة الصاروخ لاستدراك ما يقال وهند ابتسمت بصدمة:

- الفيديوهات اللي بتتكلم عنها ديانا هي نفسها اللي كريم ومينا

بيهددوا بيها خيري، وهي نفسها الفيديوهات اللي أحمد كان رايح يسلمها يوم موته علشان يساعد خيري.

شعرت عفاف أنّ عقلها سينفجر، بينما أسامة استلم منها الراية يكمل، باستدراك وهو يضغط على عقله بكل ما جمعه:

- أحمد مهندس تكنولوجيا، كان مطوّر ألعاب ومبرمج في شركة كبيرة قبل ما يسيبها ويشاركهم، أكيد الفيديوهات دي وصلت ليه بشكل ما، وهو كان رايح يسلمها لخيري واتقتل.

اتسعت عيون جلال بإدراك لكلمات أسامة يهمس بصدمة وتفكير:

- وليه خيري قتله لو رايح يساعده؟

- يمكن كان عايز يتأكد أنّه محدش هيجيب سيرة الدليل ده تاني فخلص على أحمد وبدأ يخلص عليهم كلهم علشان يدفن الدليل ده واللي أيًا كان هو إيه فهو حاجة كبيرة جدًا ممكن تدمر خيري.

كانت تلك كلمات عفاف التي شاركتهم التحليل، نظر لها أسامة بإعجاب وبسمة واسعة غامضة، يضيف بتفكير يدعم فكرته الأولى:

- كريم أخد من محمد حبيبته وبعدين حاول يتحكم فيه، أكيد محمد ليه يد في اللي بيحصل.

تحدث جلال بتخمين يشاركهم الحديث:

- مش يمكن خيري متفق مع محمد يخلصوا على الكل سوا، ومقابل الفيديوهات اللي محمد هيسلمها لخيري وأنّه يخلص على صحابه، محمد يشيل الشركة وياخد الجمل بما حمل، ومحمد عمل

كده لأنّه متغاظ من كريم علشان حبيبته وطلع انتقامه في الكل وبقى سريلاك كيلر؟

ورغم نظرية المؤامرة والفيلم الهندي، والكلمة المريبة التي ذكرها جلال منذ ثوانٍ إلّا أن ذلك لم يكن مستبعدًا أبدًا في مثل تلك الظروف والأحداث المريبة حولهم، مال أسامة يضم يديه أمامه مستندًا على ركبتيه مردّدًا ببسمة غامضة:

- ممكن، كل شيء ممكن، بس الأكيد أنّ الحل قرّب، قرّب أوي.

***

الفصل العاشر

(جاني أم مجني عليه؟)

لكل نتيجة مسببات، مسببات تدفع بك دفعًا صوب تلك النتيجة، وهو كانت مسبباته بالقوة التي قد تدفعه صوب الهاوية.

جثة تطفو على سطح المياه مع علامات الذبح التي تزين الرقبة، وقطعة قماش تخفي نصف وجهه وكأنّ الذبح لم يكن سببًا كافيًا للموت.

وأصوات الصراخ تعلو حول حافة "الترعة" الجميع يصرخ ويولول مشيرًا لأحد أن يهبط وينتشلها من بين غياهب الجب.

ومن بين تلك الصرخات صدحت صرخة مفزوعة انتزعت القلوب من الصدور وصوت صاحبها رنّ في الأجواء باسمه، ليركض ملقيًا نفسه في المجرى كي ينتشله بين الجميع يأمره بالعودة، لكن هيهات فهذا الذي فارق الحياة كان ولده الذي خرج به من الحياة.

لكن ها هي الحياة تغدر به وتنتزعه منه بقوة دون شعور ولو للحظة واحدة بالذنب.

***

انتفض جسد أسامة بقوة وقد ضيق ما بين حاجبية حين وصلت لهم تلك الضوضاء التي ارتفعت في الأسفل، تحرك سريعًا عن المقعد الخاص به متعجبًا وجود مثل كل تلك الضوضاء في هذا الوقت من الليل.

تحرك الجميع خلفه وتوسطوا شرفة المنزل الذي يقطن به أسامة يراقبون الأجساد التي تهرول في الأسفل والأصوات التي تعلو بالذكر، والنحيب الذي يخرج من بعض المنازل.

نظر أسامة صوبهم بعدم فهم لتردد هند بتخمين:

- حد جديد؟

عند هذه الفكرة اندفع أسامة بسرعة صوب الخارج، وخلفه الجميع يركضون مع الناس، ومع كل خطوة يتحركونها يتأكد أسامة أكثر من صدق تخمين هند، ها هي الأقدام تقترب بهم من حافة المجرى، وتلك الضوضاء الصاخبة والتجمعات الكبيرة تؤكد صدق التخمين أكثر وأكثر.

ضحية أخرى ضاعت، استطاع القاتل التمكن من كريم هذه المرة.

توقف أسامة على قارعة الطريق أمام المجرى وهو يجذب خصلات شعره بجنون مما يحدث حوله، كان يأمل في الوصول للقاتل قبل وقوع ضحية أخرى له.

توقف الثلاثة خلفه يحدقون فيما يحدث بصمت غير قادرين على التحدث أو الاستنتاج فالأجواء حولهم كانت مشحونة، ابتلع أسامة ريقه يلتفت لهم متحدثًا بكلمات قليلة:

- كده كريم مـ ...

وقبل استكمال كلماته سمع صوت صرخات تصدح في المكان وجسد يهرول صوب البحيرة يصرخ:

- مـحمـدا!

استدار الجميع بصدمة صوب جسد كريم الذي هرول بسرعة كبيرة صوب البحيرة يراقب الجميع وهم ينتشلون جثة رفيقه، محمد الذي كان يجلس معه منذ ساعات قليلة فقط، كيف ... كيف حدث هذا وبهذه السرعة؟

ازداد الرعب بقلب كريم وشعر بالمكان يضيق به، والهواء ينسحب من حوله، وغاص قلبه ليس حزنًا على فراق رفيقه، بل رعبًا لأن يكون هو التالي على القائمة، ابتلع ريقه يبحث ب عينيه حوله عن طوق نجاة، أي شيء يخبره أنّ هذا كابوس، وأنّه سيفيق ليجد نفسه يحيا حياته السابقة الهانئة.

سقطت دموعه وانهار أرضًا وقد بدأت شهقاته تعلو خوفًا مما يحدث، والجميع حوله يُقلّب الأكفة بشفقة ظنًا أن بكاءه بهذه الطريقة لأجل رحيل رفيق آخر له، ولم يدر الجميع أنّ كريم كان آخر همه مقتل محمد، وأنّ بكاءه هذا نابعًا من رعبه على حياته.

فجأة شعر بأحدهم يساعده لينهض وهو يربت على كتفه:

- وحد الله واترحم عليه، كلنا هنحصله.

استدار كريم بفزع صوب محدثه ليبصر مدحت الذي كان وجهه شاحبًا وجسده يرتجف وكأنّه رأى موته للتو، بينما مدحت شخص بأبصاره صوب جسد محمد الذي أخرجه بعض الرجال وتركوه على الحافة ليرثيه أقاربه، يدرك أنّ الموت قادم لا محالة، والجميع يستحقه.

شعر أسامة بالصدمة مما يرى، كريم لم يكن هو المقتول؟ بل محمد؟

تبادل مع فريقه نظرات فهمها الجميع، فها هو الجاني الذي كانوا يلفون حبال الشك حول رقبته منذ ثوانٍ يتحول لضحية، والسؤال الآن، إن لم يكن محمد هو الجاني فمَن إذن؟

- عم سلطان؟

كانت تلك الكلمة التي اخترقت شرود أسامة صادرة من فم جلال الذي ترك الجميع يتابعونه بعدم فهم ويتحرك صوب الحافة وكأنه مُنوّم مغناطيسيًا يراقب جسد محمد بأعين متسعة يهمس بكلمات غير مفهومة.

استدار جلال يبحث بعينيه بين الجميع عن سلطان، لكن لم يكن في الجوار لا هو ولا صلاح، نظر خلفه صوب أسامة نظرات غير مفهومة جعلت أسامة يبادله النظرات بأخرى مستفسرة.

بينما جلال لم يُجبه بكلمة وهو يتحرك مقتربًا أكثر من جثة محمد، يراقبها عن قرب وعينيه تتحرك عليها محاولًا التأكد مما يرى، والمكان حوله قد فرغ إلّا منه ومن جثة محمد.

وفجأة انتفض على يد أسامة الذي جذبه بعيدًا حينما امتلأ المكان بالشرطة، يجره خلفه، بينما عيون جلال متعلقة بجسد محمد في شرود مخيف جعل أسامة يتعجب منه أكثر وأكثر.

وحينما عاد الجميع الحارة استغل أسامة حالة الهرج والمرج في المكان بسبب الصرخات الصادرة من منزل القتيل، وانتشار عناصر

الشرطة في الأزِقة، وجذب معه فريقه للمنزل دون أن يشعر بهم أحد.

صعد معهم وهو يفكر في القادم، الجاني المحتمل تحول في غضون لحظات قليلة إلى ضحية مؤكدة.

وصل أسامة للمنزل وأغلق الباب خلفه وهو يحدق في الجميع محاولًا معرفة ما يحدث حولهم؛ الأمور تشابكت بشكل أكبر.

- اللي حـ

- عم سلطان.. عم سلطان هو اللي قتله.

كلمات ألقى بها جلال دون تفكير ودون حتى تريث، فقط ألقاها دون اهتمام، بينما اتسعت الأعين حوله بصدمة وقد بهتت الوجوه من تحليل جلال، وجلال فقط شاخص البصر وكأنّه يُحدّق بشيء وهمي لا يبصره غيره، اندفع له أسامة بقوة يجذبه من كتفيه متحدثًا بترقب وجسده ينتفض من اللهفة:

- دي ... دي تخمينة من عقلك يا جلال ولا حصل إيه هناك عند الترعة، أنا سمعتك بتقول اسم سلطان هناك.

نظر له جلال بشرود قليلًا وكأنّه يفكر في كلماته التي نطقها منذ ثوانٍ، كأنّه نطق بها منوّمًا.

بينما هند فجأة تحدثت بكلمات تذكرتها للتو وكأن حديث جلال حفز ذاكرتها على التفاعل معه:

- سلطان، أيوه سلطان، مدحت في اليوم اللي تعب قعد يخرف باسم سلطان كتير، كان بيقول كلام مش مفهوم فيه اسم سلطان.

صمتت ونظرت لهم تهتف:

- معقولة؟ هو القاتل؟

ترك أسامة كتف جلال وهو يتراجع للخلف وعقله يعمل بسرعة كبيرة، يحاول تجميع ما وصل له من الأدلة، يحاول جعل تلك الأدلة تتطابق مع سلطان، جعلها تلائمه وتناسبه لجعله متهمًا محتملًا في قضية قتل خمسة شباب من بينهم ولده الوحيد.

- الشبشب.

نظر الجميع صوب أسامة الذي هتف وكأنه غفل عن تلك المعلومة:

- يوم ... يوم ما كنا في المسجد صلاح كان ... كان عمال يشتكي من حجم الشباشب الصغير، وأنا كمان مكانتش على قدي و ... بس هي كانت بالضبط على قد سلطان، الشبشب المخصص للمسجد كان على مقاسه بالضبط.

نظر له الجميع بترقب، لتهمس عفاف وهي تحاول الوصول لشيء يثبت كل التخمينات العجيبة تلك:

- بس ... ده ... ابنه؟ إزاي؟

- مش هو اللي قتله، اللي قتل أحمد مش هو نفسه اللي قتل الباقيين.

نظر الجميع صوب هند التي بدأت توضح معنى كلماتها السابقة وهي تقول وتعيد ما سبق وأخبرتهم به:

- من كلام مدحت فاللي قتل أحمد مكانش نفسه اللي قتل

الباقيين، أحمد اتقتل غدر من حد غير اللي بيقتل الباقيين.

أمسكت عفاف رأسها تشعر بأنّها ستنفجر من كثر التخمينات والأقاويل التي تدور حولهم:

- يعني إيه؟ إيه اللي بيحصل ده؟ طب والأدلة؟ خيري والشركة والمشروع والفيديوهات؟ إيه علاقة كل دول بأنّ سلطان هو القاتل؟

نظر أسامة صوب جلال الذي كان يبدو مصدومًا مما يحدث أكثر منهم:

- جلال إيه اللي خلاك تقول إن سلطان هو القاتل؟

نظر لهم جلال ثم حرك يده يقول بجدية:

- الشال اللي كان ملفوف بيه وش محمد، هو نفسه اللي اشتراه عم سلطان من يوم، أنا فاكر كويس أوي هي نفسها حتة القماشة اللي مسكها علشان يشتريها، حتى عم صلاح كان بيقولي إنّ عم سلطان كل شوية يشتري قماش وميعرفش بيعمل بيه إيه، أكيد مش صدفة يشتري حتة قماشة وتاني يوم واحد يموت مخنوق بنفس القماشة.

لمعت أعين أسامة وهو يمسك جلال من رأسه، ثم جذبها يقبلها بسعادة كبيرة وبعدها أمسكه من كتفيه يقول:

- متعرفش أنا فخور ومصدوم إزاي دلوقتي، بجد يا جلال أنت أبهرتني، صدقني والله أنا بكلمك دلوقتي وأنا مش مصدق نفسي، بس أنت تستحق كل الثناء على لحظات الذكاء النادرة دي.

ابتهج جلال من مدح أسامة له، بل وقفز قلبه سعادة يهتف بأمل

شديد:

- هتعملي رسالة توصية علشان أبقى قائد فرقة في المنظمة؟

رفع أسامة حاجبه يدفعه بسخرية:

- لا مش للدرجة دي.

صمت ثم استدار صوب الجميع يقول ببسمة غامضة:

- وبما أنّنا مسكنا طرف الخيط، فدلوقتي عايزين نقعد نهدى كده ونطقّم كل الأدلة على عم سلطان علشان نشوفها على مقاسه ولا لا.

***

دخل منزله يُلقي المفاتيح أرضًا دون اهتمام، ثم تحرك بجسد مرهق داخل الغرفة الخاصة به ينتزع عنه قميصه يلقيه على الفراش، ومن ثَمّ توقف أمام المرآة يراقب الشروخ التي استقرت على جسده، ترتسم بسمة واسعة على جانب فمه، قبل أن تتلاشى مستديرًا صوب صورة ولده التي تستقر على طاولة جوار الفراش مردّدًا بحنان:

- ربنا يرحمك يا أحمد.

كانت نبرته عادية حنونة مشتاقة لا توحي بأي شيء، لا تخبرك أنّ ذلك الرجل الذي تخطى الأربعين من عمره هو نفسه الرجل المتجبّر الذي أنهى إخراج روح بيده منذ ثوانٍ.

عم سلطان ذلك الرجل ذو الوجه البشوش والنظرات الهادئة والكلمات الحكيمة، هو نفسه القاتل الذي يتجول بعد مغيب الشمس

ليحصد أرواح مَن يقابله من شياطين الإنس الذين حرموه ولده.

أحمد المسكين الذي فقده بأسوأ الطرق، فقط لأنّه أبى على نفسه المشاركة في فعل يغضب الله، قُتل ولده جورًا لأنه رفض تلويث يده بما حرم الله، خُنق وذُبح لأنّه وقف في وجهه وصرخ بلا.

اليوم الأخير في حياة أحمد

بمجرد خروج أحمد من المنزل حمل سلطان هاتفه الصغير يتصل بأول مَن جاء على رأسه ليستعلم منه عن حالة ولده المريبة، وبمجرد سماعه لصوت من الجهة الثانية تحدث بقلق:

- مدحت يا بني أنت فين؟ شوفت أحمد؟ خرج من شوية وشكله مش طبيعي وأنا قلبي مش مستريح يا ابني.

صمت لثوانٍ يستمع لكلمات مدحت التي بثت الطمأنينة بقلبه يخبره ألّا يقلق، هو سيتصل بأحمد ويلحق به ليطمئن أنّه بخير.

أغلق سلطان الهاتف وجلس على الأريكة بقلب وجل، قلبه يخبره أنّ شيئًا سيئًا سيحدث، انقباض صدره تخيفه وترعبه.

وبعد ساعة تقريبًا من الجلوس بنفس الشكل دون الإتيان بحركة واحدة، قرر الخروج من المنزل والذهاب لمحله عساه يلتهي بأي أحاديث مع صلاح أو غيره ويشغل عقله عن التفكير فيما يؤرقه.

لكن وحين فعل وهبط من المنزل، أبصر مدحت الذي تحرك للخارج بملامح متغضنة، لتنقبض ملامحه هو متحدثًا بحنق:

- مدحت، أنت لسه هنا يا بني؟ مش قلت أنّك رايح مع أحمد؟

رفع مدحت وجهه صوب سلطان يتأفف بصوت منخفض يمسح وجهه وقد كان يشعر بالاختناق:

- معلش يا عم سلطان بس حصل حوار أخرني، أنا رايح دلوقتي، هتصل بيه أشوفه فين.

هز سلطان رأسه يدفعه صوب التحرك بسرعة وطمأنته على ولده:

- طيب يلا روح وأبقى طمني عليه الله يكرمك يا بني لاحسن هو مش بيرد عليّ وأنا قلبي واكلني عليه.

هز مدحت رأسه وتحرك ليحضر أحمد ويعيده، بينما سلطان تحرك وقرر عدم فتح محله والذهاب صوب المقهى ليشارك صلاح جلستهم الليلة ويلهي نفسه عن التفكير حتى يعود له مدحت بما يبرد صدره على ولده.

ولم يحدث ما تمناه سلطان، وقد كانت هذه بداية جحيم حل على حارة الخولي ومَن بها، فتحولت من مجرد حارة عادية آمنة، إلى جحيم لكل مَن خطى لها.

***

الموت، هو بوابة تفصل بين عالمنا وعالم مَن سبقونا إليه، عالم مَن غادرنا، عالم يفصل بيننا وبينه مجرد ستار خفي لا نبصره، ستار يمنع عنا رؤية مَن يسكن العالم الآخر.

لكن الآن وفي هذه اللحظة أمام عينيه يبدو أن ذلك الستار الخفي قد تلاشى ليندمج عالمنا بعالمهم، وتظهر أمام عينيه جميع الأرواح التي ظنّ أن أصحابها غادروه دون رجعة.

يشعر أنّه يراهم، هم هنا يجلسون حوله يتحدثون معه، يشكونه ويلمونه، يعاتبونه على ما أجرمت يداه.

ضم ركبتيه لصدره وهو يدفن وجهه بينهم وقد شعر فجأة بالاختناق، جسده يرتجف برعب وقد انفجر في بكاء حاد، رؤية جسد محمد جثة هامدة اليوم أخبره أن الأمر مسألة وقت ويحين دوره.

يا ليته كان سبقهم جميعهم، فما أسوء من الموت سوى انتظاره.

ارتجف قلب كريم وهو يسمع صوتًا بجواره يهمس له بنبرة جعلت جسده يتجمد رعبًا:

- قلت لك يا كريم بلاش السكة دي آخرتها وحشة يا صاحبي.

انتفض كريم برعب وهو يستدير جواره صارخًا بهلع كبير:

- أحمد؟

- قلت لك بلاش يا كريم مسمعتش كلامي، شوف اللي حصلنا دلوقتي بسببك؟

اتسعت عيون كريم وتراجع للخلف، يرى أحمد والجميع يقترب منه وهو مستمر في التراجع حتى اصطدم ظهره في الجدار خلفه ليشعر بقلبه على وشك التوقف من الرعب.

تجمعت أرواح الجميع حوله في هذه اللحظة وصرخاته التي بدأت ترن بين جدران المنزل جعلت عقله يعيد عليه مشهدًا مشابهًا لما يحدث، مشهد قديم لكن وقتها لم يكن هو الضحية بل كان أحمد.

يوم مقتل أحمد

وصل أحمد صوب الشقة التي يتجمع بها الجميع للانتهاء من العمل في بعض الأحيان والسهر في الأحيان الأخرى، دخل يلقي عليهم التحية ويمازحهم قبل أن يجلس على الأريكة يراقب سالم يتحدث بجدية مع كريم حول المشروع القادم:

- بس خيري ده مش سهل، الواحد خايف يقل بأصله معانا في أي وقت و ...

قاطعه كريم بثقة كبيرة وهو يخبرهم دون اهتمام بشيء:

- مش هيقدر، صباعه تحت ضرسي، أي حركة كده ولا كده هقطعه ليه وهو عارف كده كويس أوي، وخيري مش غبي علشان يغامر بسمعته بالسهولة دي.

ارتشف أشرف من كوب العصير أمامه وقد أعجبه حديث كريم، يشعر بالنشوة لدخوله عالم الكبار، يترقب تلك اللحظة التي سيناظر العالم من فوق كما غيره من كبار رجال الأعمال.

- لا بس أنت مش سهل أبدًا يا كريم، هموت وأعرف ماسك عليه إيه علشان يعملك اللي أنت عايزه.

فتح كريم فمه مبتسمًا بسخرية وكاد يخبره ألّا يهتم بما يفعل ويركز فقط فيما سيحدث، لكن أحمد وجدها فرصة مناسبة ليُعَبّر عن استيائه وغضبه من تصرفات كريم:

- بيهدده بفيديوهات ليه مع ستات في مكتبه.

اتسعت الأعين بصدمة وارتفعت الشهقات في المكان، ليطلق محمد صفيرًا مرتفعًا يراقب كريم بفضول شديد:

- يا ابن الإيه؟ ماسك عليه سيديهات؟ مش عيب برضو يا كريم تتفرج لوحدك؟

اشتعل وجه كريم وهو يركز جميع حواسه مع أحمد الذي قال بجدية ووجه جامد بشكل مخيف:

- مكنتش أعرف أنّك هتوصل للمرحلة القذرة دي يا كريم، بتهدد الراجل بفيديوهات؟ علشان كده طلبت منّي أجيب لك كاميرا مراقبة صغيرة؟ خليتني أشارك في حواراتك القذرة من غير ما أعرف؟

تنفس كريم بصوت مرتفع يضغط على أسنانه بغضب مخيف حتى كادت عروقه تنفجر لشدة كبته لحنقه قبل أن يردد بصوت هادئ ينافي البراكين التي تثور داخله:

- أنت عرفت منين؟

- عرفت منين؟ أنت ناسي إنّ أنا اللي ظبطت ليك نظام المراقبة اللي طلبته مني؟ بتضحك عليّ وتقولي الشركة عندك محتاجاهم وأنا زي الأهبل صدقتك؟

انتفض كريم يصرخ بضيق في وجه أحمد وقد سأم من كل هذا:

- ما خلاص يا عسل مش هنقضيها لوم وعتاب، هو راجل *** مش أنا اللي روحت قلت له يعمل كده في المكتب.

- بس بتهدده بيها، عايز تكبر على فضيحة غيرك وعرض غيرك،

أنت ومينا بتستغلوا الراجل، واحد ابتزه واختلس منه الآلاف والتاني بيهدده مقابل أنّه يشاركه في مشروع.

اعترض كريم بجنون وهو يشيح بيديه رافضًا الاعتراف بخطئه:

- أديك قولت أهو هنشاركه، مش هاخد منه فلوس ولا ببتزه مثلًا، لا أنا زيي زيه في المشروع ده، وهو هيكسب زيه زينا.

- أنت بتجادل؟ بتبجح وأنت عارف أنّه لولا الفيديوهات اللي معاك ليه مكانش فكر حتى يبص لينا؟ إيه اللي يخلي واحد زي خيري يشارك شركة تحت بير السلم زينا؟

نهض سالم منتفضًا ثائرًا بغضب وقد سأم من أحمد وتصرفاته التي تدفعه للجنون وقد جاءته وأخيرًا الفرصة ليخرج جام غضبه عليه:

- أنت هتعملهم علينا ولا إيه؟ ولما هي بير سلم شاركتنا ليه يا باشمهندس؟

نظر له أحمد بندم مردّدًا:

- كنت غلطان وبتحمل تمن غلطي، سيبت وظيفة ثابتة في شركة محترمة علشان أرمي نفسي في المستنقع بتاعكم وأوسّخ نفسي بتصرفاتكم القذرة.

ازداد غضب سالم وجن جنونه يندفع صوب أحمد لاكمًا إياه صارخًا في وجهه بعدما أسقطه أرضًا:

- أنت هتشوف نفسك علينا ولا إيه يا **** ده أنت حتة عيل

لا راح ولا جه، أنت فاكر الوظيفة اللي كنت فيها دي أساسًا كانت هتديك ربع اللي بنديه ليك؟

نظر له أحمد بحقد وقد شعر بالنيران تغلي داخله من استهانة سالم به، نهض ينفض ثيابه يقول بسخرية لاذعة وهو يحدق في وجه ووجوه الجميع حوله:

- على الأقل وقتها هبقى عارف من جوايا إني مش بغضب ربنا وإني بشتغل شغلانة شريفة.

اندفع محمد يصرخ في وجهه وقد استفزته كلمات أحمد عنهم:

- إيه شغلانة شريفة دي؟ شايفنا فاتحين كباريه أنت التاني؟

استدار له أحمد نصف استدارة يردد بجدية وقد استاء من دفاعهم المستميت عن الباطل:

- والله كل واحد عارف هو بيعمل إيه يا محمد، عامة أنا جيت أنصحكم قبل ما أخرج من المستنقع ده، صدقوني آخرته مش هتعجب حد، أنا برة الشراكة دى وعايز فلوسى ومليش دعوة باللى بتعملوه.

ختم حديثه ولم يكد يتحرك حتى أوقفته كلمات كريم الذي قال بجدية يقطع طريقه بشراسة:

- رايح فين يا حبيبي؟ أنت مفكر دخول الحمام زي خروجه؟ هات فيديوهات خيري اللي معاك.

نظر له أحمد لهوانٍ قبل أن يدفعه جانبًا ويتحرك دون الاهتمام به

أو بغيره، وقد ازداد تصميمًا على الذهاب لخيري وتسليمه أصل تلك الأفلام التي يهدده بها كريم ومينا.

لكن لم يكد يتحرك حتى سمع صوت كريم يصرخ به أن يتوقف، فاشتعل الجدال بينهما، ليقرر أحمد تجاهل كريم، وأكمل طريقه بكل هدوء دون اهتمام لا يبصر أمامه سوى باب الخروج من هذا المستنقع والفرار بنفسه وحياته من بينهم.

لكن لم يكد يتحرك حتى شعر فجأة بشيء يلتف حول رقبته قطع عنه الهواء، اتسعت عيون أحمد بقوة ورفع يده يقاوم بكل ما فيه، وصوت كريم خلفه يهمس له بشر وجنون تلبس كل خلية في جسده وفكرة دمار أحلامه تدفع به صوب أحلك مناطق عقله:

- أنت فاكر إنّي هسيبك تمشي بالسهولة دي بعد ما كشفت كل حاجة؟ ومش بعيد تخرج من هنا على خيري وتبيعنا.

أشعلت كلمات كريم جنون الجميع وقد زرع في صدورهم كرهًا وخوفًا من تدمير أحمد لمستقبلهم الذي بنوه.

وأحمد يحرك يديه يحاول الفرار من بين أيديهم يشعر بالهواء يكاد ينقطع عن صدره، وجهه بدأ يتحول للأزرق ودموعه تهبط بقوة، يبصر من بين ضباب النهاية وجوه من عدّهم يومًا رفاق يلتفون حوله يتبارون على مَن يُخرج روحه قبل الآخر، يتسابقون على مَن يتخلّص منه أولًا، سقطت دموعه وارتعب وهو يتحرك بينهم متخبطًا بهم، يصرخ من بين أنفاس لاهثة وقد أوشك كريم على إخراج روحه بعدما تحكم الشيطان بالجميع حوله وزيّن لهم قتله للخلاص من خطره عليهم وعلى أحلامهم.

لعب كريم دور الشيطان بامتياز، حتى أنّ الشيطان ذاته وقف في ركن المنزل يصفق له ويشجعه، وأبى أن يتدخل كي لا تُفسد أفكاره البريئة، أفكار الإنس الخبيثة.

وفجأة جاءت أحمد طعنة الرحمة، طعنة رحمته من الموت البطيء بالخنق، طعنة تلقاها في منتصف بطنه، ومن ثم ذبح في رقبته ليتأكد قاتله من رحيله، ليتهاوى أرضًا متسع الأعين شاخص الأبصار يراقب سالم وقد انتزع سكينه يقول بغضب وقد طفى حقده القديم فوق ملامحه:

- يا تكون معانا، يا متكونش خالص يا أحمد.

سقط أحمد أرضًا بينهم، وهو يضع يده على معدته وقد شعر بالروح تُسحب من جسده والتف الجميع حوله يراقبونه ينازع خروج الروح في لحظاته الأخيرة.

وكان آخر ما أبصرت عيون أحمد، هو تجمع جميع أصدقائه منذ الطفولة حوله، أصدقاؤه الذين شاركوه كل لحظة من حياته، ها هم يشاركونه لحظات مماته.

فجأة انطفأت الحياة بأعين أحمد وسلّم روحه وسقط جثة هامدة بين الخمسة وقد تمكن منهم الشيطان وكانوا عونًا له، لينتزعوا البذرة الصالحة من بينهم.

خشي الشيطان أن يتمكن أحمد بصلاحه في إبعادهم عن طريق الضلال، فزّين لهم التخلص منه، وبهذا ضمن له أعوانًا أوفياء يفسدون معه في الأرض ولا يصلحون.

انتفض جسد كريم عن فراشه وهو يصرخ يبعد تلك الأيدي عنه، يشعر بيد تلتف حول عنقه تخنقه، وهو يصرخ ببكاء ورعب من مصيرٍ يرتقبه.

- لا لا، سامحني، سامحني والله العظيم ما كنت اقصد، سالم.. سالم هو اللي قتلك، أنا بس كنت بخوفك، والله ما أقصد، سالم هو السبب، سالم هو اللي قتلك.

كان يصرخ وهو يشعر بروحه تكاد تغادره، حتى سقط فجأة مغشيًا عليه من شدة الرعب وقد عاش لتوه أسوأ لحظات حياته.

قتل أحمد لم يكن بداية سلسلة القتل، بل كان سببًا لتلك السلسلة، وكان هذا التحليل هو الذي يدور داخل عقل أسامة بعد تجميع كل الأدلة ومحاولة مطابقتها مع سلطان، ورغم أنّ البعض كان مجهولًا عليهم أسبابه، إلا أنّ الباقيين انطبقوا على سلطان تمامًا.

- كل ده كان انتقام لقتل ابنه، علشان كده كان دايمًا يقول إن ابنه ضاع بسبب صحابه؟

كانت تلك جملة عفاف التي شعرت بالصدمة مما استنتجوه منذ ثوانٍ، كره سلطان الشديد لأصدقاء أحمد وجميع الأدلة التي تشير لسلطان، كلها إثباتات أنّه هو مَن قتل الجميع انتقامًا لولده.

تحدثت هند وهي تحاول جمع كل الخيوط داخل عقلها وترتيبها بشكل منسق:

- يعني أحمد اتقتل على إيد صحابه مش خيري؟

وكان هذا أكثر تفسير منطقي خرج به الجميع بعد كل ما حدث

حولهم، وبقي فقط الإثبات.

- إحنا محتاجين نلاقي دليل قاطع يثبت كلامنا ده، أكيد مش هنتهم شخص بمجرد تخمينات وتحليلات بناءً على شوية أدلة قابلتنا، بعدين إزاي شخص في عمر سلطان يقدر يقتل شباب في عمر محمد وسالم وغيرهم؟ إزاي أساسًا بيقدر يوصل ليهم ويخلص عليهم من غير ما حد يسمع ولا يشوف وبكل بساطة يشيلهم يرميهم في الترعة ومش بيظهر في الكاميرات.

تحدثت عفاف بتفكير:

- أكيد هو عارف مكان الكاميرات دي كويس، وبعدين مين ممكن يشك فيه والكل مفكره أنّه واحد من الضحايا؟ الكل مفكر إنّ أحمد بداية السلسلة ومحدش يعرف أنّه سببها، الكل فكر إنّ اللي قتل أحمد وقتل الشباب واحد، فأكيد مش هيجي في عقلهم إنّ الراجل المسكين ده يعمل كده، خصوصا إنّ ابنه واحد من الضحايا.

مسح أسامة وجهه وهو يشعر بأنّ هناك حلقة مفقودة في كل هذا، لقد أسقطوا شيئًا، وهذا الشيء هو ما سيكمل الصورة لهم.

- طب ما نروح لبيت سلطان نفتشه يمكن نلاقي أي دليل؟

التفتت جميع الرؤوس صوب جلال الذي تحدث بجدية، وهذا بدأ يخيف أسامة، فجلال ليس من ذلك النوع الجاد الذكي.

- فكرة حلوة بس هنعملها إزاي؟ والراجل مش بيفارق بيته غير الصبح وأكيد مش هنروح بيته الصبح والناس كلها صاحية وممكن حد ياخد باله مننا.

نظر الجميع لبعضهم البعض يفكرون قبل أن تضرب عفاف كفًا بالآخر مبتسمة بسمة واسعة وقد عثرت في عقلها على الحل الذي سيوصلهم لمنزله وفي المساء:

- جلال.

نظر الجميع صوبها وكذلك جلال الذي انتبه لما ستقوله، وهي أكملت ببسمة واسعة:

- جلال يعدي عليه بليل في البيت وياخده يخرجه بره بأي حجة يقوله عملت مصيبة وعايزك تتوسطلي ياخده معاه يشتري ليه جزمة، أي حاجة تخرج الراجل من بيته واحنا نبقى نشوف هنعمل إيه في البيت وقتها.

اتسعت عيون جلال برعب منتفضًا عن المقعد وقد أبى أن يصبح طعمًا لهم:

- أنتِ هبلة يا عفاف؟ بنقول لك راجل مخلص على نص شباب الحارة ونازل دبح فيهم ولا الفراخ البلدي وأنتِ تقولي أروح أخرجه من بيته علشان تدخلوه؟ ده مش بعيد يرميني في الترعة زي اللي سبقوني.

- وهو هيرميك ليه يا جلال، هو بيعمل كده انتقامًا من اللي قتلوا ابنه.

اعترض جلال بقوة رافضًا رفضًا تامًا أن يقحم نفسه في كل ذلك:

- وأنتم بتحاولوا تعطلوه من انتقامه في اللي قتلوا ابنه، أقولكم سيبوا الراجل يخلص وهو هيسكت لوحده خلاص باقي ليه اتنين

ويعتزل ويسكت ومش هيزعل حد والله، عم سلطان راجل طيب ده كان بيعزمني كل يوم على سحلب من القهوة.

رفع أسامة حاجبه بسخرية:

- عفاف عندها حق يا جلال، محدش غيرك هيقدر يعمل كده.

ساندتهم هند في ذلك:

- عندهم حق يا جلال أنت الوحيد اللي تقدر تفيدنا في كده بعدين مش دي كانت فكرتك أننا ندخل بيته؟

- كان انقطع لساني قبل ما أنطقها، بعدين من امتى وأنتم بتنفذوا أفكاري؟ ولا المرة دي جات على هواكم علشان فيها مصيبة ليّ؟ لا مليش فيه شوفوا غيري يعمل كده

ربت أسامة على كتف جلال بتشجيع يقول مبتسمًا بسمة واسعة:

- أنت اللي هتغني يا منعم.

أبعد جلال يده ثائرًا رافضًا كل ذلك وقد شعر أنّهم يريدون التضحية به:

- على جثتي أعمل اللي بتقولوا عليه أنا مش مستغني عن عمري.

***

مساء اليوم التالي وأمام منزل سلطان..

كان يقف هو ببسمة واسعة يردد بكل براءة وهدوء:

- إزيك يا عم سلطان كنت عايزك معايا في مشوار ضروري الله

يكرمك.

نظر سلطان حوله بتعجب، ثم رمق جلال بعدم فهم:

- مشوار إيه ده يا بني اللي عايزني فيه الساعة دي؟

- أصل أنا ... خبطت حد بالتوكتوك وكنت عايز معايا كبير يحضر الجلسة ويستسمح أهل الشاب اللي خبطته لأحسن حياتي يضيع، يرضيك حياتي تضيع يا عم سلطان؟

- حياة إيه وأنت مسمي حياتك دي حياة؟

نظر له جلال برجاء وتوسل جعله يزفر بغيظ وهو يشير له:

- اصبر أدخل أجيب المفتاح وألبس أي حاجة وآجي أما نشوف آخرتها معاك، تعالى أقعد لغاية ما أجيلك.

شعر جلال بالخوف من دخول منزله فابتلع ريقه يردد بتوتر:

- لا أنا هروح أدوّر التوكتوك لغاية ما تيجي، متتأخرش بقى.

تابع حديثه بالهرولة تحت نظرات سلطان المتعجبة، لكنه رغم ذلك دخل وتجهز، ثم لحق بجلال بعدما أغلق باب منزله، وما هي إلا دقائق قليلة بعدما تحرك جلال بالعربة مع سلطان حتى ظهر أسامة الذي راقب الزقاق الضيق الهادئ والذي يقبع به منزل سلطان، تحرك مع الفتاتين وقفزت هند من النافذة التي تطل على الطريق دون أدنى مجهود إذ كان سلطان يسكن مباشرة على الطريق، تحركت داخل المنزل وفتحت لهم الباب ليدخل الجميع ويغلقوه بسرعة.

نظر أسامة حوله في الظلام، ثم أشار لهم قائلًا:

- انتشروا.

أخذ الجميع دقائق طويلة لتفحص المنزل بحثًا عن شيء قد يرشدهم صوب الحقيقة، أي شيء، حتى أنّ أسامة بدأ يفحص الصور المعلقة بدقة، وأسفل الأرائك وكل ما تقابله يده، لكن المحصلة كانت صفر.

زفر أسامة بضيق وقد شعر باليأس وبدأ يفكر بجدية متحدثًا بصوت شبه هامس:

- ما يمكن ظلمنا الراجل ومش هو اللي قتلهم؟

- لا هو اللي قتلهم.

نظر أسامة سريعًا صوب الصوت الذي أتى من غرفة تقبع في نهاية الممر تقف أمامها عفاف وهي تحمل بين أناملها دليلًا دامغًا على الحقيقة تردد مبتسمة بانتصار:

- عم سلطان هو اللي قتلهم.

اتسعت أعين أسامة بقوة يتحرك بلهفة صوبها وقد تبعته هند يراقبون ما تحمل عفاف وقد كانت القطعة الثانية من النعل المفقود مغطاة ببعض الدماء المجمدة.

راقب أسامة ما تحمل عفاف، ومن ثم نظر لهند التي ابتسمت وقد تأكد الجميع الآن مَن الفاعل.

فتح أسامة فمه ليحيي عفاف على اكتشافها:

- برافو عليكِ عرفتي تلاقي الدليل.

ابتسمت عفاف بسمة مهتزة وهي تنظر لأسامة تردد بنبرة مرتجفة بعض الشيء:

- قلت حاجة يا عو؟

تجمد جسد أسامة يتبلع ريقه نافيًا برأسه:

- إن شاء الله تكون هند اللي اتكلمت.

تحدثت هند بصوت متوتر وهى تنظر خلف ظهر عفاف وأسامة بأعين مرتعبة:

- للأسف مش كل اللي بنتمناه بيتحقق يا عو.

استدار أسامة ببطء وقد أبت عفاف أن تفعل المثل، ترفض الاستدارة معه، بينما أسامة وحين أبصر سلطان يقف أمامهم سبّ جلال في نفسه وهو يردد:

- نص ساعة، معرفش يعطله أكتر من نص ساعة، بس أقول إيه أنا اللي غلطان إنّي اعتمدت على جلال.

ابتسم سلطان حين أبصر ملامحهم يقول وهو يدور بعينيه على كاميرات منزله التي كشفت له ما يحدث من خلف ظهره:

- هي دي الأصول يا باشا؟ تبعتلي واحد أهبل علشان يخرجني من بيتي وتدخله زي الحرامية؟

ختم حديثه يشير صوب جلال الذي كان يقف في الخلف لا ينطق بكلمة، بينما أسامة مسح وجهه يجيبه بهدوء شديد واستياء ساخر:

- أعمل إيه يا حاج سلطان مكانش قدامي غيره والله.

تدخل جلال معترضًا على كل ما يحدث:

- طب والله قعدت ألف بيه وهو اللي زهق وقعد يزعقلي علشان أروح، فاضطريت أرجعه لاحسن يخلص عليّ.

- فتقوم تكشفنا كلنا؟

- أمّال يقتلني؟

ضربه أسامة مغتاظًا يشعر بالغضب الشديد منه ومن كل ما يحدث معهم:

- لا نتكشف طبعا وتبوظ المهمة، أنا مش مكتوب لي أخلص مهمة واحدة من غير ما نتكشف، حرام عليكم نفسي أنهي مهمة واحدة من غير ما نعدي بالمرحلة دي.

ابتسم سلطان وهو يتحرك صوبهم لتنتفض عفاف تختبئ خلف أسامة تحتمي بظهره بينما سلطان حمل النعل بين أنامله يردد:

- كان لازم أحرقه، بس حبيت يكون ليّ ذكرى من كل واحد فيهم.

نظر لهم ثم قال بجدية:

- مكانش ينفع تعملوا كده؟ خاصة في الوقت ده ولسه اللعبة منتهتش.

اختفت عفاف أكثر خاف جسد أسامة الذي حاول جذب يده منها، بينما هي عاندت وشددت الضغط على ذراعه أكثر هامسة بنبرة باكية:

- ده بيتكلم زي أشرار الأفلام الأجنبي يا أسامة، شكله هيخلص علينا كلنا.

نظر لها بحنق يحاول إبعادها:

- والله أمّا سكتي لأكون أنا اللي مخلص عليكم.

تنهد، ثم أبعد عينيه عن عفاف يثبتها على سلطان الذي أكمل حديثه:

- لسه تار ابني مخلصش، وأكيد مش هضيع كل اللي عملته علشان شوية عيال زيكم مش لاقيين ليهم شغلانة غير أنّهم يدعبسوا في حياة غيرهم.

نظر أسامة لفريقه بحنق:

- دايمًا جايبين لي الكلام.

همست هند بسخرية:

- معلش يا حاج استحمل بقى واقبل قدرك.

- واستحمل ليه وأقبل بقدري ليه لما ممكن أغيره.

وقبل أن يستفسر أحدهم عن معنى كلماته كان سلطان يخرج سكينه من جيب بنطاله ويجذب جسد جلال له يهددهم به بصوت مرعب:

- يلا زي الحلوين كده اتحركوا قدامي بدل ما يبقى صاحبكم ده رابع ضحية ليّ.

تجمد الجميع في أماكنهم ولم يؤت أحدهم خطوة إضافية بعد رؤيتهم لسلطان يهدد جلال بنفس السكين الذي ذبح به الكثير قبله.

ابتلع جلال ريقه يحاول الفرار بين من قبضة سلطان المحكمة يردد بصوت مستعطف:

- كده يا عم سلطان؟ ده أنا جلال حبيبك اللي كنت بوصلك لكل مكان؟

نظر له سلطان بسخرية كبيرة:

- معلش يا جلال يا ابني، المضطر بقى، بعدين ما أنت شايف صحابك واللي بيعملوه، بيحشروا نفسهم في حياتي وأنا كنت كافي غيري شري.

- ولا يهمك يا عم سلطان معذور والله، طول عمرهم محدش طايقهم.

شدد سلطان قبضته على رقبة جلال ليطلق جلال صرخة حين شعر بنصل السكين يكاد يخترق جلد رقبته، ابتلع ريقه يحاول تحريك يديه للتحرر، لكن سلطان كان فطن لحركاته يصرخ في وجوه الجميع بشر مستطر وملامح مرعبة:

- قلت اتحركوا كلكم، ضموا على بعض كده بدل ما نودع كلنا جلال.

تحدث جلال بنبرة مرتجفة وهو يشعر بيد سلطان تضغط على رقبته بالسكين حتى بدأت قطرات دمائه تسيل عليها:

- ما تتحركوا بدل ما راسي تتدحرج تحت رجولكم كمان ثانيتين!

تحرك الجميع مستسلم لأوامر سلطان الذي تحدث بنبرة سوداء غاضبة:

- مش بعد كل ده يجي شوية عيال يبوظوا كل اللي عملته ويضيعوا حق ابني.

تحدثت هند تحاول النقاش معه ومحادثة الجزء العاقل داخل الرجل:

- وهو قتلك ليهم هيرجع حق ابنك؟ الحق مش بيتاخد بالشكل ده ابنك مـ ...

قاطعها سلطان وقد بدى أنّ الجزء العقلاني داخل عقله أشد ظُلمة من جزئه المجنون، يصرخ في وجوههم بحرقة وقهرة شديد:

- اه هيرجعه، لازم يدوقوا نفس الكاس اللي دوقوه لابني، دول ... دول قتلوه بدم بارد علشان بس كان عايز يخرج من حياتهم، كان كل اللى عايزه يعيش نضيف، بس هما رفضوا ده وقتلوه، هو معملش حاجة غلط ولا أذى حد فيهم، غلطه الوحيد أنّه اختارهم يكونوا صحابه.

كانت دموع سلطان تهبط بقوة وأمام عينيه صور عديدة لصغيره الذي رحل غدرًا عن حياتهم، رحل غدرًا فقط لأنّه كان مختلفًا عنهم، لأنّه اختار العيش بشرف وسط حفنة من الحثالة.

هبطت دموعه يهتف بوجع وهو يشارك ولأول مرة ما كنه داخل صدره مع أحدهم:

- خنقوه وبعدين ضربوا بالسكينة علشان قالهم لا، كل ده علشان رفض يكون واحد منهم، ابني عمره ما كان هيأذيهم، عمره ما كان هيورطهم في حاجة أنا عارف أنّه عمره ما كان هيعمل كده، لكن هما ...

صمت يبتلع غصته وقد ازدادت وتيرة بكائه يصرخ بغضب أشد قسوة:

- استكتروا عليه يعيش نضيف، بس معلش أنا أخدت حقه منهم، ولسه الباقي، كل واحد شارك في اللي حصل من قريب أو بعيد هيحصلهم و ...

وقبل إكمال كلماته اندفع أسامة يضرب يده بسرعة مسقطًا السكين أرضًا، ثم جذب منه جلال يلقيه بعيدًا عن يد سلطان، وقبل أن يستوعب أحد ما يحدث كان جسد سلطان يلتصق بالأريكة منكبًا على وجهه وأسامة يكتف يديه خلفه بقوة، تحت نظرات الجميع المصدومة مما يحدث.

صاح أسامة في وجوههم يرى تصنمهم غير العادي، يراقبونه بأعين متأثرة ونظرات زائغة:

- أنتم بتعملوا إيه؟ اتصلوا بالدعم، اخلصوا.

سقطت دموع عفاف ولم تتحرك خطوة وهي تشعر للمرة الأولى بالشفقة على الجاني والضغينة تجاه المجني عليه، في هذه القصة كان الجاني هو نفسه الضحية، ابتلعت ريقها وداخلها رغبة بتحرير سلطان ودفعه ليكمل ما بدأه، لكن نظرات أسامة لها جعلتها تبعد

عينيها عنهم، بينما جلال بكى وهو ينظر لسلطان بحزن شديد، وهند تحاول التماسك وهي تخرج الهاتف الخاص بها تنفذ أوامر أسامة وتحضر الدعم.

أما عن سلطان فهو كان مُكبل الأيدي شارد الأعين، مبتسم الفاه، دامع الأعين، علامات متناقضة تلوح على وجهه، يرى أمام وجهه صورة ولده لتسقط دموعه هاتفًا بصوت خافت:

- حقك رجع يا أحمد.

وما هي إلا دقائق قد مرت عليهم حتى علت أصوات سيارات الشرطة في المكان والتي اقتحمت الحارة، ساحبة معها سلطان الذي كان يسير مرفوع الرأس مبتسمًا منتشيًا يراقب أعين الجميع المصعوقة مما يحدث.

الآن وقد شهدت حارة الجزار اعتقال الجاني، لم يحرك أحدهم ساكنًا ولم ينطق إنسان بكلمة واحدة لشدة الصدمة التي أصابتهم.

وسلطان كان يسير دون اهتمام يردد كلماته الأخيرة على مسامعهم:

- كل جاني وله نهاية، عيالكم حرموني من ابني، وحرمتهم من حياتهم، كله ليه دوره، دوركم جاي واحد واحد.

ختم حديثه يمر بنظراته على الجميع، قبل أن تتوقف فجأة في إحدى الجهات وتلين بشكل مريب، ثم أكمل طريقه بهدوء.

شعر صلاح بقلبه يكاد يتوقف من هول ما يرى، ولولا يد جلال التي أمسكته لكان سقط أرضًا، رفيق عمره هو مَن قتل ولده والجميع؟

أخذت الهمسات تتناقل بين الجميع والأعين جميعها شاخصة مصدومة مما يحدث، وهناك أمام إحدى البنايات كان يقف يراقب ما يحدث بوجه شاحب وملامح مذهولة، مَن قتل جميع رفاقه لم يكن سوى والد أحمد؟ كان سيُقتل ذلك اليوم على يد سلطان؟

شعر كريم بقلبه ينبض بعنف وقد خرج منه دون أن يشعر نفس عميق، وكأنّه كان يغرق أسفل أعماق المحيط تجرفه الأمواج يمينًا ويسارًا، حتى وجد قشته للنجاة وتعلق بها، فخرج أخيرًا يتنفس الصعداء.

لم يهتم بالسؤال عمّا حدث، ولم يهتم بما يجري حوله، كل ما كان يهتم له، أنّه تم الإمساك بالمجرم قبل هلاكه.

فجأة انتفض جسد كريم حين شعر ببرودة حديد تحيط بمعصميه، برودة غريبة جعلته يخفض نظره، ليرى أصفاد تحيط كفيه، اتسعت عينيه بصدمة يرفعها صوب أسامة الذي ابتسم له يقول:

- الكلبشات تليق بك يا كيمو، معلش يا هندسة هتنورنا شوية.

ختم حديثه يراقب الرجال تحركوا للإمساك بكريم الذي صرخ بفزع وعدم تصديق لما يحدث:

- إيه ده بتعملوا إيه؟ ابعد أنت وهو بتعملوا إيه؟ أنا معملتش حاجة، سيبوني.

لكن أسامة لم يهتم يضم ذراعيه لصدره وهو يراقبه، ثم تحسس بكفه القرص المدمج الصغير الذي وجده داخل منزل سلطان والذي يحتوي على المقاطع المصورة والتي كانت بداية هذه القصة.

راقب بعينيه الجميع حوله يدرك فيما يفكرون في هذه اللحظة، لكن الأمر مسألة وقت حتى يدركون الجاني من المجني عليه وهو سيتولى الأمر بنفس ...

الخاتمة

(نهاية المهمة)

هل تُعكر الأسرار صفو الهواء حولنا؟

فالآن وبعدما انقشعت كل الغيوم عن هذه الحارة وعلموا المجرم ومَن كان خلف كل هذا، شعر أسامة أنّه يتنفس هواءً نقيًا.

تنهد، يضع الحقيبة داخل سيارته مستندًا عليها يحدق بعينيه في المنازل المرتصة وكأنّه وأخيرًا يتنفس الصعداء بعد معاناة في كشف الفاعل.

ورغم أنّه في داخله يشفق على سلطان، بل ويدعمه فيما فعل، إلا أنّ أقصى ما يمكن مساعدته به هو تزويد السلطة التنفيذية بكامل الأدلة التي تثبت تهمة كريم ومَن معه وبهذا قد يخفف عنه الحكم، وسيعمل على مساعدته بأكثر إن استطاع.

ثوانٍ حتى أبصر هند تتحرك صوبه تحمل العديد من الحقائب وهي تنظر صوب المبنى الذي كانت تحيا به كل ذلك الوقت، تأبى وداعه، ليتساءل في نفسه هل حدث وأحبت هند مدحت حقًا و ...

مهلًا مدحت؟ لقد تناسى مدحت بالكامل في هذه الحكاية، مدحت الذي يبدو أنه كان خارج قائمة سلطان بالكامل، فحسب الأدلة هو لم يكن متواجدًا يوم مقتل أحمد، بل وكان أقرب المقربين له.

أما عن مينا فقد أبصره يودع كريم بنظرات متشفية وسعيدة، ولو كان يستطيع لسحبه مع كريم، لكن في هذه الجريمة لم يكن لمينا يد

في أي شيء، لذا تركه فيكفيه ما يعانيه مع خيري، خيري الذي كان له قصة أخرى ستكملها جهات التحقيق لاحقًا.

أفاق من شروده على صوت جلال الذي ألقى حقيبة صغيرة داخل صندوق سيارة أسامة مردّدًا بحنق كبير:

- أدينا خلصنا أهو، وقبضنا على اللي عمل كده، ياكش ناخد مكافأة أو أي حاجة مادية بدل ما إحنا شغالين معنوي طول الوقت.

ابتسمت عفاف التي تحركت لتتوسط المقعد المجاور لأسامة تقول بهدوء:

- ميهمنيش المهمة قد ما يهمني أنّها خلصت الحمد لله وإحنا عايشين.

دار أسامة بجسده صوبها ينظر لها نظرة صغيرة، ثم غمز لها بمزاح:

- والخطوة اللي بعد كل مهمة يا مدام عفاف.

ابتسمت له عفاف، ليهز رأسه لها بحنان، ثم تحرك صوب السيارة ليصعد لها وكذلك فعلت هند، وكاد جلال يفعل المثل، لولا أن أبصر صلاح يهيم على وجهه في المكان وكأنّه ضل طريقه، لعوان شعر جلال بالوجع عليه والشفقة، فهو فقد ولده على يد صديق عمره الذي كان يهون عليه حياته.

استأذن من أسامة بكلمات مقتضبة يتحرك صوب صلاح يناديه بصوت منخفض:

- عم صلاح.

توقفت أقدام صلاح عن التحرك ينظر جواره بأعين تائهة وكأنّه لا يشعر بالحياة حوله، ثوانٍ فقط حتى اتسعت بسمته يهمس لجلال الذي كان يناظره بحزن:

- طلعت مهم فعلًا يا بني مش مجرد سواق توكتوك زي ما بتقول.

ابتلع جلال ريقه يقترب منه خطوات بطيئة يحاول الحديث، قبل أن يمنعه صلاح بهدوء:

- روح لصحابك يا بني ربنا يوفقك في حياتك.

وقبل أن يرحل أوقفه جلال بكلماته التي خرجت منه بسرعة:

- عم سلطان عمل كده علشان أحمد، هما قتلوا ابنه.

توقف صلاح قبل التحرك خطوة إضافية وقد تغضنت ملامحه بألم واضح، يشعر بالوجع بدأ يتسرب من قلبه لباقي أجزاء جسده حتى شله بالكامل، وكأنّه يجهل هذه الحقيقة، حقيقة قذارة ولده التي قد توصله لقتل رفيقه بهذا الشكل، وحتى وإنْ لم يشارك في القتل كما يحاول قلبه الغبي التبرير، فلقد شارك معهم بصمته، بل وعاش بعدها بسلام وكأنّه لم يأثم في التخلص من أحد أصدقائه.

ابتسم صلاح بحزن يردد:

- عارف، وحقه، لو كنت أنا اللي مكانه كنت عملت أكتر من كده.

ختم حديثه يرحل ببساطة دون التوقف ثانية لسماع جملة جلال التي اندلعت بعد كلماته هذه:

- مش هنساك يا عم صلاح وهاجي على طول ألعب معاك طاولة

وهزورك دايمًا.

لكن صلاح كان قد رحل بالفعل يجر خلفه أذيال الحزن والخيبة والقهر التي نبتت له جراء فعلة ولده، يتساءل في نفسه ما الذي قصر به معه لتجني يديه كل هذا؟

عاش شهورًا طويلة يدعو في كل صلاة على قاتل ولده، واتضح في النهاية أنّ ولده قاتل كذلك، رحل أشرف وخلّف وراءه قهر وعار لن يمحوه الزمان، عار سيسير به صلاح المتبقي من عمره.

***

انطلقت سيارة أسامة تشق طريقها صوب المركز ليسلم كافة الأدلة التي جمعوها والملف الذي يحوي كل ما حدث، ابتسم وهو ينظر لسعادة فريقه بعد تحقيقهم النجاح في مهمة أخرى، الفخر بهم يزداد يومًا بعد يومٍ.

وبغض النظر عمّا يلاقيه منهم طوال الوقت أثناء المهمة، وقرب موته بذبحة صدرية، إلّا أنّ النهاية السعيدة تنسيه وتشفع لهم.

مرّ بالسيارة على منازل حارة الجزار التي حملت للجميع ذكرى صغيرة بنوها أثناء تلك الأسابيع المنصرمة، يبتسم وهو يسمع أحاديثهم في الخلف عما حدث وما قابلوه أثناء تلك المهمة قبل أن يتوقف إدراكه عند كلمة جلال التي نطقها بكل بساطة:

- والله أكتر حاجة هتوحشني هي الصلاة مع عن صلاح وعم سلطان ربنا يفك سجنه كنت بـ ...

وقبل إكمال جملته -التي تحمل حنينًا لم يجف بعد- أطلق صرخة

متزامنة مع صرخة عفاف وهند حين توقفت سيارة أسامة بقوة كادت تتسبب في انقلاب السيارة بمَن فيها.

نظر الجميع بفزع صوب أسامة الذي كان يمسك مقود السيارة متسع الأعين وكأنّه أدرك شيئًا للتو يستدير صوب الجميع الحانق منه وقبل أنْ ينطق أحدهم كلمة واحدة صرخ بهم يقول:

- إزاي فاتتني دي، أنا برضو قلت فيه حاجة نقصاني، إزاي فاتتني؟

تعجب الجميع صراخه وكلماته، لتقرر عفاف التحلي بكل الشجاعة وسؤاله وهو في هذه الحالة عما يقصد:

- مش فاهمين يا عو، نسيت حاجة في الشقة ولا إيه؟

نظر لهم أسامة وعقله يدور في دوائر مفرغة يشعر بالغباء الشديد، والحمق، عينيه متسعة بشكل جعلهم ينظرون لبعضهم البعض بخوف من ردود فعله وقد أمسك جلال مقبض الباب على استعداد للقفز في أي ثانية، لكن وقبل أن يتخذ خطوته تلك توقف على صوت ضحكات أسامة العالية والذي بدأت ملامحه تشتد بشكل غريب.

تبادل الثلاثة النظرات بريبة وقد همست هند لجلال:

- أسامة اتجنن.

رد لها جلال الهمس بالمثل وقد ارتسمت بسمة منتصرة على شفتيه وكأنّه لتوه حاز جائزته الكبرى:

- فرصتي أقود الفريق.

رمته هند بسخرية واستهزاء، وقبل قول كلمة تحدثت عفاف وهي تربت على ذراع أسامة بخوف عليه من الجنون كما يتهمه الاثنين بالخلف:

- مالك يا عو إيه اللي حصلك ما كنا طالعين وأنت بعقلك يا أخويا.

نظر لها أسامة يردد وعينيه ما تزال تحمل صدمته مما وصل له للتو:

- سلطان ... سلطان مش هو اللي قتل الكل، مش سلطان، في اليوم اللي حاول القاتل يتخلص من كريم بعد صلاة الفجر كان وقتها سلطان في المسجد أساسًا وأنا سيبته قاعد مع صلاح هناك، يبقى إزاي لحق يخرج لا ويعرف مكان كريم ويتربص ليه؟ إزاي عمل ده كله؟ والسكينة اللي كانت مع القاتل يومها وكان محمد ماسكها في صورة، شوفتها في صورة تانية في بيت سلطان لما كنا فيه بس مش في إيد محمد.

صمت الجميع وقد شعروا للحظة بالتشوش قبل أن يلقي أسامة بالكارت الثاني أمامهم يمنحهم الصدمة الثانية:

- محدش فيكم فكر إزاي سلطان عرف حقيقة اللي حصل لأحمد وهو مكانش حاضر أساسًا؟

صمت عم المكان بأكمله حيث لا يُسمع سوى صوت الأنفاس، قبل أن يقطع كل ذلك صوت هند الذي خرج شاردًا وكأنّها تتحدث من عالم آخر:

- مدحت.

***

هل يمكن أن تدور الحياة بهذه السرعة؟ أبهذا الغدر كانت وهو مَن خُدع بها، من أنّها ابتسمت له، لكن الحقيقة أنّها كانت تضحك عليه، كانت تضحك على غبائه وثقته الحمقاء بها.

غدرت به الحياة وتحولت حياته من نعيم لجحيم، تحول من شاب ناجح في عالم الأعمال يخط طريقة ويتوقع له الجميع نجاحًا باهرًا، إلى مجرم يُدفع داخل ممرات السجون ليلقى مصيره.

ظن أنّه ناجٍ مما جنت يداه، والحقيقة أنّه كان يغرق في بحار ظلامه معتقدًا أنّه يساير الأمواج.

ظن وظن وظن، لكن أخطأ ظنه، رمى الحياة بالباطل وأنها هي مَن أوصلته لهذه المرحلة، لكن في الحقيقة كانت الحياة هي أكثرهم براءة في هذه القصة، كانت الحياة بكل غدرها بريئة من كل شرورهم.

هبط من سيارة الشرطة أمام النيابة للعرض عليها، ليبصر أول ما أبصر وجه رفيقه ليهرع له، لولا يد العسكري التي أوقفته، ولأول مرة يشعر كريم بالعجز وهو يمد يده صوب مدحت يتوسله النجاة.

- مدحت ساعدني أنا مش عارف هما واخدني ليه؟ كلم سعد المحامي وهاته بسرعة الله يكرمك أنا مش فاهم حاجة.

كان مدحت يستند على سيارته وهو يرتدي نظارته السوداء يضم ذراعيه لصدره وعينيه مثبته على كريم الذي بدا كما لو أنّه في هذا الكرب منذ سنوات فقد شحب وجهه وامتلأ السواد الفراغ أسفل

عينيه.

تحرك مدحت لكريم الذي وقف يطالعه بأمل وقد كان هو الوحيد الذي فكر بالمجيء هنا لمساعدته بعدما أبصر في عيون عائلته خزي وتخلٍ واضح منهم.

ابتلع ريقه حين وصل له مدحت يبتسم بسمة متسعة وقبل أن يبادر بقول شيء نزع مدحت نظارته السوداء يراقبه بعيون متشفية وبسمة غريبة، ثم حرك عينيه صوب الأصفاد التي تحيط يديه:

- مبارك يا حبيب أخوك، عقبال الحكم الكبير إن شاء الله.

نظر له كريم بعدم فهم:

- مدحت ... أنت ... أنت بتقول إيه؟

ابتسم له مدحت يكمل بهدوء شديد دون الاهتمام بنظراته المصدومة أو ملامحه التي شحبت أكثر:

- متقلقش مش هسيبك في المحنة دي لوحدك، هحضر كل جلسات المحاكمة بتاعتك بنفسي ولو أطول أحضر إعدامك هعمل كده.

صمت ثم أكمل بهمس خافت وهو يميل عليه:

- مع إنّي كنت أتمنى أعمل ده بنفسي اليوم إياه، بس فلتّ مني.

ابتعد عنه ببطء ليتصلّب جسد كريم بقوة وهو يشعر بالأرض تدور تحته، يحاول فهم كلمات مدحت التي ألقاها لتوه في وجهه، لتخبره بسمة مدحت السوداء أن ما وصل له صحيح.

كان هو، كان مدحت هو نفسه الذي حاول قتله ذلك اليوم؟

ارتجف صدره لتتسع بسمة مدحت حين أدرك أن مغزى حديثه وصل له:

- أيوه بالضبط اللي فكرت به.

ختم حديثه يربت على كتفه مردّدًا بهدوء:

- أنا فعلًا هجيب محامي يا صاحبي، بس اللي هجيبه هيكون علشان أضمن أنّك متشوفش نور الشمس تانى فى حياتك.

ختم حديثه يضع النظارة على عينيه يهتف بسخرية وكلمات غير مفهومة للجميع حوله عدا كريم:

- مش لو كنت استسلمت لمصيرك اليوم إياه كان زمانك دلوقتي بتدحرج التماسي على الراقدين تحت التراب ومريح دماغك من كل الوش اللي أنت داخل عليه؟ ده أنا حتى إيدي خفيفة يا جدع حتى ابقى اسأل سالم لما تروح ليه.

تابع حديثه بضحكة صاخبة يتحرك صوب سيارته تاركًا كريم مكانه متجمدًا من صدمته ومما سمع، إذن مَن قتل سالم لم يكن سلطان، كان مدحت؟

شعر بجسده يكاد يسقط أرضًا وقد غاص قلبه من هول الفزع الذي شعر به في هذه اللحظة لولا يد الرجل خلفه والتي جذبته بخشونة للداخل يلقي على مسامعه كلمات حادة لم ينتبه لها كريم وعينيه ما تزال مثبته على سيارة مدحت ووجهه الذي ابتسم له وهو يبتعد عنه يلقي له بالتحية، ومن ثَمّ اختفى عن الأنظار.

أما عن مدحت فبمجرد ابتعاده عن المكان زاد من سرعة سيارته وهو يشدد من يده على المقبض يشعر أنّه وأخيرًا سيستطيع النوم بسلام، تبقى فقط رؤية الحبل يلتف حول رقبة كريم حتى يهنأ بنومته، ذلك النوم الذي لم يزر عينيه منذ اليوم الذي أبصر به مقتل رفيق حياته بعينيه دون القدرة على التحدث بكلمة واحدة لينقذه بها.

يوم مقتل أحمد

خرج مدحت من المنزل حانقًا مختنقًا بكلمات أحمد التي ألقاها على مسامعه قبل الرحيل، نبذ الشيطان وقرر ترك جانبه والانضمام لرفيقه، سيسانده ويبتعد عن هذه الشراكة التي سحبته صوب مستنقع كاد يغرق به.

نظر لساعة يده، ثم أخرج هاتفه ليتصل بأحمد، لكن لا إجابة وصلت له منه، زفر وقد قرر التحرك صوب الشقة التي يجلسون بها عادة والبحث عنه هناك، لا بد أنّه ذهب يخبرهم رغبته في الرحيل.

صعد سيارته وتحرك بها صوب مقرهم، وبمجرد وصوله هبط يحمل معه الهاتف وقرر الاتصال بأحمد كمحاولة أخيرة، لا يود الصعود في هذه اللحظة، لكن مجددًا لا رد.

زفر بغضب يغلق باب سيارته بعنف، وما كاد يتحرك صوب مدخل البناية، حتى أبصر جسد أشرف يخرج منها يتحرك حول نفسه بشكل مريب جعل مدحت يتحرك صوبه ليرى ما يحدث، لكن سبقت خطواته خروج الجميع من البناية بشكل مريب، يحيطون بكريم الذي يحمل مع سالم شيء طويل ملتف داخل قطعة قماش تعود

للأريكة التي تتوسط البهو في شقتهم.

ضيق مدحت ما بين حاجبيه متعجبًا ما يحدث يبصرهم يتحركون بشكل مريب بعيدًا عن البناية مستغلين هدوء المنطقة والوقت المتأخر من الليل، يتحركون صوب جهة مجهولة.

ابتلع ريقه وهو يدقق النظر ليكتشف أنّهم يحملون جسدًا ساكنًا بشكل مريب، نبض قلبه بعنف يحاول معرفة ما يحدث وعينيه تمر عليهم تحصاهم ليجد ألّا أحد ينقصهم سوى ...

- أحمد.

كانت همسة ملتاعة مرتعبة وهو يرتجف متحركًا خلفهم بهرولة، يحاول ألّا يبصرونه، يتحرك خلفهم ليرى ما يحدث وهو يدعو داخله ألا يصدق حدسه، حتى وجدهم يصلون لمجرى المياه الذي يمتد في أحد الطرقات الكبرى في المكان.

وقبل التحدث بكلمة وجدهم يلقون بالجثة بقوة، وحين تأكدوا أنّها اختفت أسفل المياه، هرولوا بسرعة تحت نظرات مدحت الذي كان متصنمًا في وقفته، وقد شلته الصدمة حتى عجز عن اتخاذ أي ردة فعل، شعر بجسده يتجمد من هول ما يرى، تحرك بخطوات بطيئة صوب الحافة وقد ارتجفت شفتيه مما يرى.

سقطت دموعه دون وعي يحاول استيعاب ما يحدث وقد أدخلته الصدمة في حالة من اللا وعي ولم يفق سوى على صوت الهاتف الذي أخرجه من جيبه يجيب عليه بهدوء وصوت مرتجف:

- أيوه يا عم سلطان.

سمع صوت سلطان يصدر من الجهة الأخرى لتتحرك عينيه الدامعة المصدومة صوب المياه التي لم تهدأ أمواجها بعد وكأنّها تأبى إخفاء خطيئتهم بين طياتها:

- أيوه لقيت أحمد.

أفاق مدحت من شروده وهو يسمع رنين هاتفه الذي أنار شاشته اسم المحامي والذي وكّله خصيصًا للدفاع عن سلطان واتهام كريم بكل شيء.

زاغت نظراته يتذكر العم سلطان والذي بمجرد معرفته المتسبب في كل ذلك بعدما قص عليه كل شيء قرر الانتقام منهم، ليساعده مدحت في كل خطوة ويجرهم صوب الشقة واحدًا تلو الآخر كي يصنع الأجواء المناسبة للعم سلطان، منح له فرصة التخلص منهم، ومن ثَمّ يذهب هو ليحمل جثثهم ويلقي بها بنفسه في المياه، عدا سالم.

الوحيد الذي صمم هو على قتله هو وكريم بيديه بعدما أخبرهم أشرف قبل موته ومن شدة خوفه أنّ سالم وكريم هما مَن قتلاه.

اتسعت بسمة مدحت السوداء وهو ينظر للهاتف وقد انتصر وأخيرًا وختم لعبته التي خطط لها بكل مهارة، كلهم كانوا بيادق في جولته وقد سقطوا بأكملهم كما خطط.

والآن تبقى البيدق الأخير في لعبته ألا وهو كريم، وهذا سيتأكد بنفسه أنّ سقوطه لن يتبعه نهوض البتة.

***

بعد ساعات تقريبًا اقتحم أسامة المنظمة وخلفه الجميع مصدمين مما وصلوا له وما أخبرهم به أسامة في الطريق، كان يتحرك بسرعة صوب الباب الخاص بالقائد الأعلى له ليبلغه ما توصل له، لا يهتم بالهمسات حوله ولا يهتم بشيء ولا حتى بالسير بكل هيبة وببطء كما اعتاد الفعل بعد كل مهمة، فقط كل ما يريده هو الوصول للمكتب الخاص بالقائد ليخبره الحقيقة الناقصة، يعلم أنّه لا بد وقد تلقى إشارة النجاح والقبض على المتهم.

مد يده ليطرق الباب ويقتحم المكتب بعدها ليصرخ بالحقيقة، لكن في اللحظة الأخيرة توقفت يده قبل لمس الباب يبلل شفتيه، ثم تراجع بهدوء للخلف تحت نظرات الجميع المذهولة، استدار لهم يردد بشرود غريب:

- خلينا نرجع مكتبنا.

وبهذه الكلمات ختم وجوده أمام مكتب قائده يجر خلفه الفريق ولا أحد يعلم ما يفكر به أسامة في هذه اللحظة.

دخل أسامة المكتب وقبل جلوسه أوقفته هند وهي تقول معترضة:

- ليه يا عو مدخلتش تقول الحقيقة للقائد؟

نظر لها أسامة ثواني، ثم صمت يفكر في شيء ولا أحد يعلم ما يدور داخل عقله قبل أن يقرر هو التصريح به:

- مش هقول حاجة ولا حد منكم هينطق بحاجة.

اتسعت الأعين بصدمة كبيرة ولا أحد يصدق أنّ مَن يخفي

الحقيقة الآن هو نفسه الباحث الأول عنها.

اندفعت عفاف صوبه تتساءل بريبة:

- أنت بتهزر يا أسامة؟ هنخبي كمان على القاتل؟ وهنخلي سلطان يشيل الليلة لوحده وهو مقتلهمش كلهم؟

تحركت عيون أسامة بينهم، ثم نهض يسير أمامهم قائلًا ببساطة:

- أنا بعمل اللي سلطان كان عايز يعمله، هو لو كان عايز يقسم الليلة عليهم كان اعترف، بس هو حتى مجابش اسمه بالغلط في الموضوع.

لم يفهم أحدهم ما يريده أسامة في هذه اللحظة، كيف اندفع في البداية بصدمة حين اكتشف ورغبته في الكشف عن كل شيء، وفجأة توقف.

لكن ما لا يعلمه الجميع أن أسامة لثوانٍ تذكر نظرات سلطان الأخيرة وهو يرمق الحارة بأكملها بكره ومقت وقهر، حتى وصلت عينيه لنافذة المنزل التي كان يحتلها مدحت يراقبه بصدمة كبيرة وأعين دامعة، في هذه اللحظة تغيرت نظرات سلطان ليبتسم دون وعي بدفء وحنان، ثم هز رأسه وسار بهدوء شديد مع الشرطة دون اهتمام.

الرجل فدى مدحت بنفسه، مدحت الذي قتل واحدًا فقط، ما يزال صوت سلطان يرن في أذنه وقت تهديدهم بجلال حين أخبرهم أنه سيكون الرابع له، وهذا يعني أنّ مدحت قتل واحدًا فقط.

تنهد بصوت مرتفع يخرج من كل ذلك يلقي الملف على الطاولة

قائلًا بجدية:

- المهمة اتقفلت خلاص، والملف هيتسلّم.

ولم يعارضه أحدهم بكلمة واحدة وقد رأوا التصميم يعلو نظراته، ليغلق أسامة القضية بشكل رسمي.

ثم رفع عينيه ببسمة صوب عفاف التي تفاجأت بنظراته وشعرت بالريبة وهي تردد:

- إيه؟ بتبص كده ليه؟

ابتسم لها يغمز بعبث جعل أعين عفاف تتسع بعدم فهم، وهو فقط أطلق ضحكات صاخبة على نظراتها، يتحرك صوبها يتوسط مقعدها يضمها بين ذراعيه بحنان مردفًا:

- إيه يا فوفا؟

نظرت عفاف حولها صوب جلال الذي اتخذ جانبه ليتحدث مع مخطوبته العزيزة والتي أفتقدها كل هذه الأيام دون سماع كلمة منها، وإلى هند التي بدأت ترتب مكتبها براحة شديد بعد العودة تردد:

- إيه يا عو ناوي على إيه مع البنت؟

نظر لها أسامة يردد بسعادة كبيرة وقد ارتجف قلبه لقرب وصوله إلى غايته:

- ناوي على الخطوة التالتة يا هند.

أنهى جلال المكالمة سريعًا بعدما اتفق معها أنه سيذهب ليأخذها

كي تقابل والدته وتقضي معهم يومها، يتحرك صوب أسامة يجلس أمامهم على المقعد الصغير يستمع لحديث أسامة الذي أشار لعند بالاقتراب.

- قررت إن فرحي على فوفا بإذن الله هيكون خلال أسبوع من دلوقتي فجهزوا نفسكم.

اتسعت عيون عفاف بصدمة وسعادة طغت على شعورها الأول تشعر بقلبها يرتجف، ولم تكن بالوعي الكافي لتهتم بانتشال هند لها من جوار أسامة تعانقها وتبارك لها، بينما بدأ جلال يبارك لهما بسعادة طاغية:

- مبارك يا عو، المرة الجاية أنا بقى.

ابتسم له جلال يعانقه بسعادة وقد انتشرت البهجة بينهم.

السعادة التي تلي كل مهمة حين يجتمع بهم منتصرين تبدد كل الغضب والحنق والقلق الحيرة التي مر بها خلال تلك المهمة، حياته ليست بالعادية يعترف بذلك، لكن السبب في كل هذا لم يكن كونه محققًا يحيا كل يوم مغامرة ويمر بمخاطر مجهولة، بل صُنفت حياته بغير العادية، لأنه امتلك فريقًا راهن الجميع على فشله، ورغم ربحهم الرهان مئات المرات، بل ملايين المرات، إلا أنّه لم ييأس يومًا أنّه وفي لحظة ما سيُكتب لهم النجاح، حتى وإن وصلوا لذلك النجاح مُكبلين كما جرت العادة.

فجأة ومن بين كل تلك السعادة والبهجة فُتح باب المكتب بواسطة أحد الرجال الذي ردد بجدية وبسمة:

- مساء الخير، القائد الأعلى مستنيكم في مكتبه علشان المهمة الجديدة.

نظر الجميع لبعضهم البعض بصدمة، هم لتوهم عادوا من واحدة، كيف يتم الدفع بهم لأخرى؟

ابتسم جلال بتكبر وقد نظر للأمر من منطلق نختلف عن الجميع:

- معقولة مبقوش يعرفوا يعملوا مهمات من غيرنا، فبقوا يستنوا رجوعنا بفارغ الصبر؟

ابتسم أسامة وقد أرضى هذا التحليل غروره وبشدة، لينهض يعدل من ثيابه مشيرًا لهم بالسير خلفه مشية النصر المعتادة بين الممرات.

يتقدم سرب البط الخاص به صوب مهمة جديدة وغموض جديد ينتظر وصولهم لينكشف للجميع، فريقه الذي سخر منه الجميع سابقًا خطّ لنفسه مكانة بين الجميع، مكانة لن يتجرأ أحدهم يومًا على التقليل منها.

فخور؟ نعم وأكثر من فخور، فقد أثبت سرب البط البلدي خاصته للجميع أن أسراب البط تتقن الكثير غير الرفرفة، والسباحة في البرك، والتصرف دون تفكير، أثبتوا لهم أنّ البط البلدي يمتلك الكثير والكثير خلف تلك الملامح البلهاء.

فريقه العزيز الذي شكك الجميع فيهم وأولهم هو – وما زال حتى الآن في الحقيقة- يثبت للكل أنّه قادر على الوصول لأي هدف يضعه نصب عينيه.

توقف الجميع أمام مكتب القائد ليبتسم أسامة مردّدًا بتساؤل

وحماس شديدين:

- جاهزين للمهمة الجاية؟

ولم تخيب الإجابات الخاصة بهم ظنه إذ انطلقوا للحديث في صوت واحد دون تفكير وبحنق شديد.

- لا.

ومن ثم تتابعت الحجج على مسامعه دون هوادة:

- أنا لسه عايزة أتعافى من اللي شوفناه.

- مهمة إيه يا عو وفرحنا بعد أسبوع؟ هو أنتم هتاخدوني في دوكة ولا إيه؟

- الحقيقة أنا معنديش استعداد أرهق عقلي وتفكيري، محتاج أديله راحة علشان أكون مستعد للي جاي، أنتم مش مقدرين المجهود اللي ببذله كل مهمة ولا إيه؟

وهل يستمع لهم أسامة؟ لا والله وإلا لكان فقد عقله منذ سنوات، لذا لم يهتم وهو يطرق الباب مبتسمًا بسمة واسعة متحدثًا بحماس:

- يبقى توكلنا على الله.

علت خلفه الصيحات المستنكرة والصرخات الرافضة والكلمات المعترضة لما يحدث، وقد بدأ كل واحد منهم يحرك يده في رفض لهذا الواقع، وأسامة يقف أمامهم يعطيهم ظهره مبتسمًا بمزاج صافٍ يضع يديه داخل جيب بنطاله ينتظر أن يجيبهم قائده بإذن الدخول، والكلمات خلفه لا تعنيه، هم يصرخون ويعترضون وهو يصفر ويغني

بکل برود.

لكن هل هذه كانت النهاية؟

ربما كانت نهاية بالفعل.

نهاية مهمة، وبداية أخرى حتى وإن لم يشاركنا العو بها بشكل رسمي، لكنك يا عزيزي مدعو لجميع مهامهم المُعلنة منها وغير المُعلنة.

وربما تكون

"للعو عودة"

تمت

بحمد الله